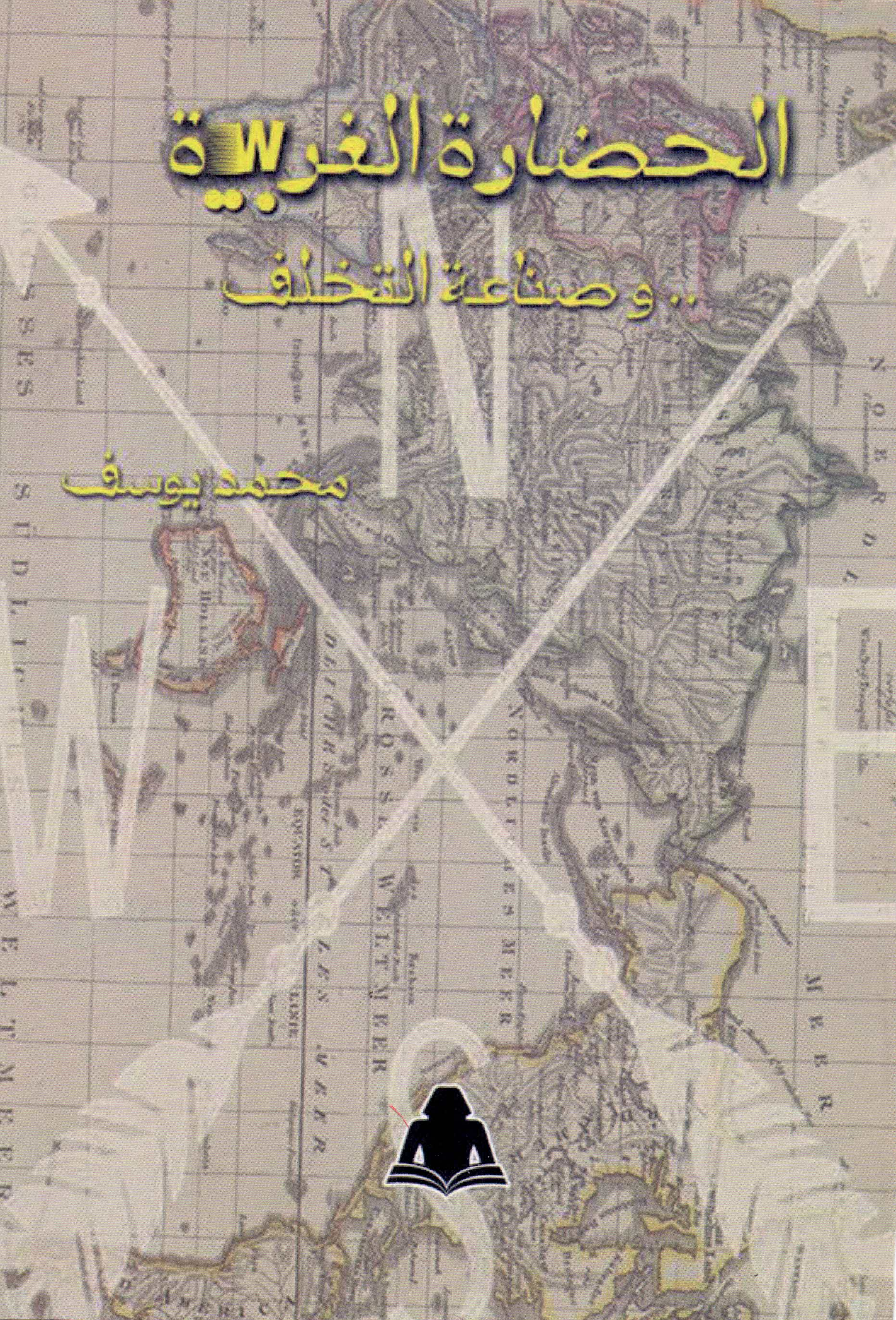

الحضارة الغربية
.. وصناعة التخلف
محمد يوسف

يتجول مؤلف هذا الكتاب محمد يوسف داخل دائرة واسعة من أدبيات الفكر السياسي والتاريخ والاقتصاد السياسي. فضلًا عن دائرة الثقافة ومختلف الاتجاهات الفكرية. لكي يثبت للقارئ العربي المعاصر أن الحضارة الغربية وراء تخلف أهل المشرق إن لم يكن جميع شعوب العالم الثالث بدرجات متفاوتة.

مع أن أهل الغرب الذين يتعاملون مع أهل الشرق باستعلاء. أخذوا "حضارتهم" في الأساس من المشرق كما أثبت. وخاصة من بلاد العراق القديم (حضارة ما بين النهرين). وحضارة مصر القديمة (الفرعونية). وحضارة أهل الشام (الفينيقية). وهو بهذا يؤكد مقولة: الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا. التي قالها رديارد كيبلنج الشاعر الإنجليزي الذي ولد في الهند في ثلاثينيات القرن التاسع عشر. وعاش هناك فترة من حياته وخرج بهذه النتيجة .

د.عاصم الدسوقي




ISBN# 9789779111773
6 221149 044579

١٣
جنيهاً

الحضارة الغربية...
وصناعة التخلف!



رئيس مجلس الإدارة

د. هيثم الحاج علي

رئيس الإدارة المركزية للنشر

د. سهير المصادفة

الإخراج الفني

مرفت النحاس

الحضارة الغربية...
وصناعة التخلف

تأليف/ محمد يوسف

الطبعة الأولى: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٧

ص.ب ٢٣٥ رمسيس
١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق القاهرة
الرمز البريدي : ١١٧٩٤
تليفون : ٢٥٧٧٥١٠٩ (٢٠٢) داخلي ١٤٩
فاكس: ٢٥٧٦٤٢٧٦ (٢٠٢)

GENERAL EGYPTIAN BOOK ORGANIZATION
P.O.Box: 235 Ramses.
1194 Cornich El Nil - Boulac - Cairo
P.C. : 11794
Tel.: +(202) 25775109 Ext. 149
Fax: +(202) 25764276

website: www.egyptianbook.org.eg
E-mail: ketabgebo@gmail.com
www.gebo.gov.eg

الطباعة والتنفيذ
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

يوسف، محمد.
الحضارة الغربية... وصناعة التخلف/ محمد يوسف. - القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٧.
١٨٤ص: ٢٤سم.
تدمك ٣ ١١٧٧ ٩١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ - الحضارة - تاريخ.
٢ - الحضارة الغربية.
أ - العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٤٢٦١/ ٢٠١٧
I. S. B. N 978 - 977 - 91 - 1177 - 3
ديوى ٩٠١,٩



الحضارة الغربية...
وصناعة التخلف!

محمد يوسف



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠١٧

الإهـداء

إلى الثائر النبيل والمقاوم العنيد الذى رفض تسلط هذه الحضارة الغربية، ورفض ظلمها، ورفض تجبرها، ورفض ديدنها العدوانى المصاحب لها منذ نشأتها.

وإلى الذى هزمها وأزاحها من على قلب ووجدان وتاريخ وموارد وطاقات الأمة العربية، ومن واقعها.. وقاد تشييد أول وأكبر مشروع عربى للنهضة والتقدم فى تاريخ العرب الحديث، على أطلال هذه الحضارة نفسها.

إلى الخالد... جمال عبد الناصر.

مقدمة

يتجول مؤلف هذا الكتاب محمد يوسف داخل دائرة واسعة من أدبيات الفكر السياسى والتاريخ والاقتصاد السياسى، فضلا عن دائرة الثقافة ومختلف الاتجاهات الفكرية، لكى يثبت للقارئ العربى المعاصر أن الحضارة الغربية وراء تخلف أهل المشرق إن لم يكن جميع شعوب العالم الثالث بدرجات متفاوتة، مع أن أهل الغرب الذين يتعاملون مع أهل الشرق باستعلاء، أخذوا "حضارتهم" فى الأساس من المشرق كما أثبت، وبخاصة من بلاد العراق القديم (حضارة ما بين النهرين)، وحضارة مصر القديمة (الفرعونية)، وحضارة أهل الشام (الفينيقية)، وهو بهذا يؤكد مقولة: الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا التى قالها رديارد كيبلنج الشاعر الإنجليزى الذى ولد فى الهند فى ثلاثينيات القرن التاسع عشر وعاش هناك فترة من حياته وخرج بهذه النتيجة.

وفى إثباته للعنوان المثير الذى اختاره كان عليه أن يتتبع العلاقة غير المتكافئة بين الغرب والشرق، وكيفية توسع رأس المال الغربى تحت راية "الإمبريالية" فى بلاد العالم الثالث، والسياسات التى اتبعتها دول "الحضارة الغربية" فى تلك المناطق على مدى عشرات السنين ابتداء من القرن السادس عشر، ثم كيف ورث الأمريكان (الأوروبيون الجُدُد) مناطق العالم الثالث باسم العالمية، واتبعوا فيها نفس السياسات ولكن بوسائل مختلفة. بحيث يصرخ المؤلف قائلا فى شجاعة: "إن حضارة الغرب التى تمثلها أمريكا هى حضارة فاجرة بما ترتكبه فى بلاد المشرق".

ولقد قسم مؤلفنا الشجاع مراحل هذا الفُجر الأمريكى إلى ثلاث مراحل: الأولى مرحلة الإبادة الجماعية فى إشارة إلى إبادة الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين، والثانية مرحلة النهب العالمى لبلاد العالم الثالث، والثالثة مرحلة تنمية التخلف التى لا تزال قائمة. وقوام هذه المرحلة: التجارة بمبادئ الحرية والإنسانية، واستخدام الإعلانات (الميديا التجارية)، وتكوين مراكز بحوث وهمية تحت راية المخابرات الأمريكية دون أن يدرى أصحابها الذين يتقاضون إعانات مالية أنهم يخدمون الأجندة الأمريكية باسم الدفاع عن الحرية... إلخ، وكيف أن دور إسرائيل فى هذه الأجندة يتلخص فى الإعلان عن محاربة الإرهاب والتدخل الإنسانى لصالح الحريات، ولكنها سرًا تعمل لصالح تنمية التخلف ابتداءً بعرب فلسطين الذين هم تحت أيديها. وهنا يربط المؤلف بين أمريكا والصهيونية منذ نشأتها ومباركتها للفظائع التى ارتكبها اليهود ضد أهل فلسطين عشية ١٥ مايو ١٩٤٨، وهى فظائع يندى لها الجبين ولا يجب أن ننساها، بل علينا أن نتذكرها دائمًا؛ لأنها موصولة بما يقوم به يهود إسرائيل حتى الآن.

ولا يفوت المؤلف أن يفضح مشروع الشرق الأوسط الجديد الذى يعنى تفتيت بلاد الأمة العربية، وكيف أنه يعود إلى فبراير عام ١٩٨٢ وكان غزو إسرائيل للبنان فى سبتمبر ١٩٨٢ أولى حلقات سلسلة التفكيك لصالح هذا المشروع المشبوه.

وفى رحلة المؤلف لإثبات مقولاته وتصنيفاته لهذا الغرب "الفاجر" نراه يلتقط حقائق متناثرة ومقولات مصاحبة لمفكرين وسياسيين، ويقف عندها كثيرًا؛ لكى يقتحمها ويقدم مداخلاته عليها فى سخرية ملحوظة، وهى طريقة غير مسبوقة فى التأليف كما يلاحظ القارئ.

إن هذا الكتاب جدير بالقراءة وبخاصة من السياسيين الذين يتولون زمام الأمور فى بلاد الشرق؛ لكى يعرفوا الخطر الذى يحيط بأوطانهم وراء الابتسامة الزائفة التى يدخل بها عليهم المسئولون الغربيون من آن إلى آخر.

د. عاصم الدسوقى

كلمات يجب أن تقال:

يهمنى ويسعدنى أن أتقدم بكل الشكر، وبكل التقدير، للعالم الجليل الأستاذ الدكتور عاصم الدسوقى صاحب جائزة الدولة التقديرية فى العلوم الاجتماعية لعام ٢٠١٢، وعالم التاريخ وأستاذه، والذى تفضل بكتابة التقديم لهذا الكتاب... فأضاف إليه قيمة... ومنحه شهادة أعتز بها طول العمر.

محمد يوسف

مقدمـة (١)

الحضـارة الغـربيـة ـ فى كل الأحوال ـ ظاهـرة تاريخيـة بالغـة الضخامة والطول والعرض والعمق والتأثير، وفى زماننا هـذا فإنها "الحضارة الحاكمة" للاجتماع الإنسانى على سطح الكرة الأرضية كله، وهى القابضة عليه... وهذه السطور ليست معنية بهذا الحجم الهائل الذى للحضارة الغربية، بقدر ما هى معنية ببحث كيفية تكونه، وبالآثار التى خلفتها عملية التكوين تلك على قارتى أوربا وأمريكا الشمالية، من ناحية، وعلى باقى القارات والجماعات البشرية والحضارية الأخرى فى العالم كله، من ناحيـة أخـرى؟.

مقدمـة (٢)

الحضارة هى أكبر وأشمل منتج إيجابى شيده الإنسان عبر تاريخه، وكلمة "إيجابى" تعنى أن الحضارة التى شيدت والتى نقصدها، هى تلك التى قامت على "العدل"، فأحدثت انتقالات كيفية إيجابية فى حياة الإنسان، فحقق بهذه الانتقالات عمارة للأرض وإسعادًا لأهلها... أما الحضارة التى شيدت على الظلم والإذلال والنهب والقتل والتدمير، وهى السلوكيات التى عمدت إليها كل الإمبراطوريات فى بدايات تكونها، ثم شرعت بعد ذلك فى بناء مشروعها الإمبراطورى على أنقاض العدل المستباح، فإنها أكبر عمل سلبى قام به الإنسان عبر تاريخه، ومن ثم فإن التوصيف الصحيح لحضارة كتلك هو أنها حضارة... فـاجـرة.

وقد بدأت فى كتابة هذه السطور بعد يومين فقط من الإغارة الأمريكية الأوربية على العراق فى التاسع من أبريل عام ٢٠٠٣، وكانت الكتابة على فترات زمنية متقطعة، طالت وتعددت... ولم تكتمل الصياغة النهائية إلا فى الأيام الأولى من عام ٢٠١٢... وقد تضمنت هذه السنوات التسع مشاهد عملية على الأرض تؤكد ما ساد خلال تاريخ الحضارة الغربية كله، وهو أنها حضارة سقطت عنها كل أردية الخداع والزيف... ورغم جسامة وهول الإغارات التى تعرضت لها الأمة العربية على يد هذه الحضارة منذ العام ١٩٤٨ فى فلسطين، إلا أن مشاهد الإغارات الأخرى التى تعرضت لها كل من أفغانستان والسودان والصومال وليبيا وتتعرض لها حاليًا سوريا، كانت أيضًا من أكثر المشاهد شراسة وضراوة، ومن أشدها انحطاطًا وبربرية: حيث تجلت فيها جميعًا وبسفور واضح كل خطايا هذه الحضارة الغربية، المعتدية والقاتلة... والفاجـرة.

محمد يوسـف القاهرة: ١٥ يناير ٢٠١٢

من الضرورى أن تمتلك أية جماعة بشرية منظومة فكرية تصب فيها رؤيتها الكلية للحاضر، من ناحية، وأيضًا تضمنها رؤيتها الكلية للمستقبل الذى تسعى إليه وتنشده، من ناحية أخرى... ولقد كانت الصراعات التى نشبت بين الجماعات البشرية حول المصالح والموارد والإمكانيات بكل أشكالها منذ بداية تكون الدول والمجتمعات، وما أنتجته تلك الصراعات ـ بالتتابع ـ من بروز وتبلور للظاهرة الاستعمارية العالمية وما قد ترتب عليه من توحش لتلك الظاهرة، حتى أنها دمرت أربعًا من قارات العالم الخمس لتبنى قارة واحدة هى أوربا التى هى قاعدتها الأساسية حتى الآن، وبذلك تكون قد صنعت لنفسها النهضة والتقدم بما نهبته من إمكانيات وطاقات وموارد... وصنعت ـ فى الوقت نفسه ـ الفقر والتخلف والخضوع والمهانة للدول المغلوبة صاحبة هذه الإمكانيات والطاقات والموارد.

نقـول... إن كل ذلك أو بعضه، كان هو الذى فرض ضرورة امتلاك كل جماعة بشرية لمنظومة فكرية ما، تحدد فيها وبها أهدافها الاستراتيجية الجامعة لصنع الحاضر المعيش وتحديد ملامح المستقبل المبتغى... يستوى فى ذلك ـ

وبشكل مجرد ـ إن كانت هذه المنظومة الفكرية التى نتحدث عنها معتدية، أى ترتكز على العدوان والاحتلال والاستيطان والتوسع والنهب لتحقيق أهدافها، كما هى المنظومة الفكرية التى تنطلق منها الظاهرة الاستعمارية مثلاً... أو كانت منظومة معتدى عليها مدافعة، أى رافضة لهذا العدوان ومقاومة له، كما هو المفترض فى حالة الأمة العربية والعالم الثالث بصفة عامة مثلاً.

ولقد تم تشييد البنيان الحضارى والفكرى للبشرية على مدى التاريخ على محورين: الأول هو الاكتشاف المتتابع لحلول للمشاكل المتتابعة التى واجهت الإنسان فى طريق بحثه عن وسائل تحقيق الإشباع المادى والمعنوى له، أفرادًا وجماعات ومجتمعات... والثانى هو التأكيد المتتابع لما اكتشف من حلول إيجابية، والإصرار على تثبيتها وتنميتها ورفدها المتتابع أيضًا بما يكتشف من حلول جديدة... وهكذا.

وفى السياق نقول... إن الحكم بإيجابية أو سلبية هذه الحلول المكتشفة إنما يتحدد قياسًا على الأهداف الاستراتيجية التى تخدم مصالح واحتياجات هذه الجماعة البشرية أو تلك، بشكل مجرد وبغض النظر عن اتفاقها أو اختلافها مع منظومات القيم الإيجابية العليا للإنسانية، أو مدى تأثيرها السلبى على مصالح واحتياجات الجماعات البشرية الأخرى... وهذه نقطة نراها فارقة: لأن الحلول التى تضمنتها المنظومة الفكرية للحضارة الغربية و"مولودها" الذى هو الظاهرة الاستعمارية، والقائمة على العدوان والاحتلال والاستغلال والنهب لموارد وطاقات وإمكانات بشر وأوطان أخرى بهدف اقتناص المواد الأولية اللازمة للمصنع الرأسمالى من ناحية، ثم خلق الأسواق ـ بالقوة ـ لتصريف ما ينتجه هذا المصنع من ناحية أخرى... إنما هى حلول تخدم مصالح حاضر ومستقبل جماعة بشرية معينة هى الجماعة الأوربية، بغض النظر عن إضرارها بمصالح حاضر ومستقبل جماعات بشرية أخرى!. ومن ثم وبنفس القياس، فإن الحلول الإستراتيجية التى حكمت حركة الثورة العالمية والتى ارتكزت على المقاومة الشاملة والمفتوحة لكل أشكال الاستعمار والاستغلال، بلا حدود فى الزمان والمكان، بهدف تحرير هذه الأوطان ومواردها وإمكانياتها من السيطرة الاستعمارية، إنما هى حلول تخدم

مصالح حاضر ومستقبل هذه الشعوب، وتحقق لها إعادة امتلاكها لمثلث النهضة المقدس المتمثل فى: الثروة والسلطة والقرار.

والجماعة البشرية العربية هى واحدة من أكبر وأهم الجماعات البشرية فى التاريخ، وتلك ليست مقولة عنصرية ولا شوفينية وإنما هى إقرار بحقيقة، وقطع بها... إذ أن هذه الجماعة البشرية تمتلك من حقائق التاريخ وحقائق الواقع على الأرض ما يلى:

ـ الموقع الجغرافى الذى تختص به هذه الجماعة يتوسط العالم كله القديم منه والحديث، وتلامس شواطئه أهم وأكبر محيطات العالم وبحاره... ومن ثم كان وما زال هذا الموقع هو محور الوصل والاتصال بين أصقاع الأرض جميعًا، بخاصة بين الشرق الغنى بموارده وإمكانياته، وبين الغرب المتطلع ـ دومًا ـ إلى اقتناص هذه الموارد والإمكانيات، وعن طريق هذا الموقع المتوسط اتصلت أيضًا وتلاقحت ثقافات عديدة، وأنماط حياة وسلوك أكثر تعددًا... وعلى أرض هذه الجماعة البشرية تمت صياغة الجزء الأكبر والمهم من تاريخ البشرية.

ـ تضم هذه الجماعة بين جنباتها أقدم حضارتين شيدهما الإنسان منذ فجر التاريخ وهما الحضارة الفرعونية فى مصر، وحضارة بلاد ما بين النهرين فى العراق، وهما الحضارتان اللتان علمتا البشرية الاستقرار فى أودية الأنهار ومغادرة مرحلة "التقاط الطعام" التى كانت قائمة على التجوال الدائم فى الغابات والقفار للحصول عليه، ثم الدخول إلى مرحلة "صنع الطعام" فى أماكن الإقامة الدائمة التى أوجدها ذلك الاستقرار... ومن ثم تمكن الإنسان ـ المستقر غير المتجول ـ من اختراع الزراعة والصناعة، واختراع المجتمع، واختراع الأسرة، واختراع الوطن... واختراع القراءة والكتابة (الأبجدية الأولى فى حياة البشرية، بدأت فى سيناء فى مصر، ثم انتقلت إلى سوريا ومنها إلى فينيقيا، ثم إلى الجزيرة العربية) والحساب والفلك والطب والهندسة، وبذلك تم تشييد المدماك الأول والأقوى فى صرح الحضارة الإنسانية كلها... وبصفة عامة فإن أكثر من نصف الآثار السليمة الباقية والموجودة على سطح الأرض، يوجد فوق الأرض العربية.

يقول "ول. ديورانت" فى مقدمة كتابه "قصة الحضارة": (إن قصتنا تبدأ بالشرق، لا لأن آسيا كانت مسرحًا لأقدم مدنية معروفة وحسب. بل كذلك لأن تلك المدنيات كونت البطانة والأساس للثقافة اليونانية والرومانية التى ظن "سير هنرى مين" خطأ أنها المصدر الوحيد الذى استقى منه العقل الحديث الثقافة والعلوم، فسيدهشنا أن نعلم كم مخترعًا من ألزم مخترعاتنا لحياتنا، وكم من نظامنا الاقتصادى والسياسى، ومما لدينا من علوم وآداب، وما لنا من فلسفة ودين، يرتد إلى مصر والشرق، وفى هذه اللحظة التاريخية نرى أن التعصب الإقليمى الذى ساد كتاباتنا التقليدية التى تبدأ رواية التاريخ من اليونان، وتلخص آسيا كلها فى سطر واحد، لم يعد مجرد غلطة علمية، بل ربما كان إخفاقًا ذريعًا فى تصوير الوقائع، ونقصًا فاضحًا فى ذكائنا "... إن هذا الموقف التاريخى من المؤرخ "ول ديورانت" ليس وحيدًا فى أوربا، بل أنه تنامى واتسعت دوائره... ويكفى أن نشير إلى ما قاله مؤخرًا "روجيه جارودى" فى "حوار الحضارات" حيث قال: (إن عصر النهضة فى أوربا وهو ليس حركة ثقافية وحسب، بل ولادة مواكبة أنجبت الرأسمالية والاستعمار الذى هدم حضارات أسمى من حضارات الغرب، باعتبار علاقات الإنسان فيها بالطبيعة وبالمجتمع وبالإلهى... والتاريخ الحقيقى قد يكون تاريخ فرص أضاعتها الإنسانية بسبب التفوق الغربى الذى لا يرجع إلى تفوق ثقافة، بل إلى استخدام تقنيات السلاح والبحر لأهداف عسكرية عدوانية... ومن أجل ابتكار مستقبل حقيقى، يقتضى العثور مجددًا على جميع أبعاد الإنسان التى نمت فى الحضارات وفى الثقافات اللاغربية... إن ما اصطلح الباحثون على تسميته باسم "الغرب" إنما ولد فى "ما بين النهرين" فى العراق وفى "مصر"... وإذا نظرنا إلى الغرب باعتباره حالة فكرية متجهة نحو السيطرة على الطبيعة والناس، وجدنا أن مثل هذه النظرة إلى العالم ترقى إلى الحضارة الأولى المعروفة التى ظهرت فى دلتا دجلة والفرات وتجد تعبيرها فى ملحمة "جلجامش" التى سبقت الإلياذة بألف وخمسمائة عام... وثمة ينبوع آخر لحضارتنا نجد جذوره تتراوح بين فينيقية ومصر... لقد كان الفلاسفة والمؤرخون اليونان يعجبون بمصر إعجابًا عظيمًا، وتدين آراء "أفلاطون" الثنائية لها بالشىء الكثير).

ـ على أرض هذه الجماعة البشرية نزلت الأديان السماوية الثلاث: الدين اليهودى، والدين المسيحى، والدين الإسلامى، ومن ثم توجد على أرضها كل المواقع والآثار التى تحظى بتقديس رفيع ومهيب، سواء من جانب أتباع هذه الأديان الثلاثة، أو من جانب الغالبية العظمى من سكان الأرض، لما يتضمنه تاريخها من ذكريات وإيحاءات ودلالات معنوية وعقيدية رفيعة وإيجابية.

ـ هذه الجماعة البشرية تمتلك أكبر قدر من الموارد الاقتصادية ومصادر الثروة التى يمكن أن تمتلكها جماعة بشرية واحدة... فهى تمتلك أكبر بحيرة للبترول ومكامن الغاز الطبيعى على سطح الكرة الأرضية، وتلك هى أهم مصادر الطاقة فى كل التاريخ المعروف حتى الآن... كما تمتلك أطول أنهار الدنيا، والوحيد من بينها الصالح للملاحة طوال أيام السنة وهو نهر النيل، بالإضافة إلى أنهار دجلة والفرات والعاصى و"النهر العظيم" فى ليبيا... وتضم أرض هذه الجماعة البشرية أكبر دولة فى قارة إفريقيا من حيث المساحة وهى السودان، الذى يمتلك وحده مائتى مليون فدان صالحة للزراعة الفورية، إلى جانب وجود ثلاثة روافد لنهر النيل تجرى فى أرضه... هذا غير الأرض الزراعية الخصبة التى تتمدد فى الأقطار العربية الأخرى مثل العراق وسوريا ومصر وفلسطين والمغرب العربى... وتمتلك هذه الجماعة البشرية قناة السويس التى هى أهم وأخطر وأرخص ممر ملاحى على سطح الأرض، وهى التى اكتشفت البحر الأحمر بعد افتتاحها للملاحة البحرية الدولية عام ١٨٦٩، وحولته من بحيرة مغلقة إلى بحر مفتوح يتمدد من المحيط الهادى إلى جوف البحر الأبيض المتوسط، أى إلى أبواب الغرب وقارة أوربا، وهى التى أوصلت الغرب إلى بحيرات البترول الهائلة فى الشرق، وأوصلت هذا البترول مسروقًا ومنهوبًا من الشرق إلى هذا الغرب ذاته... وتمتلك هذه الجماعة البشرية أكبر وأهم مشروع هندسى تم تشييده فى العالم خلال القرن العشرين كله وهو "السد العالى" فى مصر... وغير ذلك الكثير الذى منه امتلاك هذه الجماعة البشرية لجيوش من العلماء والباحثين والخبراء والصناع المهرة والحرفيين المدربين، إلى جانب قمم رفيعة وسامقة على المستوى العالمى من المفكرين والكتاب والأدباء والفنانين.

ونحن ـ كأمة عربية ـ نعتقد أن تاريخ الحضارة الغربية لا يهمنا بحد ذاته، ولكن الذى يهمنا ـ تحديدًا ـ هو تاريخها معنا وتاريخنا معها... كما نعتقد أن كل التكوينات القومية الأخرى فى العالم خارج أوربا وأمريكا. هى فى موقف مماثل تمامًا لموقفنا تجاه هذه الحضارة. أى أن كل من هذه التكوينات لا يعنيه من حضارة الغرب إلا علاقته بها وعلاقتها به.. هذا على قاعدة أن العلاقة بين أى اثنين (أفرادًا أو جماعات أو حضارات) لا يمكن أن يحكمها سوى التأثيرات المتبادلة العادلة بينهما، تلك التأثيرات التى تحركها الأهداف التكتيكية والأهداف الإستراتيجية لكل منها، هذا فى حال كونها علاقة سوية تستهدف تحقيق غايات ومصالح متبادلة وعادلة لطرفيها... وليست علاقة قنص واستحواذ واستعلاء وعدوان يستهدف تحقيق غايات ومصالح طرف، بغض النظر عن غايات ومصالح وحاضر ومستقبل الطرف الآخر.

فإذا كان المنتج النهائى لعلاقة الأمة العربية بالغرب وأمريكا على مدى الزمن الذى مضى كله، هو التخلف الذى حاق بنا، بسبب ما سرقوه ونهبوه من مواردنا ومن طاقاتنا ومن إمكانياتنا المادية والبشرية، ومن تراثنا الفكرى والعلمى والفنى، بحيث أنتجت لنا تلك السرقة وذلك النهب التخلف والإذلال والمهانة... وإذا كان هذا النمط من العلاقة والمنتج النهائى عنها، هو الثابت دائمًا فى العلاقة بين ذات الحضارة (الغربية) وبين المكون الحضارى والثقافى والاقتصادى للعالم الثالث كله على الأقل... إذا كان ذلك صحيحًا ـ وهو بالقطع كذلك ـ فلا بد أن نقول إن حضارة الغرب بقيادتها الحالية أمريكا، إنما هى حضارة فاجرة بكل ما يتضمنه هذا الوصف من معانٍ سياسية واقتصادية وعلمية ولغوية وأخلاقية... فهى حضارة قامت على السرقة والسلب والنهب والقتل والتدمير للآخر حتى النخاع... إنها حضارة اللصوص الذين سرقوا، ووصل فجرهم ليس فقط إلى ادعاء ملكية ما سرقوه. بل إلى نفى أى علاقة كانت لمالكيه الأصليين به... وهذا هو الجور والفُجر والعدوان بكل معانيهم.

وعندما كتب المفكر القومى العربى ـ من سوريا ـ الدكتور شاكر مصطفى عام ١٩٨٠ فى كتابه بالغ الأهمية "تاريخنا وبقايا صور" (ثم رحل قبل أن

يعيش ثلاثة مشاهد فاجرة لتلك الحضارة. حدثت فى أفغانستان وفى العراق وفى ليبيا. وتحاول الآن أن تكرر مشهدًا رابعًا فى وطنه سوريا. تثبت فى هذه المشاهد ما جاء فى كتابه وتؤكد رؤيته وبصيرته الثاقبة)... كتب المفكر القومى الكبير يقول: "لقد كان على أوربا أن تدمر أربعًا من قارات العالم الخمس لكى تبنى نهضتها الصناعية"... فإن هذا الكلام كان تكثيفًا مرًا ومركزًا وثقيلاً وبالغ الدقة فى توصيف المنتج النهائى للظاهرة الاستعمارية الإمبريالية التى مثلت الآلية التنفيذية لتحقيق "النهضة المسروقة" للغرب... هذا الشر الأبيض - كما يقول الدكتور شاكر - الذى يكتسح كالفيضان كل الحدود... ولم يحدث فى تاريخ الإنسانية كله أن وجدت حضارة بمثل هذه القوة الشيطانية، وبمثل هذه العالمية من الطغيان... إننا لسنا أمام إمبريالية تقليدية، لكننا أمام تنين حضارى كونى يتحرك بأقدام المردة، يدوس النمل كما يدوس حدود القصب التى تقيمها الجماعات الحضارية الأخرى... إنها الحضارة التى تفترس الأخريات وتمارس عدوانية سافرة... سافرة حتى الاحتقار.

ذلك هو المعنى الكلى. أما التفاصيل فهى مذهلة ومهولة وتسبب ببشاعتها الغثيان والإحباط... ورغم ذلك فإنها - فى الوقت ذاته - تنبت الأمل وتحفزه وتحرض عليه. وتدفعنا إلى العمل من أجل الخلاص من أنياب هذا التنين العالمى بل وتحطيمها... وفى كل الأحوال. فإن تفصيلة واحدة من تلال التفاصيل المصاحبة للحالة الحضارية الغربية إنما تفضح هذه الحضارة وتبين كيف أنها بالفعل... فاجرة.

إننا شركاء أصيلون فى بناء هذه الحضارة الغربية، لا من خلال تراثنا الإنسانى العلمى والفكرى والفنى الذى سبقها فحسب ، ولكن من خلال جهودنا المباشرة وإمكانياتنا ومواردنا الفعلية على الأرض... نصيبنا دفعناه من شراييننا، ويجب أن نعى هذه الحقيقة الوعى الكامل ولا نمل من تسجيلها وتكرارها، وأن تكون هى أبجدية الفهم الأولى لنا ولأولادنا، حتى نعرف ويعرفون تاريخ العلاقات الوحشية التى أقامتها تلك الحضارة مع الشعوب المقهورة، والتى قامت

بها وعليها المعجزة الغربية الحاضرة... لقد تمت هذه المعجزة على ثلاث مراحل، كل مرحلة منها كانت كارثة انسانية حاقت بكل البشر من غير سكان أوربا وأمريكا (!!): الأولى هى مرحلة الإبادة الجماعية والرقيق الأسود والتوسع الأخطبوطى... والثانية هى مرحلة النهب العالمى... والثالثة هى مرحلة تنمية التخلف.

(١) مرحلة الإبادة الجماعية

بدأت المرحلة الأولى بأداتين أخذتهما أوربا عن العرب. البوصلة والبارود.. البوصلة قادت السفن الضخمة متعددة الأشرعة التى فتحت الباب للسيطرة البحرية والانتقال إلى البعيد... والبارود صار أداة القتل عن بعد، وكان ذلك هو القانون الذى وضعه "كولومبوس" لعمل أشرعته التى أبحرت فى بحر الظلمات، وللأشرعة الغربية التى جاءت بعده زاحفة إلى الشرق لتطويقه واستعماره ونهبه... وبعد كولومبوس وقف كاهن فى ميناء "ليون" الفرنسى يلقى بعظته الأخيرة لقوات الحملة الصليبية الأولى المتجهة إلى الشرق فقال لهم: "اذهبوا لتسيطروا على الشرق وترسلوا لنا خيراته". والشرق كان هو الرخاء والثراء والذهب وكل المعادن النفيسة، أى كل الأساسيات اللازمة للنهضة وللتقدم يومها... ولم يكن الدين حاضرًا فى كلمات هذا الكاهن بأى شكل أو مضمون، لكن الحضور كل الحضور كان للغزو والعدوان والقتل، كمدخل طبيعى للسلب والنهب والاستحواذ على الموارد الاقتصادية.

وقد احتاج الغرب لكى يسيطر على الشرق، إلى أن يسترق مائة مليون عبد ـ غير القتلى ـ من إفريقيا، وأن يمتص دماء خمسمائة مليون من آسيا، وأن يذبح أربعين مليون إنسان فى أمريكا الجنوبية.

مداخلة رقم (١)

(من الوقائع الفجة التى تنحر النفس والوجدان من ناحية، وتقطع بدلالاتها الواقعية ألسنة البعض، وتخرس البعض الآخر... أنه يوم ١٥ يوليو عام ١٠٦٩

ميلادية دخل الصليبيون - والصليب منهم براء - القدس، فذبحوا أربعين ألفًا من المسلمين فى وجبة قتل جماعى واحدة... وفى يوم ١١ يوليو ١٩٩٥ قامت قوات صرب البوسنة بيوغوسلافيا، بقيادة رانكو ملاديتش بارتكاب مذبحة "سربرينتشا" التى تعد من أبشع المذابح فى تاريخ أوربا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية.. حيث تم قتل ثمانية آلاف صبى وشاب ورجل مسلم فى وجبة قتل جماعية أيضًا، وتم دفنهم فى مقابر جماعية. كما تم طرد أكثر من ٣٠ الف امرأة وطفل ومسن... كما أن مد خط سكة حديد طوله ١١٤ كيلو مترًا لنقل الألماس وغيره من المعادن النفيسة والخامات المنهوبة من مناجم الكونغو بإفريقيا حتى تصل إلى ميناء "برازافيل" لنقلها إلى أوربا... احتاج مد هذا الخط إلى ١٧ ألف جثة إنسان إفريقى جاءوا إلى هذه الدنيا فرادى، وذهبوا عنها جماعة وفى توقيت واحد... ودون أن يشعر بهم أحد، ودون أن يتمكنوا من وداع أحبابهم، ودون أن يستفيدوا هم أو أهلوهم أو وطنهم بدولار واحد من عائد ما سرق أو اغتصب من وطنهم ليتمتع به المستعمرون القتلة الفاجرين).

وفى أمريكا الجنوبية... بينما كانت محاكم التفتيش تبيد الحضارة العربية فى الأندلس، كان أبناء تلك المحاكم يهجمون كالعلق الضخم على أطراف القارة المكتشفة... وتهاوت أمام جحافل الهمج، حضارة "الأزتيك" فى المكسيك بأهراماتها ومعابدها الذهبية. وداست الحوافر على شعوب "الشيبشا" فى كولومبيا ومعابد "الأنكا" فى بيرو، وأبادت هنود "الكانما هانارى" فى البرازيل، و"الأراو كانيون" فى شيلى... وتلك كانت أشهر الحضارات السابقة على كولومبوس فى القارة اللاتينية... وإذا كان الأمريكى الشمالى ما زال مؤرقًا "بعقدة الهندى" فيصوره فى الأفلام وحشًا خائنًا غدارًا، فى محاولة يائسة للهروب من ذلك الاتهام الداخلى الذى يقرضه... فإن البيض الذين هجموا على أمريكا الجنوبية قد ذابوا فيها؛ لأن الحضارة التى كانت تنمو وراءهم فى إسبانيا كانت حضارة غير أصيلة... كانت يقظة سيف لا يقظة فكر! تركتهم

هـناك للانحلال والتحلل: لأنها لم تستطع أن تكون معهم... وهكذا ذابوا، وأصبحت خريطة سكان القارة (١٩٧٨) البالغين ٢٥٠ مليون نسمة كالآتى:

١٥ ٪ من السكان هندى قديم (السكان الأصليون).

٧٠ ٪ من السكان مزيج بين الهندى والأبيض.

١٥ ٪ من السكان من البيض (سلالة الفاتحين الأول).

مداخلة رقم (٢)

(بالمناسبة، فقد كان أول استخدام للجدرى كسلاح إبادة شاملة، على يد البريطانيين فى حروبهم ما بين ١٧٥٤ و١٧٦٧ فى أمريكا، حينما قاموا بتوزيع بطانيات بها جراثيم العدوى على الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين لإبادتهم إبادة جماعية (!). وأيضًا فى السياق نفسه، فإلى ما قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة، كان محظورا انضمام السود فى أمريكا إلى الجيش بدعوى أنهم ليسوا مواطنين وإنما هم عبيد، والعبيد لا يحاربون... إلى أن أثبتت حرب فيتنام أن الخطر المقبل من الخارج على أمريكا، سواء من الحرب أو من غيرها، لا يفرق بين أبيض وأسود... عند ذلك سمح لهم بأن يكونوا مواطنين!).

وقد كان كل رؤساء الجمهوريات بالقارة (ما عدا المكسيك) يركعون أمام أسقف الكنيسة، ولم يكن لالديموقراطية البرلمانية من وجود فى كل القارة سوى الإسم، الأقلية سواء أكانت عائلية أم مالية أم عسكرية هى التى تصنع إرادتها كل شىء حتى أحكام القضاء، ثم تضع أوامرها على مكاتب الحاكمين ومنابر البرلمانات لكى تنفذ دون تعقيب!. وتسيطر أمريكا هناك فى القارة الجنوبية، من خلال العمارات الشاهقة والخمارات وبيوت الدعارة والنخاسة وأكواخ الصفيح، واستغلال المواطنين فى المناجم، والدولار يحكم كل شىء، والبنوك والشركات والعملاء بعشرات الألوف، ومن خلال أشكال زائفة لديموقراطية، كرتونية وذات أنياب من فولاذ.

وفى ذات القارة فإن "الأمازون" الحقيقى ليس هو النهر الذى يتدفق فى عرضها، ولكنه ذلك الذى يتدفق ذهبًا من عروقها إلى "وول ستريت" فى نيويورك... وقد حدث أن زار أمريكا أحد رؤساء كولومبيا، وفى حفل تكريمه أهداه نلسون روكفلر - حاكم نيويورك - خمسين ألف هكتار من أراضى كولومبيا التى يرأسها الضيف المحتفى به (!). إنها كولومبيا التى تضم ١٨ مليون إنسان (١٩٨٩)، لا يعيش منهم فى نصفها الشرقى - حيث الثروة والرخاء الزراعى والصناعى والتعدينى - سوى عشرة آلاف فقط، بينما يتكدس باقى السكان فيما بقى من مساحة بلادهم يقتاتون الفقر والتخلف... وفتات الأسياد!.

يقول "بابلو نيرودا" شاعر شيلى العظيم: إن "بيزارو" الفاتح الوحش انتصر على ملك بيرو، وسيق الملك المغلوب إلى السجن. ودخل عليه بيزارو فوجد خطًا أحمر من دم السجين على الحائط: حيث كان يحاول الهرب. فأمر بأن يملأ شعب بيرو ثلاث غرف بالذهب حتى ذلك الخط الأحمر... ويبدو أن شعب بيرو ما زال يملأ غرف الغازى الوحش، على مدى أربعمائة سنة، بالذهب والفضة والنحاس والسكر والنترات والبن والموز والمطاط والبترول والبلاتين... دون أن يصل بعد إلى ذلك الخط الأحمر(!). والبرازيل فى ذات القارة، هى "قارة" تبلغ مساحتها ٨,٥ مليون كيلو متر مربع، أى مقاربة لمساحة أوربا، ويسكنها مائة مليون إنسان... الصدفة جعلت القبطان "بدرو أفاريس كابرال" وهو يحاول الوصول إلى الهند بلد التوابل والجواهر عن غير طريق أفريقيا، جعلته يقع على الشاطئ البرازيلى. كان ذلك فى آخر سنة من سنوات القرن الخامس عشر (١٤٩٩). وبذلك يعتبر هو وليس كولومبوس مكتشف البرازيل.

صدفة أخرى حين أمسك البابا ألكسندر بورجيا (كانت له البابوية ما بين سنتى ١٤٩١ و١٥٠٢ ويعرف بألكسندر السادس) أمسك بقلم سنة ١٤٩٣، ورسم به خطًا اعتباطيًا طوليًا ما بين القطبين الشمالى والجنوبى على خريطة غير دقيقة للأرض الجديدة المكتشفة. وحدد التوسع المسموح به لكل من

البرتغاليين والإسبان... وهكذا كان قدر البرازيل أن تكون برتغالية وباقى أمريكا اللاتينية أن تكون إسبانية... البرازيل تلك نُهبت لتمنح أوربا عنوة: الذهب والألماس وكل الأحجار الكريمة، والطباق والسكر والقطن والبترول من نصف مساحتها فقط(!) حيث إن نصفها الشرقى لم يكن قد اكتشف حتى سنة ١٩٨٩!!

وفى مصر... وفى تعليق له وصل إلى حد التهكم على حصول "ديلسبس" على امتياز حفر قناة السويس عام ١٨٥٤ بمزايا غير مسبوقة لصالح فرنسا الاستعمارية، وضد مصر صاحبة القناة... قال "كرابيتس" المستشار السابق بمحكمة الاستئناف المختلطة بالإسكندرية: "من الغريب أن سعيدًا (الوالى سعيد بن محمد على الذى منح عقد الامتياز) لم يطالب صديقه (ديلسبس) بأى ثمن مقابل الامتيازات التى منحها إياه... بل باع إرث الفراعنة لرجل فرنسا، وقبض الثمن ابتسامة باهتة زائلة"...

بعد ذلك بمائة وخمسة وعشرين سنة، قال "هنرى كيسنجر" وزير خارجية أمريكا الأسبق فى تعليق له على اتفاقية "كامب ديفيد" بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٩، وصل إلى حد التهكم والإهانة أيضًا، وكأنه كان يردد العبارة التى قالها كرابيتس، قال: "ليس الغريب ما قدمه لنا أنور السادات، ولكن الغريب أنه لم يطلب أى مقابل لما منحنا إياه"... نحن نرى أن تطابق الحالتين فى الشكل والمضمون، كأنه قد ألغى من الزمن مائة وخمس وعشرين عامًا: ليؤكد أن منطوق الحضارة الغربية الفاجرة هو الأصل. وما عداه تفاصيل وأماكن وأسماء وتواريخ، لا تغير ـ على اختلافها ـ من الأصل شيئًا.

كتب غوستاف لوبون فى كتاب "حضارة العرب" ص ٢٨٧، حول المجزرة التى اقترفها الفرنجة غداة اقتحامهم القدس قبل سبع وثمانين سنة من انتصار صلاح الدين الأيوبى عليهم فى حطين... كتب يقول: "لم يكتف قومنا الصليبيون الأتقياء (!) بصنوف العسف والتدمير والتنكيل التى اتبعوها، بل عقدوا مؤتمرًا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى (الرافضون لهذا السلوك العدوانى)، الذين كان عددهم ستين

ألفًا، فأفنوهم عن آخرهم فى ثمانية أيام، ولم يستبقوا منهم امرأة ولا شيخًا"... وكان فى مقدمة ما فعلوه بعد المجزرة تحويل المساجد إلى كنائس، وقد أطلقوا على مسجد قبة الصخرة اسم "هيكل الرب". أما المسجد الأقصى فقد حولوا جزءًا منه إلى كنيسة باسم "هيكل سليمان" واتخذوا بقيته مسكنًا للفرسان".

وفى المقابل، فإنه بعد انتصار صلاح الدين الأيوبى عليهم فى حطين، حاول فتح القدس صلحًا، لما لها من مكانة قدسية وحرصًا على سلامتها. ولكن الإفرنج داخل المدينة تمنعوا مما اضطره لاقتحامها فى الثانى من أكتوبر عام ١١٨٧... ويجمع المؤرخون على الإشادة بمواقفه يوم تحرير القدس. فقد سمح للبطريرك اللاتينى الأكبر بمغادرة المدينة بما يحمل من أموال البيع وذخائر المساجد التى كان الصليبيون قد غنموها، ولم يستجب لاعتراض بعض مساعديه بأن البطريرك يقوى بهذه الأموال على حرب المسلمين. كما استجاب لرجاء نبيلات الإفرنج فأطلق سراح رجالهن من الأسر، وأطلق سراح المعوزين من الشيوخ والعجائز دون فدية، ولم تغلق كنيسة القيامة سوى ثلاثة أيام، وبعدها سمح للإفرنج بزيارتها.

وإذا حاولنا إلقاء الضوء على المنبع الفكرى و"الفقهى" الذى أنتج هذه الحضارة الغربية الفاجرة، فسوف نجد أرسطو يقول: "إن البشر صنفان سادة، وعبيد" ونجد أستاذه أفلاطون يقول: "إن البشر ثلاثة أصناف سادة ومديرين (الموظفين) وعبيد"، ويلاحظ أن السادة ثابتون فى التصنيفين، والعبيد أيضًا ثابتون مثلهم... هذان الفيلسوفان هما قمة آباء الفكر والحضارة الغربية... ثم يأتى بعدهما توما الإكوينى (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) وهو إيطالى المولد فرنسى الجنسية، ليقول بتعالٍ وصفاقة وجهل: "إن الرقيق هم بحكم الطبيعة النوع الأدنى، ومن الخير لهم مثلما هو لكل الفئات الأقل شأنًا، أن يكونوا تحت حكم الأسياد، والحقيقة أنه ليس هناك فرق كبير بين استخدام الرقيق واستخدام الحيوانات المستأنسة، ومن الواضح ـ عندئذ ـ أن بعض الناس هم بطبيعتهم أحرار، وآخرين رقيق، وأنه بالنسبة إلى هؤلاء الآخرين فإن الرق مناسب لهم"(!).

(٢) مرحلة النهب العالمى

بدأت المرحلة الثانية بتكامل الثالوث: المبشر، والجندى، والتاجر.. يدخل المبشر ليتعرف على الأرض، ثم يلحق به الجندى ليدمر كل مقاومة تصدر من أصحاب الأرض، بعد ذلك يصل التاجر (ممثلاً بالشركات الكبرى) لتبدأ عملية ضخ خيرات هذه الأرض إلى أوربا. تكرر ذلك فى كل مكان وزمان... الهند ومصر والصين، كما فى أمريكا الجنوبية، كما فى موزمبيق وغانا والشام والجزائر والسودان والخليج العربى... أو يدخل الجندى أولاً محتلاً وكاسرًا للأرض وأهلها، ليمهد الطريق للتاجر ليسرق وينهب ويستنزف الموارد كما استنزف الجندى الدم... وهو ما يحدث الآن فى العراق وأفغانستان وليبيا... وكأن أصقاع الأرض الأخرى ليست سوى اقتصاديات خادمة لأوربا.. تقدم المادة الخام للمصنع الأوربى على حساب الإنتاج الزراعى والصناعى والغذائى لهذه الاقتصاديات.

وقد كان المستعمرون ينهبون غصبًا من إفريقيا وآسيا، الزيت والفستق والكروم والقطن والألماس والذهب والبترول والغاز الطبيعى واليورانيوم... بينما كان إنتاج الفستق يمثل ٨٥ ٪ من إنتاج السنغال، والكر;م هـ م المحصول الأول للجزائر، ومثله القطن بالنسبة إلى الهند ومصر ومالى... وكأنه كان على أهل هذه البلاد ومن يماثلونهم أن يستوردوا حتى طعامهم، أو يتساقطوا على دروب الحاجة والجوع والمهانة!. وفى يناير ٢٠١٣ شنت القوات المسلحة الفرنسية بدنم لوجستى أمريكى، حملة عسكرية على مالى بدعوى محاربة الإرهاب، وقد أعادت هذه الحملة صورة فرنسا الاستعمارية المباشرة القديمة... والحقيقة أن مالى تمتلك كميات كبيرة من اليورانيوم والذهب والقطن، وأن هذه الثروات هى الهدف الأول والوحيد لتلك الحملة.

يقول الدكتور عصمت سيف الدولة: "إن علماء الاقتصاد والاجتماع فى كل أوروبا، ومنهم ماركس وأنجلز، قد أسقطوا من حساب تكلفة الإنتاج، ثمن المواد الأولية المنهوبة من القارات الأخرى، وكذلك تكلفة الأيدى العاملة فى أوطان

تلك المواد. وأيضًا تكلفة عمل المواطنين الذين تم استرقاقهم وشحنهم إلى أوربا عبيدًا لتصنيع تلك المواد المنهوبة من أوطانهم، ليعملوا فقط مقابل ما يقيم أودهم".. ويقول "على الرغم من أن الاشتراكيين كانوا يعلمون علم اليقين أن المواد الأولية التى تدور عليها مصانعهم، منتزعة انتزاعًا عنيفًا من ملايين البشر الذين انتزعوا هم أيضًا من أوطانهم وأصبحوا من العبيد... على الرغم من هذا فإن ملايين التعساء فى العالم لم يؤرقوا عين اشتراكى واحد فى أوروبا، لم يهتز ضمير السادة الاشتراكيين ولم تصل أبحاثهم العلمية (جدًا) إلى ملاحظة المفارقة الصارخة، وهى أن آغلب ما يتنازعون على اقتسامه ليس ملكًا لهم، فوق أنه مسروق من شعوب أخرى".

ومن المعروف أنه يعود إلى منتجى الموز ٦٪ من ثمنه وإلى منتجى الشاى ١٠٪ والكاكاو ١٢٪ والبن ٤٪ والبترول ١١٪ (إحصائيات ١٩٨٩). وتستعبد الأيدى العاملة المحلية بالسخرة والسياط، أو النقل إلى ما وراء البحر لعبودية وسخرة بعيدة وقاتلة.. إذا لم يكن ذلك هو القهر والفجر عينهما، فماذا يكونان؟

مداخلة رقم (٣)

(بمناسبة السخرة... خلال عام ١٨٦٢ تم بالسخرة حشد ربع مليون مصرى فى أعمال حفر قناة السويس (استشهد فى حفر القناة مائة وعشرين ألف مواطن) من أصل عدد سكان مصر فى تلك السنة الذى كان ٤.٨٣٣،٠٠٠ مليون نسمة.. وفى أبريل من العام نفسه احتاج حفر مسافة ١٤ كيلو مترًا من مجرى القناة فى منطقة "عتبة الجسر" بالإسماعيلية إلى حشد ١٧٦٨٠ مواطن مصرى بالسخرة للعمل فى ظروف عمل تأباها وتفر منها الحيوانات... ورغم ذلك لم يتردد "توفيق الحكيم" فى أن يهاجم جمال عبد الناصر ـ بعد رحيله طبعًا ـ لأنه أمم القناة وأعادها إلى سيادة الأمة والوطن... هى وعائداتها!؟... وبمناسبة قناة السويس أيضًا، فقد حدث عقب تولى سعيد حكم مصر فى ١٤ يوليو ١٨٥٤ بعد اغتيال عباس الأول الذى كان متحفظًا فى

علاقته بالأجانب. أن تدفق على مصر عدد كبير من الأجانب وتضاعفت أعداد أفراد الجاليات الأجنبية فى عهده. وكان جلهم من أرباب السوابق والخارجين على القانون والمغامرين والمفلسين فى أوربا، ومن سفلة الناس. كما وصفهم محافظ الإسكندرية فى برقيته إلى رياض باشا يوم ١١ جمادى الآخرة ١٢٨٢ هـ... وكان لا بد لهؤلاء من أن يستغلوا صفات الغفلة والتفكير المحدود التى كانت تميز الوالى الجديد سعيد، فكان منهم "زيزينيا" (هناك أحد الأحياء الراقية بمدينة الإسكندرية ما زال يحمل اسم زيزينيا) وهو يونانى الأصل، اكتسب الجنسية الفرنسية وعمل قنصلا لبلجيكا فى مصر... هذا الآفاق ادعى أن محمد على أعطاه وعداً شفوياً بامتياز الإشراف على جميع عمليات شحن ومرور البضائع فى مصر. وأن محمد على ولا أحداً من خلفائه قد نفذ هذا الوعد الشفوى. ومن أجل ذلك فإنه يطالب سعيد بتعويض قدره ثلاثة ملايين من الجنيهات... وقد أيده قنصل فرنسا فى ذلك مدعياً أن الوعد قد تم أمامه، ولما طلب سعيد تخفيض التعويض إلى مبلغ ثلاثين ألف جنيه رفض النصاب الفرنسى هذا العرض... ولإرضائه، منحه سعيد - إضافة إلى المبلغ المقترح - امتيازاً بجباية رسوم مرور السفن من هويس المحمودية بالإسكندرية، وكذلك جميع عمليات شحن البضائع بمنطقة الإسكندرية الذى كان يدر عليه أرباحاً سنوية قدرها ثمانية آلاف جنيه عام ١٨٥٤!).

فوق ذلك وغيره الكثير، فإن هذه الحضارة الفاجرة استهدفت "تغريب" المستعمرات بطمس تراثها الذاتى وثقافتها وهويتها الحضارية، بل وتدميرها وسلب لغاتها القومية، وإحلال اللغات الاستعمارية محلها (بريطانيا فى الهند، وفرنسا فى شمال وغرب إفريقيا، والبرتغال فى البرازيل) وتكريس الجهل بل وتنميته... فبعد أربعة قرون من الاستعمار لإفريقيا وآسيا ظلت نسبة الأمية فى القارتين ٨٦ ٪... ودخلت فرنسا إلى مدغشقر فى القرن السادس عشر وفيها ١٤٠ ألف طفل فى التعليم وخرجت منها سنة ١٩٥٠ وفيها ١٠٤ آلف فقط... وفى مستعمرات فرنسا الأخرى فى غرب إفريقيا التى

تضم ١٥ مليونًا من البشر، لم يكن عدد الطلاب سنة ١٩٣٨ يجاوز ٧٠ ألفًا أى نصف فى المائة من السكان.. وفى نيجيريا وكينيا كانت نفقات التعليم ٤ ٪ فقط من الميزانية العامة.. والوطن العربى يضم ١٦٠ مليون إنسان (١٩٨٠) منهم ٨٠ ٪ أميون. ولا يطبع من أى كتاب عربى أو مجلة فكرية جادة أكثر من خمسة آلاف نسخة، بمعدل كتاب واحد لكل ٣٢ ألف شخص وقد نشر من كتب التراث خلال ٢١ سنة من ١٩٥٤ إلى ١٩٧٥ ما عدده ١٩٩٦ كتابًا بمعدل ٥٤ كتابًا فى السنة، على الرغم من أن عناوين كتب التراث المخطوط تزيد على ربع مليون عنوان (إحصائيات عام ١٩٨٩)... وقبل افتتاح قناة السويس للملاحة فى ١٧ أكتوبر ١٨٦٩، كان تسعة أعشار إفريقيا ينعم بالاستقلال ويحكم بأبناء القارة، وبعد افتتاح القناة بما لا يزيد على عشر سنوات أصبح عشر القارة فقط حرًا، بينما تسعة أعشارها يرزح تحت الحذاء القذر للاستعمار الأوربى الفاجر... وفى القاهرة وفى شتاء ١٩٦٢ قال شواين لاى (رئيس وزراء الصين يومها) يشكو صلف الغرب: "رغم كل عصور الحضارة التى قدمناها للبشرية... فإنه لم ينلنا من الغرب سوى الإذلال".

نحن إذًا إحدى الجبهات الأساسية التى تعانى الصراع الدائم مع الغرب، تاريخنا معه كله صراع فُرض علينا، ورغبته فى النهب والسيطرة لاحقتنا طوال هذا التاريخ، وقد تجلت فى عدوانه المنهجى والدائم علينا... فحين كان بعض هذ الغرب متقدمًا فى عهد اليونان ثم الرومان هاجمنا... وحين كان متخلفا فى العصور الوسطى هاجمنا تحت راية الصليب والصليب منه براء. وحين استعاد قوته فى العصر الحديث استعمرنا... وها نحن فى عصر الاستعمار الثانى عصر التبعية الإرغامية والنهب وتنمية التخلف.

مداخلة رقم (٤)

(والحال فى العراق بعد التاسع من أبريل عام ٢٠٠٣ يوضح ذلك بما هو أبلغ من كل الكلمات... يوجد فى العراق حقل عملاق للبترول اسمه "غرب

القرنة"، ويقع بمحافظة البصرة، تبلغ احتياطياته نحو ٨,٧ بليون برميل، وإنتاجه الحالى نحو ٣٧٠ ألف برميل يوميًا من النفط الخام، تحصل عليها أمريكا قسرًا).

لقد كان المبلغ المخصص للاستثمار السنوى فى ميزانية دولة بحجم مصر عام ١٩٠٢ هو مليونان من الجنيهات، وكان هو نفسه المبلغ المخصص لذات الغرض فى ميزانية عام ١٩٥٢!. وكأن مصر كانت ـ طوال خمسون عامًا كاملة ـ خارج التاريخ!

مداخلة رقم (٥)

(علماء الاقتصاد يعتبرون أن المبالغ التى تخصص للاستثمار فى أى مجتمع هى التى تعكس حيويته وتخطيطه للتقدم ولتأمين معيشة الأجيال القادمة... فهل كانت مصر عدمًا طوال خمسين عامًا كاملة؟).

وقد خرجت البرتغال من موزمبيق بعد أربعمائة عامًا متصلة من الاحتلال وليس فيها طبيب موزمبيقى واحد، ومع ذلك فقد منحت موزمبيق البرتغال واحدًا من أعظم لاعبى كرة القدم فى التاريخ وهو "إيزيبيو" الذى حمل الجنسية البرتغالية ومثَّل البرتغال فى كأس العالم عام ١٩٦٦، وكان أحسن لاعب فى البطولة، كما لعب فى القاهرة مع نادى "بنفيكا" البرتغالى فى الفترة نفسها.

لقد كان "الفائض الحضارى" المجانى يتراكم لدى الغرب فى حلقة شيطانية لا تتوقف ولا تنتهى... حيث تزايد القوة يؤدى إلى تزايد الاستغلال.. وتزايد الاستغلال يؤدى إلى تزايد التخلف... وتزايد التخلف يعود ليؤدى إلى تزايد القوة الغربية المستغلة والفاجرة... وهكذا.

(٣) مرحلة تنمية التخلف

المرحلة الثالثة هى التى نعيشها اليوم... فبعد أن حسب الكثيرون أن تلك العجلة الشيطانية لهذه الحضارة قد كفت عن الدوران فى أعقاب الحرب العالمية الثانية مع بزوغ عصر استقلال الدول، إذا بها تعود لتدور اليوم بأقسى

وأعنف مما دارت من قبل... إن الغرب يستخدم اليوم كامل طاقاته لا لتطويق العالم الثالث ونهبه فحسب... ولكن أيضًا لصناعة وتنمية التخلف فيه، وطحن العلاقات الإنسانية بقيادة التنين الأمريكى... وقد أثار الغرب الدنيا ضد العرب، حين ارتفعت أسعار البترول عام ١٩٧٤. استكثر أن يزداد الدخل القومى لبعض دول العالم الثالث من عائد مواردها، رغم أن ثلاثة أرباع عائدات البترول العربى تعود مرة أخرى إلى المؤسسات الغربية. إما لتسديد فواتير استهلاك وبذخ سفيهين... وإما فى شكل ودائع لأفراد ومؤسسات وحكام ودول فى بنوك الغرب... لا تعود منها أبدًا إلى مواطنها الأصلية.

مداخلة رقم (٦)

(قد نتذكر فى هذا السياق، أن للحكومة الجزائرية ما يزيد على مائتى مليار دولار ودائع فى بنوك غربية. لا تستطيع هذه الحكومة أن تسترد منها دولارًا واحدًا، إذا احتاجته... وأن أغلى هدية قدمت من كل العالم إلى "تشارلز" ولى عهد إنجلترا بمناسبة زواجه من الأميرة "ديانا" كانت من "خادم الحرمين".

إن شركة EXXON الأمريكية هى أقوى من أى بلد فى العالم الثالث (عدا الهند والمكسيك والبرازيل) فإن ميزانيتها عام ١٩٧٤ بلغت ٤٤ مليار دولار، ثم وصلت عام ١٩٨٠ إلى ضعف هذا الرقم... وشركة "نستلة" أرقام ميزانيتها تزيد على الإنتاج القومى لمعظم الدول الإفريقية. وقد بلغت ١١ مليار دولار عام ١٩٨٠... والغرب يسيطر على ٩٨ ٪ من أعمال التنمية فى العالم، وعلى ٩١ ٪ من حركة التصدير، ويمتلك ٨٥ ٪ من السلاح، ويستهلك ٨٧ ٪ من الطاقة و٩٤ ٪ من الألمونيوم و٩٤ ٪ من النحاس... ويأكل ٧٨ ٪ من الحبوب. (إحصاء ١٩٨٩)... ويوجد فى العالم (١٩٨٩) أكثر من ١٣٠٠ وكالة أنباء، لكنها كلها أقزام أمام العمالقة الخمسة: رويتر الإنجليزية، والوكالة الفرنسية، ويونايتد برس، وأسوشايتد برس الأمريكيتين بالإضافة إلى وكالة "تاس" السوفيتية... إن الأربعة الأول تقدم ٩٠ ٪ من الأخبار والتعليقات العالمية التى

تملأ جماجم الناس وأرشيف المعلومات لدى شعوب الأرض بالقليل من الحقائق والكثير من الأكاذيب... وخلال عقد السبعينيات كله من القرن العشرين، كانت أمريكا تصدر إلى العالم ١٥٠ ألف ساعة تليفزيونية كل سنة... كان يخصص ٧٥ ٪ منها لتخدير العالم الثالث وتنمية التخلف فيه! وبريطانيا تأتى تالية لها بتصدير ٣٠ ألف ساعة. وفرنسا الثالثة بتصدير ٢٠ ألف ساعة... بينما تليفزيونات العرب مشغولة بملء ٦٥ ٪ من ساعات البث بالأفلام الواردة من الدول الثلاث السابقة!. وتسيطر هذه المواد الإعلامية الغربية على ٨٤ ٪ من أعلام جواتيمالا و٨٧ ٪ فى زامبيا و٦٥ ٪ فى نيجيريا... إن صندوق النقد الدولى يضم ١٢٣ عضوًا (١٩٨٠) يسيطر ٢٣ منهم على ٦٦ ٪ من الأصوات... والبنك الدولى للإنشاء والتعمير يضم ١٤١ عضوا (١٩٨٠) يتحكم ٢٢ منهم فى ٦٦،٢ ٪ فى قرارات البنك. ومع أن ثلثى سكان العالم الثالث ريفيون، فإن البنك لم يدفع خلال سبعينيات القرن الماضى كلها سوى ١٥ ٪ من قروضه للزراعة!. كما أن ٧٣ ٪ من المعونات التى قدمت للعالم الثالث فى الفترة نفسها (سبعينيات القرن الماضى) كانت تعود إلى أصحابها فى سنة دفعها نفسها... إن النهب المزمن القديم لا يستمر فقط بل يتزايد، وتضاف إليه الآن عمليات أخرى من التدمير "الثقيل" للعالم الثالث تتمثل فى امتصاص خبراته البشرية حتى لا تتكون منها قاعدة تنموية قوية (لذلك لم يكن غريبًا أن يتضمن قرار مجلس الأمن الدولى رقم ١٤٤١ الخاص بالعراق بعد الإغارة عليه، والذى فرضته أمريكا على الهيئة الدولية وانصاعت لها الهيئة فى ذلك... لم يكن غريبًا أن يُنص فيه على حق فرق التفتيش الدولية (الأمريكية) على أسلحة الدمار الشامل المزعومة، وفى أن تستجوب العلماء العراقيين فى العراق، أو أن تنقلهم إلى الخارج مع أسرهم لاستجوابهم... وإلى جانب أن القرار قد هدف إلى إذلال العراق والنيل من سيادته، فإن الهدف الأساسى كان "الاستيلاء" على هؤلاء العلماء... تمامًا كما حدث بعد هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥ حين استولت أمريكا، أو "استرقت" ١٢١

عالمًا من أفضل العقول الألمانية على رأسهم "فون براون" أب النهضة العلمية الذرية الأمريكية... ومن لم تستطع إغرائه قتلته كما فعلت هى وإسرائيل بالدكتور يحيى المشد عالم الذرة المصرى الذى كان يعمل فى العراق، وكان ضمن المؤسسين لبرنامجه الذرى، وهناك من يقول إن الشىء نفسه قد حدث مع عالم الذرة المصرى الدكتور على مصطفى مشرفة، الذى هو أنبغ تلاميذ أينشتاين، حتى قال فيه الأخير: "إن مصر يجب أن تحافظ على مشرفة كما تحافظ على أهراماتها".

وقد ربط الغرب الاستعمارى العالم الثالث بعجلة الاستهلاك ليكون على الدوام طالبًا للمعونات ومهددًا بالجوع، وفى الوقت نفسه يكون سوقًا رائجة لتصريف ما ينتجه المصنع الرأسمالى الغربى... ولجأ الغرب الى إثارة جميع عوامل التمزق الاجتماعى والدينى والعرقى واللغوى والسياسى والاقتصادى فى مجتمعات هذا العالم الثالث، لتكون - دومًا - أضعف من أن تستغل إمكانياتها وطاقاتها ومواردها الذاتية، بسبب انشغالها الدائم بما ابتدعه لها هذا الغرب من عوامل تمزق واحتياج.

مداخلة رقم (٧)

(يقول العالم السويدى "كارلوس لينيوس" إنه قام بمحاولة لتصنيف النوع الإنسانى، ووجد أنماط عدة واضحة المعالم ضمن التنوع الذى يظهره بنو الإنسان. ولم يكتف لينيوس بوصف هذه الأنماط من حيث الخصائص الجسدية، بل أضفى عليها أيضًا بعض الخصائص السلوكية والعقلية، فقال: إن الإفريقيين مثلاً، يمكن التعرف عليهم من لون بشرتهم الاسود، وشعرهم القصير الأجعد، وأنوفهم الفطساء.. ثم أضاف بأنهم: "ماهرون فى الدسائس وكسولون ومهملون... وسريعو التقلب". أما الأوربيون البيض فقد وصفهم لينيوس بأنهم: "لطفاء، سريعو البديهة والفكر، قادرون على الابتكار، وتحكمهم القوانين").

إضافة إلى هذا التصنيف المغرض والفاجر من عالم غربي، فقد ترك المستعمر الأوربي في البرازيل أبشع نظام لتصنيف الناس ما زال ساريًا حتى اليوم. وهو نظام يصنف الناس حسب لون بشرتهم (١). ويعترف نظام الإحصاء الرسمي في البرازيل بأربعة أصناف من لون البشرة: الأبيض، والأصفر، والبني، والأسود... يضاف إلى هذا التصنيف تقديرات اجتماعية أخرى في ذات الاتجاه. فالشخص الأبيض له مركز عالٍ واعتبار مرموق، بينما الشخص الأسود له مركز واعتبار متدنيان.. وإذا تزوج رجل بني من فتاة بيضاء من الطبقة الراقية، فإن الزوج يسجل في الإحصاء التالي ضمن صنف (البيض)... ولو أن الرجل نفسه تزوج من فتاة سوداء، لصنف في الإحصاء التالي ضمن (السود).. إنه الاستعلاء الفاجر والعنصرية النافية للآخر، وإنه تنمية الصراع وتنمية التخلف.. والفجور هو العدوان على الحق والحقيقة بالعمد، وإعلان ذلك والتمادي فيه، والتباهي به وتكراره... ومع اليقين بأنه عدوان على الحق والحقيقة، يتم الادعاء بغيره، سخرية من الآخرين وإهانة لهم... إن أمريكا ما زالت بعد أن دمرت كل ما هو مادي ومعنوي في العراق، تدعي بأنها فعلت ذلك لتقيم الديموقراطية فيه... إنه الفجر الفاجر بعينه ولا شيء غيره.

تلك هي بالضبط حضارة الغرب في آخر مشهدين لها بعد خمسمائة عام من تخلقها، واللذان يتبديان في العدوان على العراق عام ٢٠٠٣ وعلى ليبيا عام ٢٠١١... ما زالت كسيرتها الأولى معتدية ذات ضمير عدواني، ووجدان مخاتل... وفاجرة.

يقول "بوب هيربرت" في صحيفة نيويورك تايمز: "إن الحرب على العراق كانت مسًا من الجنون. وقد شنت لأسباب زائفة أطلقها صقور الإدارة الأمريكية ورجال القرون الوسطى، ثم اختفوا"... ويقول "بول وولفيتز مساعد وزير الدفاع الأمريكي إبان الإغارة الأمريكية على العراق والمدير الحالي لصندوق النقد الدولي: "إن ادعاء وجود" أسلحة دمار شامل في العراق "كان أحسن حجة منطقية لجأنا إليها لحشد دعم الرأي العام لتدخلنا العسكري في العراق"... وقد

سبق هذا الاعتراف اعتراف تونى بلير رئيس الحكومة البريطانية وجورج بوش الابن رئيس أمريكا، بذات المضمون الذى اعترف به وولفيتز وبذات الصراحة والوضوح (٤). وقد سبق ذلك وبدرجة الصفاقة نفسها فى الادعاء، أن احتلت أمريكا أفغانستان بدعوى محاربة الإرهاب الذى يمثله تنظيم "القاعدة" وقائده "أسامة بن لادن" وأن هذا التنظيم يهدد الأمن القومى الأمريكى... وقد عجزت أمريكا عن أن تقدم للعالم وثيقة واحدة تثبت بشكل حقيقى وقاطع، أن هناك تنظيمًا يسمى القاعدة، وأن هذا التنظيم هو الذى نفذ الإغارة على أبراج واشنطن وعلى مقر وزارة الدفاع الأمريكية يوم ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١ (فيما عدا "الاعتراف الإعلامى" لأسامة بن لادن بما أسندته إليه أمريكا، رغم أنه يعلم أن لا أحد فى العالم قد صدقه لأسباب موضوعية، أهمها أن ما حدث وبالشكل الذى نفذ به، قد تعجز عن تنفيذه دول وجيوش منظمة).

ويوضح "ف. وليام انجداهل" مؤلف كتب سياسية عدة منها كتاب (بذور الدمار: الأجندة الخفية للاستغلال الجينى) وكتاب (قرن من الحروب: سياسات النفط الأنجلو أمريكية والنظام العالمى الجديد) وكتابه الأخير (هيمنة مطلقة: الديموقراطية الشمولية فى النظام العالمى الجديد ـ ترجمة بثينة الناصرى) يوضح السببين الحقيقيين للإغارة على أفغانستان فيقول: "الجيش الأمريكى فى أفغانستان موجود لسببين: الأول لاستعادة والاحتفاظ بأكبر تموين من الأفيون فى أسواق الهيروين فى العالم، ولاستخدام المخدرات كسلاح جيوبولتيكى ضد الأعداء وخصوصًا روسيًا.. إن السيطرة على سوق المخدرات الأفغانية ضرورية لضمان السيولة لدى المافيا المالية المفلسة والفاسدة فى وول ستريت، وأنه طبقًا لتقرير رسمى من الأمم المتحدة فإن إنتاج الأفيون فى أفغانستان قد ارتفع بشكل كبير منذ سقوط طالبان فى ٢٠٠١، وتبين الإحصائيات أن زراعة زهرة الأفيون فى كل من المواسم الأربعة الماضية (٢٠٠٤ إلى ٢٠٠٧) تزيد بكثير عن أية سنة تحت حكم طالبان، وتخصص الآن المزيد من الأراضى لزراعة الأفيون فى أفغانستان أكثر من زراعة محاصيل الكوكا فى

أمريكا اللاتينية، فى ٢٠٠٧ كان ٩٣٪ من الأفيون الموجود فى أسواق العالم يأتى من أفغانستان... وهذه ليست صدفة.

السبب الثانى لبقاء الجيش الأمريكى فى أفغانستان حتى بعد أن نسى العالم مَنْ أسامة بن لادن، وما منظمته الملفقة المسماة "القاعدة"، أو حتى إذا كان أى منهما موجودًا، هو بناء قوة ضاربة أمريكية دائمة مع سلسلة من القواعد الجوية فى كل أنحاء أفغانستان.. هدف هذه القواعد ليس للقضاء على القاعدة (المدعى) أو القضاء على طالبان التى تتكون، حسب شهادات شهود عيان، من أفغانيين عاديين يقاتلون للخلاص من جيوش احتلال كما فعلوا فى الثمانينيات ضد السوفيت... إن هدف القواعد العسكرية الأمريكية إحكام الطوق على وضرب الشعبين اللذين يمثلان اليوم التهديد الوحيد فى العالم للإمبريالية الأمريكية الكونية، وللهيمنة الأمريكية الكاسحة كما يسميها البنتاجون: "الصين وروسيا".

والسؤال الذى يترى الآن: هل كان طواعية أو كسلاً، أو كان قهرًا أو جبرًا... أن غاب عن الفعل الحضارى الإنسانى وعن التقدم العلمى والتكنولوجى، كل العرب والمسلمين، وكل إفريقيا بما فيها مصر ونيجيريا ودولة جنوب إفريقيا، وكل آسيا بما فيها الصين والهند وباكستان، وكل أمريكا الجنوبية بما فيها البرازيل والأرجنتين وكولومبيا وشيلى؟. بصياغة أخرى، لماذا انحصر الفعل والتقدم الحضارى فى أوربا فقط؟. وهل كانت صدفة أن هذه "الأوربا" المتقدمة هى التى غزت ونهبت وقتلت ودمرت واستعمرت واستعبدت، وصنعت أساس نهضتها من حصيلة مسروقاتها... بينما حصد الآخرون الفقر والجهل والتخلف؟. هل كان ذلك صدفة أم كان إستراتيجية متعمدة من الغرب تجاه الشرق؟. وبصياغة ثالثة هل يمكن القول إن دالة التقدم والنهضة وقانونهما أن يحصد اللص التقدم، بينما يحصد الضحية التخلف؟. وإذا كان ذلك كذلك، فهل تكون الدورة المقبلة للتاريخ هى أن يتم غزو أوربا ونهبها وتدميرها، واستعمارها واستعبادها، حتى يتمكن الآخرون من التقدم والنهضة، بينما تتخلف هى؟.

مداخلة رقم (٨)

(يرى الكثيرون ـ بقدر كبير من الثقة ودون أى مبالغة ـ أنه لولا الخيانة التى أنتجت تسليم العراق للقوات الأمريكية البريطانية الغازية دون قتال عام ٢٠٠٣.. لو أنه بدلاً من ذلك، كان قد دار قتال بين القوات المسلحة العراقية، بقيادتها السياسية والعسكرية، وبين القوات الغازية، حتى دون مساعدة عسكرية عربية... لربما كانت تلك المقاومة قد ألحقت بالغزاة خسائر لم يشهدها التاريخ العسكرى الأمريكى أو البريطانى من قبل فى غزواته الاستعمارية، وانسحب الغزاة تحت ضغط الرأى العام الداخلى (لديهم) والخارجى (فى العالم) مثخنين بجراحهم... ولأصبح انكسار الغزاة هذا، هو البداية الحقيقية لكتابة تاريخ جديد للبشرية، ليس فيه امبراطورية أمريكية ولا ذيلاً بريطانيًا لها!. وطبعًا ليس فيه أقلام ولا ألسنة تعاير العرب بتخلفهم. هؤلاء العرب الذين كان سوف يكتب لهم فى هذا التاريخ الجديد: أنهم الذين خلصوا البشرية من أعتى التكوينات الإمبراطورية الإجرامية الفاجرة فى التاريخ كله!. ومثل ذلك تمامًا وبذات الفعل المتردى، حدث فى الإغارة الغربية ـ العربية على ليبيا عام ٢٠١١، حيث اشتركت جامعة الدول العربية وبعض دولها فى تلك الإغارة اشتراكًا مباشرًا بالطائرات والسلاح والدولارات. فى مشهد تاريخى وشائن للأمة العربية... ولم يحدث من قبل).

من يدرى؟... إن التاريخ لم ينته بعد.

الحضارة الغربية...

وتجارة القتل!

لقد ارتفعت إيرادات المؤسسات المائة الأكبر لإنتاج الأسلحة بنسبة ٥٩ ٪ بين سنتى ٢٠٠٢ و ٢٠٠٩، وبلغت إيراداتها ٤٠١ مليار دولار... وتحتل الشركات الأمريكية الصدارة (٤٥ شركة من مجموع مائة) بـ ٦١ ٪ من مجموع الإيرادات (لوكهيد مارتن وبوينغ ونورثروب غرومن وجنرال دناميكس) تليها أوربا بـ ٣٣ شركة وإيرادات بلغت ١٢٠ مليار دولار (ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وبريطانيا وإسبانيا وفنلندا والنرويج والسويد وسويسرا)، مع غياب إحصاءات واضحة عن شركات التسليح الصينية والإسرائيلية (عن معهد ستوكهولم لبحوث السلم)... وقد أعلن البنك الأوربى للاستثمار (الذراع المالية للاتحاد الأوربى) عن تخصيص قروض بقيمة ستة مليارات يورو "لمساعدة بلدان جنوب المتوسط (أى العرب) على الانتقال نحو الديموقراطية"، بين سنتى ٢٠١١ و ٢٠١٣.

ويقول الكاتب أحمد الخميسى فى مقال له بعنوان "أوبئة الثورة المضادة" (ليسمح لنا الكاتب المحترم أن نختلف معه على تعبير "الثورة المضادة" لأن الصحيح فى تقديرنا هو تعبير "القوى المضادة للثورة" ولأن الثورة مسمى جليل وتقدمى وإيجابى، فلا يجوز ربطه بمسمى سلبى ومتخلف)، يقول الكاتب على موقع KANAANONLINE.COM "...: مصالح أمريكا لدينا كدولة ذات بنية إمبريالية مركبة تبلغ حد الضرورة القصوى التى لا يمكن الاستغناء عنها طوعًا... فقضية السلع والثروات والخدمات الإستراتيجية التى تشتمل عليها المنطقة العربية، تجعل منها مركزًا عالميًا لمشاريع الدول الإمبريالية، التى تقوم بطبيعتها

على موازنة نهب الآخر، كجوهر اقتصادى قومى... فكل شعوب الأرض الضعيفة تدفع من خبزها اليومى لإعداد المائدة المقررة ونمط الحياة المرفهة للمواطن الغربى والأمريكى بالذات، وهو كائن مثقف اجتماعيًا يمكن أن يثور إذا انخفض مستوى معيشته عما هو عليه. بل إنه كائن كثير المطالب، ذو حس طبقى مرهف، على الدولة أن تضعه فى سياق أمامى لمستوى المعيشة للمحافظة على استقرار المجتمع.

وبذلك فإن المجتمعات أو الأنظمة الإمبريالية هى كلها بنى متورطة من حيث علاقتها بالآخر... وبطبيعة التأسيس والنزعة القيادية للمعسكر الإمبريالى، وفائض القوة، وارتباط العسكرى بالاقتصادى والاجتماعى، فإن أمريكا هى أكثر الدول تورطًا فى الآخر... ومن الطبيعى لما للمنطقة العربية من أهمية لوجستية للإمبريالية، وكون الرؤية الإستراتيجية الأمريكية لهذه المنطقة هى مزيج من ضرورة البنية الخاصة، والخوف بل الفزع من قيام مشروع قومى نهضوى فيها (كما المشروع النهضوى العربى الذى قاده وأرسى قواعده جمال عبد الناصر)، فيمكن القول إن أمريكا متورطة فى المنطقة العربية إلى درجة الشذوذ من حيث الحاجة البنيوية... ومع أن هذه الرؤية الإستراتيجية الممزوجة بالتخوف الدائم قد ورثتها أمريكا عن الأوروبيين، إلا أن مشروعها لأمركة العالم أى السيطرة عليه تحت اسم العولمة، ومخاوفها وحاجتها للمنطقة العربية كموقع وكآلية قمع لوجستية لفرض تصوراتها فى العولمة على الآخر الإمبريالى، مثل: أوربا، والصين، وروسيا، يتجاوز المخاوف والأطماع الاستعمارية القديمة، بمدى غير قابل للمقارنة إلى درجة الافتراق الجوهرى... فإذا أضفنا إلى هذا الرابطة العضوية بين أمريكا والصهيونية، وتحالفهما المقدس أثناء الحرب العالمية الثانية لإثخان أوربا بالجراح، وسلب إرثها الاستعمارى، وإقامة إسرائيل كقاعدة تديث متقدمة للشعوب العربية، والتنكيل بها تنمويًا وقوميًا، وتعطيلها اجتماعيًا ومعنويًا... لاستطعنا أن نفهم لماذا كان على أمريكا موضوعيًا وعمليًا التورط فى الدم والشرف القومى العربى، إلى درجة الإبادة المادية والجسدية والمعنوية، كما فعلت وتفعل فى فلسطين ولبنان والعراق والصومال والسودان وليبيا... وتحاول ذلك الآن فى سوريا(١).

إن أمريكا ترفض وستظل ترفض، تحت كل الرايات الحقوقية والسياسية والعسكرية، أية شرعية لوجود عربى اجتماعى مستقل ومتماسك؛ لأنه يشكل خطرًا ـ كما تقول ـ على المنصات الدولية، أى على "السلام العالمى" وإسرائيل وجيران العرب الآخرين... كما يتجلى ذلك "التنكيل السيكولوجى" بالعرب كجماعة بشرية، من خلال الإعلام المقروء والمرئى والفنى والأدبى، الذى يصور العرب على أنهم قريبون جدًا من الهمجية والتفاهة والتطرف، علاوة على أنهم يتنكرون بشدة للديموقراطية... وحتى لا نخدع أنفسنا، فقد نجحت أمريكا فى تحويل هذه المقولات إلى قناعة ثقافية تم تبنيها سياسيًا على مستوى العالم، كما تم تسويقها "طواعية" عربيًا من خلال بعض المثقفين العرب "الأمريكيين" كحالة نادرة فى التجارب البشرية بين معتد ومعتدى عليه... هذه هى أمريكا موضوعيًا وعمليًا وكما تقول الوقائع فى تعاملها مع العرب... فهل الشعوب العربية مستعدة لقبول هذه النزعة والرغبة الأمريكية فى نزع الشرعية عن الوجود العربى، بل والتعامل معه محليًا وإقليميًا ودوليًا على هذا الأساس؟

لقد تعايش إنسان ما بعد النفط فى الخليج، مع الشذوذ الأمريكى الخاص بالعرب، منذ مؤتمرات ما بعد الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم... حتى وصل باليأس والمعاناة إلى حافة الفهم، ولكنه اكتفى بجلد الذات مبررًا استسلامه بعجزه، وكأنه ولد عاجزًا، وقد استعان على هذا التبرير بثقافة دينية أضيفت إليها حيل من الفتاوى الفقهية "المصنوعة"، والتى منها فقه العجز والتسليم لإرادة الله وغض النظر عن إرادة أمريكا... وأصبحت أمريكا فى وعيه المستكين، بمساعدة من الفقه الإخوانى، نوعًا من العقاب السماوى، ومن ثم إشكالاً دينيا خالصًا... وكانت أمريكا تدفع أثناء ذلك كل تكاليف الوعظ والصدقات ورواتب أئمة المساجد، وطباعة الكتب الدينية وتوزيعها مجانًا أو بأسعار رمزية.

لقد أصبح نشر "الفكر الإخوانى" بالنسبة إلى أمريكا أكثر جدوى وأيسر من التديث بالإعلام السيكولوجى والتنكيل المعنوى بالعرب... المهم أن أمريكا والصهيونية كانتا وراء ذلك كله، وأن "الجماعة" ظلت الحليف التلقائى لهما فى

الوطن العربى لالتقاء المصالح المثالى بين الطرفين على الساحة القومية... فحركة الإخوان المسلمين حليف طبيعى لأمريكا، وأهم نقاط اللقاء بينهما هى العداء للقومية العربية، وتبنى كل منهما مفهوم الأمة الدينية كبديل عن المفهوم القومى، والعداء المشترك لحركات التحرر الاجتماعى فى الوطن العربى... ويمكن القول إن وصول إنسان النفط فى الخليج إلى حد اليأس من ذاته ومن قدراته، هو الذى جعله يتفاجأ مع المتفاجئين، بالحراك الشبابى الذى تجاوزت موضوعيته وتجاوز اندفاعه الفدائى كل التوقعات... إن أكمل تعريف لهذه التجربة الشبابية هو أنها القوة غير المنظمة، وهذا هو محور الضعف فيها باعتبار أن المعادلة المنطقية للحياة وللتقدم، هى ضرورة توفر الطاقة اللازمة لتحقيق الوجود ولتحقيق الذات، وهى معادلة لا تعترف بالضعف الناتج عن سلبية الوعى وعن غياب التنظيم.

لم يكن المستوطنون اليهود الأوائل ومن تبعهم فى فلسطين، لديهم من الطاقة التجميعية ما يعادل عشر الطاقة الجماعية للشعب الفلسطينى، ولو كان هناك تنظيم فلسطينى مقابل لتنظيمهم، لفروا من فلسطين إلى الأماكن التى جاءوا منها دون حرب، وهذا يعنى أن هناك علاقة جدلية (طردية) بين التنظيم وبين القوة، وبين عدم التنظيم وبين الضعف... ومن ثم فإنه يتعين التفكير فى المنهج السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى الذى يهدد مصالح أمريكا، ويجبرها على تغيير إستراتيجيتها ونمط العلاقة القائمة بينها وبين الوطن العربى، تلك الإستراتيجية والعلاقة التى تحاول أمريكا بمقتضاها التحكم الكامل بمصير هذا الوطن وبهويته الاجتماعية (١).

إن القضية الفلسطينية هى حجر الزاوية فى المشهد السياسى العربى ورأس تضاريسه، ورغم ذلك فإن موقعها فى الإستراتيجية الأمريكية يأتى فى الحضيض كما صورها خطاب أوباما فى شهر مايو ٢٠١١، بحيث وردت الإشارة إليها فى نهاية الخطاب، إذ أراد فى كل ما قاله أن يجرد هذه القضية تحديداً من كل عناصر القوة المتبقية فيها، أو عناصر القوة التى اكتسبتها فى الفترة الأخيرة بخاصة فى ذكرى النكبة؛ حيث كانت مختلفة عن سابقاتها بتحرك نوعى غير

مسبوق يؤشر إلى مشروعية حق الفلسطينيين فى وطنهم السليب وضرورة عودة الصهاينة إلى بلدانهم الأصلية: لأن هذا هو الحل الوحيد والصحيح لهذه القضية، ودونه ستظل المنطقة بؤرة للتوتر والعنف حتى يعود الحق لأصحابه. وعنده (أوباما) تأتى إسرائيل - التى نادى بالاعتراف بها كدولة يهودية - فوق الجميع وقبل الجميع، ومن أجلها تتغير كل الموازين، وتنقلب كل المعايير، واعتبر أن حماس وصواريخها وقذائفها عنوان للإرهاب ضد المدنيين الصهاينة المساكين... وتناسى الترسانة الصهيونية المتأتية فى معظمها من المساعدات السخية للولايات المتحدة الأمريكية باعتبارها شريكًا مع العدو الصهيونى فى العدوان على الأمة العربية، إلى حد تدمير العراق شعبًا وأرضًا وحضارة وتاريخًا، تأمينًا للكيان الصهيونى... وحين تحدث الرئيس الأمريكى عن الإنجازات الديموقراطية، خلط الأمور ببعضها، محاولاً أن يمرر ديمقراطية طائفية عرقية مذهبية أقامها المحتل فى العراق ليدمره بها، كما صور الثورات الراهنة فى الوطن العربى كأنها جاءت انتصارًا للأفكار والقيم والشعارات الأمريكية بخصوص الديموقراطية والحرية (١).

مداخلة رقم (٩)

مذبحة دير ياسين

(فى سياق الرد على "الدجل" والتزوير الأمريكى فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية، وبالإرهاب، وبالعدوان المنظم، وبالدموية المستكنة فى أعماق الصهيونيين... نقدم البحث القيم الذى نشره الدكتور غازى حسين على شبكة المعلومات الدولية، ونعرض بعضًا مما ورد فيه: "فى التاسع من أبريل عام ١٩٤٨ قام الإرهابيون اليهود من عصابتى الأرغون وشتيرن وبموافقة عصابة الهاجانا بإبادة قرية دير ياسين الواقعة على مقربة من القدس الغربية، وذلك بقتل جميع سكانها البالغ عددهم إبان المعركة ٢٧٩ معظمهم من الأطفال والنساء والشيوخ والرجال المدنيين... وترجع أهمية دير ياسين الإستراتيجية إلى موقعها

الإستراتيجى الذى تتمتع به ويقع على مرتفع يشرف على القدس الغربية والطريق الذى يربطها بتل أبيب والبحر الأبيض المتوسط.

وأدت المذبحة الرهيبة إلى تحقيق المخطط اليهودى بترحيل الشعب الفلسطينى من مدنه وقراه إلى المناطق الجبلية وإلى خارج فلسطين لإحلال المهاجرين اليهود محلهم، وأصبحت رمزًا لـ "الترانسفير" ونشوء مشكلة اللاجئين التى خططت لها الحركة الصهيونية منذ المؤتمر الصهيونى الثانى والعشرين الذى انعقد فى زيوريخ عام ١٩٣٧.

استغلت العصابات اليهودية الإرهابية المسلحة المذبحة وأعلنت عنها لتحقيق التطهير العرقى والاستعمار الاستيطانى؛ لأن اليهود هم الذين أعلنوا عنها مما دفع بالمؤرخ الإسرائيلى بينى موريس إلى القول: "المفارقة أن مذابح أفظع من دير ياسين حدثت ولكن لا يتذكرها أحد".. وكانت قرية دير ياسين هى القرية العربية الوحيدة فى فلسطين التى وقعت صلحًا مع مستعمرة جفعات شاؤول، على الرغم من معارضة الهيئة العربية العليا ومفتى فلسطين الحاج أمين الحسينى... وكانت القوات البريطانية لا تزال تحكم فلسطين خلال ارتكاب المجزرة وعلى بعد كيلو مترات عدة من موقعها.

ولم تكن مذبحة دير ياسين أول مذبحة ارتكبها اليهود بحق العرب، كما لم تكن أول قرية عربية تطرد سكانها منها أو تبيدهم، فلقد سبقها عشرات المذابح فى أقضية يافا واللد والرملة وحيفا وصفد التى لا تقل عنها وحشية وهمجية، وبلغت القرى العربية المدمرة إبان وبعد حرب ١٩٤٨ التى أشعلتها إسرائيل حوالى ٥٠٠ قرية، وزعت أملاكها وأراضيها ومزارعها وبيارات البرتقال فيها على المستعمرين اليهود وأقيمت على أنقاضها المستعمرات اليهودية.

ولكن دير ياسين حظيت بشهرة إعلامية لقربها من القدس، ولقيام الصليب الأحمر الدولى بتفقد موقع المذبحة قبل إخفاء معالمها، ولوجود المندوب السامى البريطانى على مسافة قصيرة منها، ولأن حكومة الانتداب البريطانى كانت لا

تزال تسيطر على فلسطين ولنشوء الخلافات بين المنظمتين اليهوديتين الإرهابيتين وعصابة الهاجاناه، والتفاخر والتنافس اليهودى على ذبح العرب واحتلال أكبر مساحة من أراضى الدولة العربية التى عيَّن حدودها قرار الأمم المتحدة رقم ١٨١.

وكان الهدف الرئيس من ارتكاب المجزرة نشر الذعر والخوف بين العرب والتأثير فى معنوياتهم وترحيلهم من وطنهم؛ حيث كانت نقطة تحول فى تهجير حوالى مليون فلسطينى من مدنهم وقراهم.

أعطت عصابة الهاجاناه الضوء الأخضر لعصابتى الأرجون وشتيرن الإرهابيتين للهجوم على دير ياسين وإبادة جميع سكانها حتى الرضع منهم ومسحها من الوجود لأهميتها الإستراتيجية لاحتلال القدس الغربية.

وحددنا ساعة الصفر فى الخامسة والربع من فجر التاسع من نيسان إلاَّ أن الإبادة بدأت فى الساعة ٤,٣٠ فجرًا. ويروى المؤرخ اليهودى ملشتاين أن جمهورًا يهوديًا فى حال انفعال تجمع فى مستعمرة جفعات شاؤول، وإن نساء المستعمرة أخذن يملأن مخازن البنادق والمدافع الرشاشة لإرسالها إلى المعتدين اليهود فى دير ياسين... تصدى المدافعون العرب القلائل للمعتدين إلى أن نفذت الذخيرة لديهم وتدخلت قوات البالماخ التابعة لعصابة الهاجانا وحسمت المعركة لمصلحة المعتدين من عصابتى الأرجون وشتيرن... وكان محمود سمور، مختار قرية دير ياسين، قد توجه فورًا عند بدء الاعتداء إلى القدس طلبًا للمساعدة والإمدادات ليجد جميع الأهالى من مقاتلين ومدنيين يستعدون لاستقبال جثمان الشهيد البطل عبد القادر الحسينى عائدين من معركة استرداد القسطل فى قرية عين كارم. ولم يهتموا إلى استغاثة أول الهاربات من جحيم دير ياسين، ولم تقم القوات البريطانية الموجودة فى القدس فى حماية المدنيين العرب من الإبادة بالحرق والقتل وتقطيع أوصالهم وهم أحياء... وتحدثت زوجة محمد عيد أن أحد أهالى دير ياسين توجه إلى قرية عين كارم عندما نفدت ذخيرته. عارضًا ابنته للزواج فى مقابل الذخيرة للوقوف أمام المعتدين والمجرمين والقتلة اليهود.

روت نزيهة (عمرها وقتذاك كان ثمانى سنوات) أن المهاجمين ألقوا قنبلة يدوية على منزلهم فهزته وحطمت زجاج شرفته وقالت: "أخذت أنا وأخى عمر نبكى من شدة الخوف، وأخذ اليهود يطرقون الباب بأعقاب البنادق ويقولون بالعربية (افتحوا وإلا ننسف الدار عليكم)، وطلبت جدتى الأمان وألا يقتلونا فقالوا (لا نقتلكم)، وفتحت جدتى الباب ودخل يهوديان مسلحان ومعهما فتاة مسلحة، فسحبوا جدى (الجريح) من السرير وأطلقوا عليه الرصاص ورأيته يترنح ويدور حول نفسه وتقدمت اليهودية منه وصارت تطلق الرصاص على رأسه حتى مزقته، فارتعدنا أنا وجدتى من هول المنظر ووضعونا فى قن الدجاج، وبعد فترة أخذتنا جدتنا إلى أقرب بيت من أقربائنا آل زهران، وقبل وصولنا بقليل فوجئنا بيهودى قابلنا وجهًا لوجه يطلق النار على جدتى فسقطت على الأرض وسقط أخى عمر عن ظهرها فارتميت بجانبهما، وبعد قليل تفحصت جدتى وجدتها تتضرج فى بركة من الدماء وأخذت أبكى وأقلب أخى عمر وأناديه، ولكنه قد مات أيضًا، ثم تقدمت من منزل عمتى بسمة ويا للهول ما رأيت، الجثث أكوامًا أكوامًا أمام كل باب منها: وكان باب دار عمتى محترقًا والدخان يتصاعد من الداخل ورأيت عمتى بسمة مطروحة على مدخل البيت ومن حولها جثث بناتها وابن عمتى فتحى (٣ أعوام). وبينما كنت أنظر إليها سمعت أنينًا من الداخل وبكاء طفلة من ناحية أخرى"... وناديت وأجابنى صوت يقول "أنا فاطمة"، سألتنى مَنْ أنت؟ فقلت لها أنا نزيهة، فطلبت منى أن أدخل إلى البيت، وقلت لها: إننى لا أستطيع ذلك الآن بيتكم محروق، وطلبت منها أن تخرج هى فقالت: إن رأسها ينزف دمًا ولا تستطيع الحركة. وعدت إلى عمتى، وأخذت أضع يدى على جبينها ورأسها وتلطخت يداى وشعرى بدمها، واعترانى فزع هائل، ورجعت واستلقيت بجانب جدتى وأخى عمر (الأموات) ولشدة خوفى غفت عيناى، وكنت قد شاهدت طفلاً على درج أحد البيوت ودمه يسيل. وبعد فترة أفقت على وخزات على جسدى فلما فتحت عيناى رأيت يهوديًا فوق رأسى يخزنى بكعب بندقيته وأمرنى

أن أتبعه وسرت خلفه، ثم قلت إننى أريد أن أذهب عند أمى، فسألونى عن مكان أمى فأشرت إلى دار خالى القريبة منا، وأخذنى أحدهم نحو الدار وأخذ يطرق الباب بكعب بندقيته، ولما سمعت امرأة خالى صفية ذلك أخذت تستعطف اليهودى ألا يقتلها فقال لها تكلمى معها، فلما ناديت سمعت صوتى وفتحت الباب وهى تحمل راية بيضاء ولما رأتنى أمى أخذت تنادينى وأنا أناديها وكلنا نبكى، وهنا أخرج اليهودى أمى نزهة وامرأة خالى صفية، وسار بنا إلى بيت قريب، كانوا قد بدأوا يجمعون النساء والأطفال فيه.

وروت الشاهدة زينب أنه اقترب من بيتها خمسة يهود تصحبهم فتاتان يحملون السلاح وأكياسًا فيها قنابل يدوية ويطلبون منا أن نفتح الباب وإلا ألقوا قنبلة على المنزل، فرفضت وقالت فى نفسها: "قنبلة تجهز علينا دفعة واحدة أفضل من أن نقتل بالرصاص كما فعلوا بعائلة زيدان"، وإذ بهم يقذفون البيت بقنبلة تحطم الباب والزجاج وتجرح كلاً من آمنة ومريم ثم يقتحمون المنزل ويمسك أحدهم بأخيها موسى فتستغيث وتستعطفه ألا يقتله وتعرض عليه مبلغ ٢٠٠ جنيه إسترلينى، ولكنه يدفع بموسى إلى الشارع ويوقفه رافعًا يديه أمام حائط ويرديه قتيلاً... وتتابع زينب شهادتها وتقول: بعدها أخذت أنحنى على قدميه متوسلة حتى لا يقتل أطفالى فأخذنا جميعًا إلى حيث كانوا يجمعون النساء وتركنا هناك.

استخدمت المنظمتان الإرهابيتان أيتسل (الأرجون) بزعامة مناحيم بيجن، وليحى (شتيرن) بزعامة إسحق شامير الأسرى من الشيوخ والنساء والأطفال العرب للقيام بما يلى:

أولاً: إرغامهم على السير فى مقدمة المقاتلين اليهود كدروع بشرية للاحتماء بهم من رصاص المدافعين.

ثانيًا: إرغامهم تحت أزيز الرصاص على نقل جرحاهم وقتلاهم من الأمكنة الخطرة إلى مناطق أكثر أمنًا.

ثالثًا: استعمالهم وسيلة للخداع كى يفتح الأهالى أبواب منازلهم لأسرهم أو قتلهم ونهب محتويات المنازل.

أما الجرحى والأسرى العرب فكان مصيرهم القتل، إذ يعترف الضابط الطبيب غورود وينتشك الذى رافق عصابة الأرغون فى تدمير القرية وإبادة المدنيين فيها فى شهادته الموجودة فى أرشيف مؤسسة جابوتنسكى فى تل أبيب: "بعد أن تكبدنا العديد من الإصابات فكرنا فى الانسحاب من القرية وبالإجهاز على الذين كنا قد أسرناهم، وبالفعل أجهزنا عليهم وعلى الجرحى كذلك، وكذلك قررنا الإجهاز على الأسيرات اللواتى رفضن الانصياع لأوامرنا".

وتروى زينب سمور أنه عندما كانت مع شقيقتها فى أحد مراكز التجمع للأسرى، سمعنا بكاء طفلة فطلبت شقيقتها من أحد الحرّاس السماح لها بأن تأتى بها، وكانت الطفلة فى دار خالها وقالت للحارس: "أنا آخذها وأربيها"، وعندما وصلت إلى البيت رأت خالها وزوجته وزوجة ابنه وأطفال العائلة جميعًا قتلى يسبحون فى بركة من الدماء، ووجدت طفلة رضيعة ممسكة بثدى أمها باكية. فما كان من الحارس إلاَّ أن صوّب رشاشة إلى الطفلة وقتلها.

وتروى والدة محمود سمور أنها بعد أن اقتيدت كى تسير أمام المهاجمين لدخول البيوت وأعيدت إلى المكان المخصص للأسيرات، أبصرت على الطريق جريحًا من أهالى القرية تتدفق الدماء منه فحاولت التوقف لإسعافه وإذ بضربة شديدة على ظهرها من حارسها تعقبها ضربات، ثم يأمرها بمتابعة السير... وتروى زوجة موسى عطية أنها عندما أخرجت من منزلها شاهدت جثة زوجها عند الباب، فحاولت النظر إليه وإذ بحارسها يلطمها ويسألها عن هوية القتيل فتنكر معرفتها به... وتروى فاطمة (أم صفية) أنه عندما أسروا الشيخ يوسف حميدة (٧٠ عامًا) جذبوه من لحيته وشتموه قبل إعدامه... وتعرضت الأسيرات جميعًا لسلب كل ما عليهن ولديهن من الحلى والأساور والخواتم والنقود وأغطية الرأس المزينة بالعملات الذهبية والفضية... وروى الطفل فهمى زيدان الناجى الوحيد من عائلته قائلاً: "أمر اليهود أفراد أسرتى جميعًا بأن يقفوا وقد أداروا وجوههم إلى الحائط، ثم راحوا يطلقون علينا النار، أصبت فى جنبى، واستطاع بعض الأطفال النجاة لأننا اختبأنا وراء أهلنا. مزق الرصاص رأس أختى قدرية

البالغة أربع سنوات من العمر، كما مزق وجه أختى سمية (٨ سنوات)، وصدر أخى محمد (٧ سنوات)، وقتل الآخرون الذين أوقفوا إلى الحائط: أبى وأمى وجدى وجدتى وأعمامى وعماتى وعدد من أولادهم"... وتروى حليمة عيد وتقول: رأيت رجلاً يطلق الرصاص فأصاب عنق زوجة أخى خالدية، التى كانت موشكة على الوضع ثم شق بطنها بسكين لحام، ولما حاولت إحدى النساء إخراج الطفل من أحشاء الحامل الميتة، قتلوها أيضًا واسمها عائشة رضوان.

وتحدث الرجل الثانى فى عصابة الأرجون التى هاجمت دير ياسين، يهودًا لابيدوت وقال: "غيرنا التكتيك وقبل دخولنا أى مبنى كنا نلقى فيه قنبلة يدوية أو ننسفه، وهذا سبب وقوع خسائر جسيمة فى الأرواح من الرجال والنساء والأطفال".. وقد حددت مجزرة دير ياسين سمات حرب عام ١٩٤٨ التى أشعلها اليهود "فإما أن ترحل أو تموت".

"المحرقة اليهودية" فى دير ياسين

قرر قادة العصابات اليهودية الإرهابية التخلص من جثث المدنيين العرب بعد خروج ممثل الصليب الأحمر الدولى عصر الأحد ١١ أبريل عن طريق حرقها... ويروى موشى برزيلاى، ضابط الاستخبارات فى عصابة ليحى (شتيرن) محاولة حرق الجثث ويقول: "صببنا ثلاثة أوعية نفط على ثلاثين جثة فى الشارع الرئيسى. وبعد نصف ساعة أدركنا أن هذا مستحيل، فيصدر يهوشواع زتللر (قائد ليحى فى القدس) أمرًا بنقل الجثث المحترقة قليلاً من الشارع الرئيسى إلى ما وراء جدار، وجررنا سويًا إحدى الجثث وانفصلت يد عن الجسم وبقيت وتقيأت".

ويروى شاهد عيان من عصابة ليحى اسمه شمعون مونيتا: "اعتقدنا أن الجثث ستشتعل ولكن لا يمكن إحراق جثث فى الهواء الطلق. ولقد بنى النازيون من أجل ذلك موقدًا يشتعل بدرجة حرارة عالية جدًا".. ويصف دورون حسداى، أحد قادة الجدناع (فصائل مسلحة للشبيبة اليهودية) الهولوكوست اليهودى فى دير ياسين

قائلاً: "على امتداد عشرات الأمتار كانت شعل من النيران تتوقف وفيها جثث لا تزال رائحة اللحم المشعوط تطاردنى حتى الآن، ويتصل بشورون شيف برئيسه شلنيئيل ويقول له: "محرقة هولوكوست إنهم يحرقون بشرًا"... وأكد أرئيل فى شهادته أن القتلى كانوا فى معظمهم من الشيوخ والنساء والأطفال، وأنه كلف قادة متقدمين فى السن نسبيًا من رجاله مهمة الدفن: "عملنا طوال ليلة ١٢ ـ ١٣ أبريل وكان من الصعب إخراج الجثث من منزلين فحصلنا على موافقة على نسف المنزلين مع الجثث ونفذنا ذلك فى صباح الثلاثاء ١٣ أبريل، ودفنا فى قبر جماعى نحو ٧٠ جثة ونسفنا مجموعتين من الجثث كل واحدة منها نحو ٢٠ جثة".

الإرهابيون يعترفون بإبادة دير ياسين

عقدت المنظمتان الإرهابيتان الأرجون وشتيرن عند الساعة الثامنة من مساء يوم المذبحة مؤتمرًا صحفيًا فى مستعمر جفعات شاؤول تحدث فيه مردخاى رعنان وقال: "يسوؤنى أن أعلمكم إننا قمنا بحملة تأديبية على قرية دير ياسين العربية القريبة من هنا، لما كان شبابها يقومون به من تحرش واستفزاز بالأهلين اليهود فأبدناهم عن بكرة أبيهم ودمرنا قريتهم ليكونوا عبرة لغيرهم، ويسوؤنا أن نعلمكم أننا نعترف بتقتيل عدد من النساء والأطفال تعرضوا لنيران بنادقنا ومدفعيتنا الرشاشة".

وأكد المؤرخ الإسرائيلى ملشتاين أن مردخاى رعنان أجاب عن أسئلة الصحفيين خلال المؤتمر الصحفى حول عدد القتلى بقوله إن عدد القتلى العرب ٢٤٥، وأن محطة الإذاعة البريطانية أعلنت فى الليلة نفسها هذا الرقم قائلة إن معظمهم من الأطفال والنساء.

وأعلن السفاح مناحيم بيجن رئيس عصابة الأرجون الإرهابية فى ليلة المذبحة قائلاً: "إن احتلال دير ياسين إنجاز رائع"، وأوعز بتوجيه رسالة إلى القادة الذين نفذوا المجزرة الجماعية وأبادوا القرية العربية عن بَكْرَةِ أبيها جاء فيها ما يلى: "تقبلوا تهانينا على هذا النصر المدهش، انقلوا إلى الجميع أفرادًا وقادة أننا نصافحهم فخورين بروحهم القتالية الغازية التى صنعت التاريخ فى أرض

إسرائيل وإلى النصر كما فى دير ياسين كذلك فى غيرها سنقتحم ونبيد العدو، ربنا، ربنا لقد اخترتنا للفتح".

وجاء فى البيان الذى أصدرته منظمة إتسل الإرهابية فى ٩ أبريل ١٩٤٨ "إن قرية دير ياسين قد احتلت بأكملها، وهى الآن فى أيدينا، وتم حتى الآن إحصاء ٢٤٠ قتيلاً عربيًا، بعد أن دارت المعارك من بيت إلى آخر، كما وقع فى أيدينا أسرى عرب".

وكتبت هاداسا أفى غدورى وهى من أفراد قوة اليالماح التى أسهمت فى الهجوم على دير ياسين فى يومياتها تقول إن موشى ديان جاء عند المساء إلى المعسكر الموجودة فيه "وانتظرتُ حتى أسمع من أحد القادة كلمة تعبّر عن الاشمئزاز أو الغضب أو الأسف عما حصل فى دير ياسين أو تدعو إلى التقيد ببعض المبادئ الأخلاقية، انتظرت أن يعبر ديان عن هذه المشاعر أو على الأقل أن يحدد ما يجوز عمله أثناء القتال وما لا يجوز، ولكن لم يتكلم أحد من القادة فى هذه الأمور".

ارتكب الإرهابيون اليهود مذبحة دير ياسين إبان وجود حكومة الانتداب البريطانى فى فلسطين وكان مقر المندوب السامى البريطانى فى القدس لا يبعد إلاّ عدة كيلو مترات عن مسرح المذبحة... وكعادة اليهود فى الكذب، وزّعت عصابة شتيرن والأرجون فى ١٠ أبريل بيانًا جاء فيه "إن وحدات الأرجون وشتيرن هاجمت دير ياسين واحتلتها، وأن تجمعات كثيفة من المسلحين العرب كانت قد تمركزت فى القرية وباشرت إزعاج المناطق اليهودية فى القدس، وأنه وردت معلومات عن وصول إمدادات من الجنود العراقيين والسوريين إلى دير ياسين بهدف الهجوم على هذه المناطق اليهودية، وأنه بعد إجلاء النساء والأطفال عن القرية، باشر الجنود نسف المعاقل على العشرات من رجال العدو الذين قضوا تحت أنقاضها. وأن مكبرًا للصوت ناشد النساء والأطفال مغادرة القرية فورًا واللجوء إلى التلال المجاورة، وأن الكثير من الأطفال والنساء أنقذوا نتيجة ذلك".

وكان القاصى والدانى يعلم علم اليقين بأنه لم تتمركز قوات عسكرية سورية

وعراقية فى دير ياسين على الإطلاق، ولم تصلها نجدات عربية، ولم تهدد القرية فى يوم من الأيام المستعمرات اليهودية القريبة منها، بل وقعت مع مستعمرة جفعات شاؤول معاهدة "عدم اعتداء" خلافًا لموقف الهيئة العربية العليا فى القدس... وظهر كذب بن جوريون بجلاء عندما أعلن أن قواته لم تشترك فى المذبحة وأدانها: حيث أثبتت الوثائق مشاركة قوات البالماخ التابعة لعصابة الهاجانا الإرهابية فيها، وعلمها المسبق بها. فكتب أرييه يتسحاقى فى يديعوت احرونوت الصادرة فى ١٤/ ٤/ ١٩٧٢ يتهم عصابة الهاجاناه التابعة إلى بن جوريون ويدافع عن عصابة بيجن الإرهابية ويقول: "إن معركة دير ياسين كانت إلى حد كبير معركة تقليدية لاحتلال قرية عربية عام ١٩٤٨، ولقد نفذت عشرات العمليات من هذا النوع بأيدى جنود الهاجاناه والبالماخ فى الأشهر الأولى من حرب الاستقلال".

ودافعت عصابة الهاجاناه الإرهابية عن نفسها فى بيان صدر فى ١٢ أبريل ردًا على بيانات عصابتى شتيرن والأرجون وورد فيه "أن دير ياسين لم تشترك فى الاعتداء على الأحياء اليهودية فى القدس. وأن الهجوم على دير ياسين لم يكن جزءًا من مخطط الدفاع عن القدس ولا قيمة عسكرية له، وإن ما قامتا به كان لمجرد التباهى لأغراض الدعاية".

وردّت العصابتان الإرهابيتان شتيرن والأرجون على بيان الهاجاناه فى بيانين بتاريخ ١٢ و١٤ أبريل أكدتا فيهما إن الهدف من احتلال دير ياسين هو من أجل تحرير القدس، وأن قائد الهاجاناه فى القدس دافيد شلتيئيل قد أكد أن احتلال دير ياسين كان من ضمن خطة الهاجاناه، وأن احتلال دير ياسين أوقع الرعب فى القرى المجاورة فتساقطت أمام هجمات الهاجاناه. وأدت إلى موجة هروب العرب الهائلة خوفًا من الذبح كما حصل فى دير ياسين.

أعلن مائير باعيل أحد الإرهابيين المحاربين اليهود الذين اشتركوا فى المذبحة فى يديعوت أحرونوت الصادرة بتاريخ ٤/ ٤/ ١٩٧٢ ووصفته الجريدة بأنه شاهد العيان الوحيد من خارج صفوف عصابتى شتيرن والأرجون الذى شارك

فى ارتكاب المذبحة، وسجّل ما شاهده وسمعه وجاء فى تقريره ما يلى:

"كان الوقت ظهرًا عندما انتهت المعركة وتوقف إطلاق النار. وغادر محاربو اتسل وليحى (الأرجون وشتيرن) الأماكن التى اختبأوا فيها، وبدأوا ينفذون عملية تطهير لمنازل القرية، وأطلقوا النار على كل من شاهدوه فى الطرقات والمنازل، وحدثت مجزرة مخجلة بين السكان (المدنيين) الرجال والشيوخ والنساء والأطفال دون تمييز بتوقيف السكان بجانب الجدران والزوايا وإطلاق النار عليهم. ولم يحاول القادة منع أعمال القتل المخجلة. لقد توسلت أنا وعدد من سكان القدس إلى قادة اتسل وليحيى كى يصدروا تعليماتهم إلى جنودهم بوقف إطلاق النار على السكان (المدنيين)، ولكن عبثًا حاولنا. وفى هذه الأثناء أخرج من داخل المنازل نحو خمسة وعشرين رجلاً. نقلوا فى سيارة شحن واقتيدوا فى جولة انتصار، فى حى محانيه يهودا وزخرون يوسف، وفى نهاية الجولة، احضروا إلى مقلع للحجارة وأطلق عليهم الرصاص بدم بارد. ثم أصعد محاربو اتسل وليحيى النساء والأطفال. الذين استطاعوا البقاء على قيد الحياة، إلى سيارة شحن ونقلوهم إلى بوابة مندلباوم، ورفض قادة ليحيى واتسل الطلب الذى وجه إليهم بأن يدفن محاربوهم ٢٥٤ ضحية عربية كانت مبعثرة فى شوارع وأزقة وداخل منازل القرية.

وتحدث عكيبا أزولاى، قائد منطقة جفعات شاؤول، ونائب رئيس بلدية القدس الغربية المحتلة فيما بعد وقال: "بتاريخ ١٢/ ٤/ ١٩٤٨ وصلت إلى القرية قوة من الهاغاناه، وقال نيسان هرتز الذى كان ضمن قوة الهاجاناه. عندما دخلنا قرية دير ياسين، كانت رائحة الجثث المحروقة تملأ أجواء القرية، ولم نعثر فى القرية على أحياء: حيث كانت مهجورة تمامًا. وخلال عملية جمع الضحايا تكشف لنا حجم عمليات القتل التى جرت فى القرية. فقد عثر على عشرات الجثث لرجال ونساء وشيوخ وأطفال داخل البيوت، وقد قتل كثير منهم فى أسرتهم، وكانت تبدو آثار إطلاق النار على الجدران. وفى عدد من البيوت وجدنا عائلات كاملة مقتولة، وجثث الأطفال ملقاة على الأرض هنا وهناك... وعند الفجر أبلغونا بأن الصليب

الأحمر سيصل إلى القرية فى وقت قصير، وعلينا أن نخفى آثار المجزرة، فقمنا بجمع العشرات من الجثث ووضعناها فى بناية، ثم قام خبراء المتفجرات بتفجيرها على من فيها من جثث ، وفى مساء يوم الجمعة تم نقل الأسرى فى شاحنات مفتوحة اجتازت شوارع القدس، ويقول عضو الكنيست الأسبق يعقوب جيل: " كنا نسكن فى نحلئوت فى القدس، عندما وقعت مذبحة دير ياسين، وبعد أن تم احتلال القرية، نقل الأسرى فى شاحنات مرت عبر حى نحلئوت باتجاه معسكر يهودا، وقام جمهور من اليهود بالبصق على الأسرى وقذفهم بالحجارة، ووجهت إلى الأسرى أقذع الشتائم".

مسؤولية الحكومة البريطانية عن المذبحة

عقد د. حسين فخرى الخالدى رئيس بلدية القدس مؤتمرًا صحفيًا فى القدس قال فيه إنه اتصل فور وصول الأنباء عن مذبحة دير ياسين بقيادة الشرطة والجيش والحكومة المدنية البريطانية طالبًا إيفاد من يتحرى الأمر، لكنهم جميعًا رفضوا تلبية طلبه.

بعث المندوب السامى البريطانى برسالة إلى وزير المستعمرات فى لندن فى يوم الاثنين الموافق فى ١٢ أبريل ١٩٤٨ قال فيها: "ما زالت القرية فى أثناء كتابتى هذه السطور فى يد اليهود، أردت أن يضرب جنودنا اليهود فى دير ياسين بكل ما لديهم من قوة ويطردوهم منها، لكن الجيش يقول لى أنه ليس فى وضع يمكنه من القيام بمثل هذا العمل، أو بأى عمل قد يؤدى إلى صدام عام مع أى من الطرفين "... واعترف وزير المستعمرات البريطانى كريتش جونز فى ١٢ أبريل أمام مجلس العموم البريطانى بالعجز عن وصف وحشية اليهود فى دير ياسين، ووصف المذبحة بأنها جريمة وحشية شنيعة من شأنها جعل الوصول إلى تسوية سليمة أمرًا بعيدًا، واستطرد قائلاً: "يصعب علىَّ أن أصف الفزع الذى تشعر به الحكومة البريطانية إزاء هذه الجريمة البربرية، إنها تلقى فى روع العالم الشىء الكثير من الهلع وتثير كامن الغضب ودفين الأحقاد".

أعلن البريطانيون والفرنسيون نبأ المجزرة الجماعية على العالم، وأجمع المراقبون والمؤرخون والصحفيون أن عدد الشهداء ٢٥٤. ولكننى أضيف إليهم العدد (٢٥) وهم الرجال الذين أسرهم الإرهابيون اليهود وطافوا بهم فى شوارع القدس المحتلة وأعدموهم فى الكسارة ما بين مستعمرة جفعات شاؤول والقرية وبالتالى يصبح عدد الشهداء ٢٧٩ شهيداً.

ويروى أحمد عيد أنه توجه برفقة على جابر إلى المركز الرئيسى للشرطة البريطانية فى القشلة بالقدس؛ حيث قابلا مدير المركز طالبين إليه التدخل لحماية الأطفال والنساء من الإبادة فى دير ياسين، ولكنه اعتذر.

مندوب الصليب الأحمر الدولى والمذبحة

كان الفرنسى جاك دورينيه، مندوب الصليب الحمر الدولى فى القدس أول من دخل دير ياسين بعد إبادة سكان القرية عن بَكْرَةِ أبيهم، وقال إن العرب فى القدس اتصلوا به هاتفيًا يوم السبت فى ١٠ أبريل وطلبوا منه التوجه فوراً إلى دير ياسين، فاتصل بالوكالة اليهودية وبقيادة الهاجاناه فأنكرا علمهما بالمجزرة، وقيل له إن لا علم لهما بما حدث ونصحوه بعدم التدخل كى لا يقضى بذلك على مهمته الإنسانية ويسىء إليها، ورفضت تقديم الحماية له إذا ما قرر دخول القرية، فأجابهم بأنه مصمم على الذهاب إلى القرية والتأكد بنفسه مما حدث وحمّل الوكالة اليهودية مسؤولية حمايته. وتمكّن من دخول دير ياسين فى سيارة إسعاف تابعة للصليب الأحمر فى ١١ أبريل ١٩٤٨... ووصف ممثل الصليب الأحمر الدولى ما شاهده فى دير ياسين وقال إن أفراد العصابة اليهود سواء الرجال منهم أو النساء كانوا جميعًا مدججين بالسلاح، يحملون الرشاشات والمسدسات والقنابل اليدوية والسكاكين الطويلة... وكانت معظم السكاكين ملطخًا بالدماء. واقتربت منى شابة وسيمة ذات عينين مجرمتين وأرتنى بتباه سكينتها التى كانت ما زالت تقطر دمًا، وكان واضحًا أن هذا هو فريق التطهير للإجهاز على الجرحى وأنه كان يقوم بمهمته خير قيام، وتابع ممثل الصليب الأحمر الدولى روايته للمذبحة بعد دخوله أحد منازل القرية قائلاً: "كان كل ما

فيه مقلوبًا رأسًا على عقب، وفيه جثث باردة، والواضح لكل عين ترى أن التطهير جرى بالمدافع الرشاشة والقنابل اليدوية وأكمل بالسكاكين. وكان المشهد فى المنزل التالى مشابهًا، وبينما كنت على وشك الخروج منه وإذا بى أسمع صوتًا كأنه تنهد خافت، فأخذت أفتش فى كل مكان وأقلب الجثث إلى أن ظهر لى قدم صغير كان لا يزال دافئًا وكانت صاحبته فتاة صغيرة لها من العمر عشرة أعوام شوهتها قنبلة يدوية لكنها ما زالت حية. فحملتها وتوجهت نحو باب المنزل. وإذ بالضابط اليهودى واقفًا عنده يعترض مرورى، فدفعته جانبًا حاملاً حملى الثمين. وضعت الطفلة فى سيارة الإسعاف وطلبت من السائق أن ينقلها فورًا إلى المستشفى، ثم يعود إلىَّ، وكان المشهد المريع ذاته فى كل منزل دخلته، ولم أجد حيًا غير امرأتين آخريين، إحداهما جدة طاعنة فى السن ظلت مختبئة خلف كومة من الحطب طوال اليومين الأخيرين".

ويقول الطبيب اليهودى ألفرد أنغل الذى رافق دو رينييه، مندوب الصليب الأحمر الدولى إلى دير ياسين: "كان واضحًا أن المهاجمين انتقلوا من منزل إلى آخر، وأطلقوا النار على الأشخاص عن كثب، لقد خدمت مدة خمس سنوات فى الجيش الألمانى فى الحرب العالمية الأولى ولم أر مشهدًا مفزعًا كهذا"... ثبت بجلاء أن الدافع الأساسى لإبادة جميع أهالى قرية دير ياسين العربية هو الترحيل الجماعى للفلسطينيين ومصادرة الأراضى والأملاك العربية وتهويدها، وقتل أكبر عدد ممكن من العرب، واحتلال وتهويد القدس والمناطق المحيطة بها.

علّق الإرهابى مناحيم بيجن على المجزرة الجماعية فى كتابه "الثورة" عن الترحيل الجماعى الذى سببته المجزرة والنتائج التى جلبتها لإسرائيل وقال: "أصيب العرب بعد أخبار دير ياسين بهلع قوى لا حدود له، فأخذوا بالفرار للنجاة بأرواحهم، وسرعان ما تحول الهرب الجماعى إلى اندفاع هائج جنونى لا يمكن كبحه أو السيطرة عليه أن الأهمية الاقتصادية والسياسية لهذا التطور لا يمكن المبالغة فيها مهما قيل".

وبالتالى حقق الإرهابيون اليهود هدفهم من الإبادة الجماعية للعرب فأثرت على معنويات العرب ودفعتهم إلى السعى لإيجاد أماكن أكثر أمنًا لأطفالهم ونسائهم، وعائلتى (كاتب البحث) واحدة منهم بسبب فقدان السلاح والعتاد لرد المجرمين اليهود.

رفع قادة الحركة الصهيونية وإسرائيل هدف الإبادة الجماعية للشعب الفلسطينى إلى درجة القداسة الدينية لترحيله قسرًا عن وطنه فلسطين العربية وجلب المهاجرين اليهود من مختلف أصقاع الدنيا لتهويدها ونزع الطابع العربى عنها وتحقيق المشروع الصهيونى فى الوطن العربى. ومن هنا يتضح الهدف من الإرهاب الصهيونى الذى أباد قرية دير ياسين عن بَكْرَةِ أبيها، ويتضح مدى وحشية وهمجية مناحيم بيجن، رئيس الوزراء الإسرائيلى الأسبق، وزعيم عصابة الأرجون الإرهابية الذى خطط للمذبحة وقادها وأشرف عليها وأعلن على الملأ افتخاره واعتزازه بها، ولذلك انتخبه الشعب الإسرائيلى رئيسًا للوزراء تكريمًا له على جرائمه الوحشية... ووصل مرضه الجنونى فى قتل العرب أن اختار منزله بعد استقالته من رئاسة الوزارة فى موقع يشرف على المستعمرة اليهودية التى أقيمت على أنقاض قرية دير ياسين العربية ليتذكَّر ما قام به من إبادة جماعية للعرب والتى كانت نقطة تحول فى الترحيل الجماعى للشعب الفلسطينى... وبالتالى تتحمل إسرائيل المسؤولية القانونية والمادية والأخلاقية والإنسانية عن نشوء مشكلة اللاجئين الفلسطينيين، مما يفرض على المجتمع الدولى والدول العربية العمل على إجبارها لتنفيذ قرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤ الذى يؤكد حق العودة.

إن فظاعة المذبحة تفوق فظاعة وبشاعة أى مذبحة جماعية ارتكبت فى أى بقعة من بقاع العالم فى القرن الماضى، ولكنها لم تحظ بالاهتمام العربى والدولى الذى كان يجب أن تحظى به، فالتقصير العربى يظهر بجلاء؛ لأننا ننسى ونتناسى بسرعة كبيرة، بينما يرجع التقصير الدولى إلى تعاطف الولايات المتحدة ودول الاتحاد الأوربى مع إسرائيل ومعاداتهم للعرب والمسلمين وخضوعهم لنفوذ اللوبى

اليهودى... إن أبسط الواجبات الوطنية والقومية والدينية والإنسانية تفرض على الشعب العربى تخصيص يوم فى التاسع من أبريل من كل عام لكشف مخطط إسرائيل للإبادة الجماعية للشعب الفلسطينى، ولتذويبه وتوطينه خارج وطن أبائه وأجداده لتحقيق المقولة الصهيونية القائلة: "إن فلسطين أرض بلا شعب لشعب بلا أرض".

تذرع النازيون بعدم وجود اتفاقيات دولية تحرم ارتكاب المجازر الجماعية وجرائم الحرب والجرائم ضد الإنسانية، فبماذا يتذرع اليوم قادة إسرائيل بعد الموافقة على العديد من العهود والمواثيق الدولية التى تحرم الإبادة الجماعية؟

التضليل الصهيونى

ركزت الدعاية الصهيونية بعد إبادة جميع السكان فى قرية دير ياسين على القيمة العسكرية لاحتلالها كمقدمة لاحتلال الشطر الغربى من مدينة القدس، واعتبرها السفاح مناحيم بيجن نقطة تحول محورية فى حرب ١٩٤٨ تساقطت بعدها القرى الفلسطينية الواحدة تلو الأخرى... وعزت أجهزة الإعلام الصهيونية سقوط يافا وحيفا وطبرية إلى مسح دير ياسين من الوجود وكذلك الترحيل الجماعى الذى حققته القوات اليهودية الإرهابية... وحملت الدعاية الصهيونية كذبًا وبهتانًا مسؤولية ترحيل الشعب الفلسطينى إلى الضحية نفسها وإلى القادة العرب واللجنة القومية.

ومن المؤلم حقًا أن العديد من الصحفيين والكتاب العرب صدقوا الكذب اليهودى فحقق المجرم والمعتدى ومجرم الحرب اليهودى نصرًا سياسيًا ونفسيًا بالإضافة إلى النصر العسكرى الذى حققه، وبالتالى نجح بالتغطية على سياسة التطهير العرقى الذى بدأ يمارسها منذ ذلك الوقت وحتى اليوم... إن الوقائع والأحداث والروايات وشهود العيان تثبت بجلاء أن المناضلين الفلسطينيين والعرب استماتوا بعد مجزرة دير ياسين فى الدفاع عن أراضيهم وممتلكاتهم وحياتهم أمام الهولوكوست اليهودى... فصمدت عين كارم وبيت صفافا أسابيع عدة بعد

تدمير قرية دير ياسين، وبعد أن عجزت جيوش عربية نظامية عن الدفاع عنها وعن الصمود أمام اعتداءات القوات اليهودية... وصمدت العديد من قرى القدس ومنها بتير والولجة وبيت صفافا إلى أن استلمتها إسرائيل بموجب اتفاقية الهدنة الإسرائيلية ـ الأردنية فى أبريل ١٩٤٩... وجرى تسليم أم الفحم وباقة الغربية والشرقية وكفر قاسم وعرعرة وجلجولية والطيبة بموجب الاتفاقية نفسها لإسرائيل.

وقد دقت مجزرة دير ياسين ناقوس الخطر داخل فلسطين وفى البلدان العربية الأخرى للدفاع عن عروبتها وحماية شعبها من الإرهاب والإبادة على يد العصابات اليهودية الإرهابية والجيش الإسرائيلى.

الأكاذيب الصهيونية حول مذبحة دير ياسين

لا تزال الصهيونية العالمية تعمل على تشويه وقائع وحقائق مجزرة دير ياسين الجماعية حتى اليوم، فالكذب اليهودى جزء لا يتجزأ من العقيدة اليهودية والايديولوجية الصهيونية، لذلك قال الفيلسوف الألمانى الشهير أرتور شوبنهاور إن اليهود أساتذة كبار فى فن الكذب... ففى غمرة احتفالات يهود الولايات المتحدة بالذكرى الخمسينية لتأسيس الكيان الصهيونى نشرت المنظمة الصهيونية الأمريكية تقريرًا عن مجزرة دير ياسين الجماعية زعمت فيه "أن المذبحة لم تقع، وقال التقرير إنها لم تكن مذبحة ولم تكن ضد العرب، بل كانت ضد اليهود وضحاياها كانوا فى أكثريتهم من اليهود لا من العرب كما يذهب المؤرخون العرب".. ومضى التقرير اليهودى الأمريكى بكذب ووقاحة صهيونية منقطعة النظير فى التاريخ البشرى يقول: "إن سبب وضعنا هذا التقرير هو أننا علمنا أن العرب الأمريكيين يخططون لاحتجاجات ويدعمون فكرة تقول بأنه كان هناك مذبحة إسرائيلية ضد المدنيين العرب، والحقيقة أن يهودًا أيضًا قد فقدوا حياتهم فى تلك المعركة التى دار فيها قتال ضار من بيت لبيت نظرًا لحاجة اليهود إلى السيطرة على موقع دير ياسين الإستراتيجى الذى كان يطل من أعلى موقع كان العرب يطلقون منه النار على اليهود مرارًا وتكرارًا".

وتابع يهود الولايات المتحدة بث أكاذيبهم الوقحة وتزويرهم للأحداث والوقائع حدًا أصدر فيه مورتون كلاين، رئيس المنظمة الصهيونية الأمريكية نداء إلى الجماعات اليهودية الأخرى يطلب فيها أن تشارك فى كشف حقيقة ما وقع وهو أن أية أرواح عربية أزهقت فى تلك الفترة الواقعة فى سنة ١٩٤٨ إنما كانت نتيجة أن ستة جيوش عربية آلت على نفسها أن تغزو إسرائيل، وأن تحاول تدمير الشعب اليهودى.

عندما ارتكب الإرهابيون اليهود مجزرة دير ياسين الجماعية بتاريخ ٩/ ٤/ ١٩٤٨ لم تكن القوات العربية قد دخلت فلسطين بعد. دخلت القوات العربية فلسطين بعد ١٥/ ٥/ ١٩٤٨ وبعد أن ارتكب العصابات اليهودية الإرهابية المسلحة عشرات المجازر الجماعية قبل وبعد مجزرة دير ياسين، ودخلت تطبيقًا لقرار الأمم المتحدة رقم ١٨١ أى قرار التقسيم ولإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الأرواح والأراضى والأملاك والمقدسات العربية والإسلامية ضمن الحدود التى رسمها قرار التقسيم.

لذلك رأيت من الواجب علىَّ إزاء شهداء دير ياسين أن أعيد كتابة المذبحة معتمدًا على أقوال قادة العصابتين الإرهابيتين اللتين ارتكبتا المجزرة ليرى الإنسان مدى وحشية وهمجية الصهاينة فى الولايات المتحدة وتجردهم من أى حس أو شعور إنسانى أو حضارى، وانحيازهم الأعمى لإسرائيل وتبرير الإبادة الجماعية والتطهير العرقى التى تمارسها تجاه الشعب الفلسطينى.

وفى سياق هذا "الفجر الحضارى" الأمريكى والغربى والصهيونى... يقول الأستاذ محمد أمين الكاتب والباحث والمؤرخ من "أسيوط" بوسط صعيد مصر، يقول فى مقال له بعنوان "عن أى حقوق وأى إنسان يتكلم الفرنجة؟":

"أصاب بدوار وشىء يشبه الغثيان، وأنا أشاهد بعض الفرنجة ـ وأقصد بالفرنجة كل من انحدر من أصول أوربية ـ يتشدقون بمقولة" حماية حقوق الإنسان". وهنا يحضرنى ذلك الوصف الجامع المانع الذى وصفهم به شاعرنا

الكبير "مظفر النواب" ردًا على ادعائهم الدفاع عن حقوق الإنسان، حين قال "عجيب حجار المراحيض يطلب طهرًا... أنا لا أفهم العهر هذا ؟!"... وأنا وربما شاركنى الكثيرون، لا أفهم أيضًا... كيف يجرؤ هؤلاء القتلة أسلاف القتلة على الادعاء بحقهم فى حماية حقوق الإنسان، رغم كل ما فعلوه من جرائم ضد الإنسانية جمعاء؟

إنهم يتهموننا نحن العرب بأننا لا نقرأ التاريخ جيدًا، فما بالهم هم المتحضرون؟.. ألا يقرأون التاريخ، أم أنهم يريدون التنصل من تاريخ أجدادهم الأسود ضد الإنسان وبخاصة فى أفريقيا وآسيا وأمريكا؟... ربما يكون هذا لو كانت أفعالهم مع الآخرين قد تغيرت عن أفعال جدودهم... أما وأنهم ما زالوا يسلكون السلوك الهمجى نفسه، فإن كلامهم عن حماية حقوق الإنسان يصيبنا بالدوار والغثيان، ولا أجد خيرًا من التاريخ للاحتكام إليه بيننا وبينهم.

لن أعود بالقارئ لتاريخ بعيد مضى، والحديث عن الحروب الصليبية التى أطلق شرارتها رجل مفروض أن يكون داعية سلام، فتحول إلى ناقوس حرب... ذلك هو البابا "أريبان الثانى"، ولا إلى ما فعله المجنون "أورناط" حاكم الكرك، حين خاض بخيله فى دماء الحجاج المسلمين... ولا إلى ما فعله "ألفونس" فى إسبانيا (الأندلس) من إعدام للمسلمين واليهود حرقًا على الخازوق... لكنى سأكتفى بتاريخ همجية الفرنجة فى الماضى القريب والتاريخ المعاصر، وسوف أكتفى بذكر جرائمهم فى أمريكا وإفريقيا.

أولاً: جرائمهم فى أمريكا

لقد ذهب الرجل الأبيض إلى الأرض الجديدة سعيًا وراء الثراء والثروة، متمثلين فى الهولنديين والإسبان فى بداية القرن السابع عشر. ومع بداية النشاط الاستعمارى للإنجليز مع بداية القرن الثامن عشر، ذهبوا أيضًا إلى الأرض الجديدة يحملون الهوس الدينى نفسه الذى سبق وغلفوا به حملاتهم الصليبية على العرب، بدعوى تخليص "بيت الرب" من أيدى "الكفار المسلمين"... فكان

ذهابهم (الإنجليز) إلى أمريكا بدعوى أنهم قديسين بعثهم الرب إلى هذه الأرض للقضاء على "الشياطين" - وهو الاسم الذى أطلقوه على الهنود الحمر - لتخليص العالم من شرورهم، حتى اعتقد بعضهم مثل "كتون ماذر" أنه من أنبياء بنى إسرائيل... فنجده يقول: "لقد ظن هؤلاء الشياطين أن بعدهم عن العالم سينقذهم من انتقام الرب، لكن الله استطاع أن يحدد مكانهم ويكشفهم، وأرسل قديسيه الأبطال من إنجلترا. وأرسل معهم بعض الأوبئة السماوية القاتلة ليطهر الأرض منهم، ويفسح مكانًا لشعبه فى هذه المجاهل...".

إذن فقد ذهب الإنجليز إلى أمريكا منذ البداية بهدف إبادة الهنود الحمر واستيطان أرضهم... لذلك كانت البداية "حرب جرثومية" قذرة، فقد كان الفرنجة يقدمون هدايا للهنود الحمر من الأغطية (البطاطين) والملاءات التى تحمل جراثيم الأوبئة القاتلة، مثل: الجدرى، والحصبة، والدفتريا، والتيفود والكوليرا والسل وغيرها. لدرجة أن هذه الأوبئة عصفت بحوالى ٩٠٪ من أبناء بعض قبائل الهنود الحمر، وكان أثرها فعَّال حين اجتاحت مناطق شاسعة، يقطنها السكان الأصليون (الهنود الحمر) من فلوريدا فى الجنوب الشرقى، إلى أورجون فى الشمال الغربى... ويذكر عالم الأحياء الفرنسى "جان لوى برلانويه" أن ٥٢ أمة هندية جاء ذكرها فى تقرير "لاسال" من أكثر من ١٥٠ سنة، لم يتبق منها سوى أربعة أمم فقط، والباقى أبادته الحرب الجرثومية.

كان مبدأ الإبادة الكاملة للهنود الحمر هدف إستراتيجى عند الساسة، وهوس دينى عند عامة الإنجليز... فهاهو الزعيم المؤسس "جورج واشنطن" الذى تحتل صورته ورقة الدولار الأمريكى، ويطلق اسمه على عاصمة أمريكا، يقول: "إن طرد الهنود الحمر من أوطانهم لا يختلف عن طرد الوحوش من الغابات".. وتبعه فى ذلك وسار على نهجه من تولوا رئاسة أمريكا بعده. فهذا "توماس جيفرسون" الرئيس الذى كتب "وثيقة الاستقلال الأمريكى" يقول لوزير دفاعه: " لا تضع البلطة حتى تفنى هؤلاء الهنود الحمر المتوحشين، فهم سواء بسواء مثل الذئاب ووحوش الغابات، لا يجب أن يكون لهم وجود".

وفى كتاب "الذئاب والبشر" يقول بارى هولستون لوبيز: "إن مستعمرة ماشوستس حظرت على المستوطنين البيض استخدام المسدس فى المناسبات غير الضرورية أو فى أى ألعاب، ويقتصر استخدامه فى قتل الهنود الحمر والذئاب... فقد كان البيض يصنعون لحمًا مسمومًا للذئاب، وغطاءً ملوثًا بجراثيم الأمراض الفتاكة للهنود الحمر... وكانوا يغيرون على أوكار الذئاب ليقتلوا جرائها، وكذلك كانوا يخطفون أطفال الهنود الحمر ويقتلونهم بناء على توجيهات جورج واشنطن نفسه، إذ قال: أقتلوا الهنود الخمر هم وأطفالهم، فهل إذا قتلتم الذئاب فى الغابة تبقون على حياة جرائها؟ كذلك فافعلوا مع هؤلاء الهنود المتوحشون"... وآخر أساليب الإبادة لمن تبقى من الهنود الحمر، هو إجراء عمليات تعقيم لنسائهم؛ حيث اكتشفت ذلك طبيبة من الهنود الحمر تعمل فى إحدى مستشفيات ولاية "أوكلاهوما" من خلال سجلات المستشفى فى منتصف السبعينيات من القرن العشرين.

وقد تم للرجل الأوربى الأبيض القضاء على أغلب الهنود الحمر، الذين كان عددهم يبلغ حوالى ١١٢ مليون حين غزو الإنجليز لبلادهم، ولم يتبق منهم حتى ما أطلق عليه حرب الاستقلال إلا أقل من عشرة ملايين (١). وقد استعان الإنجليز بالزنوج الذين جلبهم الرجل الأبيض من مستعمراته فى إفريقيا؛ حيث نشأت أسوأ وأحقر تجارة فى البشر، على يد الرجل الأبيض الأوربى الذى لم يتورع عن محاولة إخلاء حتى إفريقيا من سكانها، ليس بالقتل فقط، وإنما أيضًا بابتياعهم سلعة تجارية كالبهائم.

لذا فقد قامت النهضة الزراعية فى أراضى أمريكا الشاسعة على أكتاف وبسواعد الزنوج، وبجلد ظهورهم... وبعد حرب الاستقلال تطلع الزنوج الى أن يكون لهم نصيب من "الكعكة"، لكن الرجل الأبيض تعامل معهم ليس بقسوة واستعلاء فقط، بل نشأ ما سمى بالفصل العنصرى، ومورس معهم ليس التحقير الاجتماعى فقط بل والتعذيب البدنى، لدرجة أن من حق الرجل الأبيض أن يتصرف فى عبيد الأرض من الزنوج بالبيع والشراء مثل حيوانات مزرعته...

ويكفى أن نقرأ رواية "كوخ العم توم": لنعرف مدى الإجرام الذى مارسه الرجل الأبيض ضد الزنوج، كما يكفى أن نعرف أن الزنجى إذا حاول رد إساءة السيد الأبيض إليه، فإنه يعلق على شجرة بسلسلة، ثم تشعل فيه النار وهو حى، ويتجمع البيض حوله، وتعلو صيحات الفرح والضحكات كلما دوت صرخات الألم الصادرة من الزنجى، ويتلذذ البيض برائحة شواء جسد هذا الزنجى... ليس هذا فحسب، بل إن كل من يعترض من أسرة الزنجى على ما يحدث له، ينال نفس مصيره (!). أى إجرام وهمجية أكثر من ذلك؟

ثانيًا: جرائمهم فى أفريقيا

رأينا بعضًا من الجرائم الوحشية التى مارسها الفرنجة مع الهنود الحمر سكان أمريكا الأصليين... وقد تزامن ذلك تقريبًا وبالسيناريو نفسه، مع غزوهم للقارة الأفريقية: حيث مارسوا فيها ما هو أسوأ مما مارسوه مع الهنود الحمر... فحينما احتل البلجيكيون الكونغو لنهب ثرواته لتذهب إلى الملك البلجيكى السفاح "ليوبولد"، تعامل رجال هذا المجرم من البيض مع الأهالى بأساليب غاية فى القسوة، فقد استخدموا - فى ظروف عمل قاسية ومتدنية ومهينة - السكان الأصليين من الزنوج فى جمع الثمار من الغابات وبخاصة المطاط، تلك السلعة الإستراتيجية فى حينه، فإذا ما تباطأ الزنجى فى العمل أو أنتج أقل من زملائه، كان جزاؤه قطع يده اليمنى... وانتهى الأمر بهذا الملك الهمجى، إلى أن وضع من بترت أياديهم من الزنوج فى متحف بشرى مفتوح مثل حدائق الحيوان. وقد كتبت على الأسوار الحديدية التى تفصلهم عن زوار الحديقة البيض، عبارات تنصح الزوار بعدم إلقاء الفستق أو الأطعمة لهذه الكائنات وتحذرهم من الاقتراب الزائد من الأسوار.

أما ما حدث فى جنوب إفريقيا فقد تكرر بنفس سيناريو غزو أمريكا، حين ذهب الهولنديون إلى جنوب إفريقيا بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح، وأنشأوا محطة لتموين الغذاء فى منطقة "الكاب"، كان ذلك عام ١٦٥٢... ولكنهم طمعوا فى الأراضى الخصبة هناك، فجاءت هجراتهم بالآلاف ليستولوا على أراضى

أصحاب البلاد الأصليين. ويتحولون إلى مزارعين فيما أطلق عليهم "البوير"... واستخدموا الزنوج فى خدمتهم، بعد أن نهبوا أراضيهم الشاسعة، وملايين من رؤوس المواشى المملوكة لهم... وحين جاء الإنجليز بعد ذلك عام ١٨١٤ اتبعوا أسلوب الهوس الدينى نفسه، وشنوا الحروب على السكان الأصليين "الكفار"، فيما عرف تاريخيًا بـ "حرب الكفار الأولى عام ١٨٣٥" و"حرب الكفار الثانية عام ١٨٤٧" و"حرب الكفار الثالثة عام ١٨٥١"... وتولى "هارى سميث" الإنجليزى حكم البلاد بعد أن طرد السكان الأصليين إلى المناطق الجرداء... ولما ظهرت فى الجنوب الإفريقى مناجم الذهب والألماس، اختلف اللصوص البيض من الإنجليز والهولنديين، واندلعت بينهم عام ١٩٠٨ ما عرف بحرب البوير... ورغم أن النصر تحقق للإنجليز، فإن مهندس العنصرية فى العالم، وزير خارجية بريطانيا اللورد "آرثر جيمس بلفور" صاحب وعد بلفور المشؤوم الذى أنشأ العنصرية الصهيونية باغتصاب فلسطين... هذا الرجل نفسه هو الذى قام بإجراء الصلح والتآخى بين البيض من البريطانيين والهولنديين "البوير" عام ١٩١٠، على أن يتم الفصل العنصرى بينهما وبين السود والملونين من السكان الأصليين والآسيويين العاملين هناك فيما عرف بـ "الأبارتهايد".

وجدير بالذكر أن "المهاتما غاندى" الزعيم الهندى العظيم، قد اندلعت ثورته ضد الإنجليز، عندما كان ضحية الفصل العنصر فى جنوب إفريقيا... فقد كان غاندى محاميًا وكلته شركة الهند الشرقية للدفاع فى إحدى قضاياها فى جنوب إفريقيا... وحجزت له الشركة بطاقة ركوب فى القطار الفاخر المتجه إلى "جوهانسبرج"، لكنه فوجئ بعمال القطار يلقون به وبأمتعته على الرصيف؛ لأن هذا القطار مخصص للبيض فقط، ولا يركبه الزنوج والملونين... فعاد غاندى الى الهند ليقود حركة العصيان المدنى ضد الإنجليز فى الهند.

جرائمهم المعاصرة

ربما كان مقبولاً من هؤلاء الفرنجة الدفاع عن حقوق الإنسان باعتبار ذلك استتابة وتكفيرًا عن جرائم أسلافهم ضد الإنسانية... لكن هؤلاء الأحفاد ساروا

على نهج أجدادهم وبصورة أكثر قسوة وهمجية... ولأن الأحداث معاصرة فلن أستفيض فى الشرح، ويكفى أن أضرب أمثلة محددة لإجرامهم... فهؤلاء المتحدثون عن حقوق الإنسان، هم من أهلكوا أكثر من مليون من اليابانيين حين ألقوا أول قنبلتين ذريتين على هيروشيما وناجازاكى، هذا رغم أن اليابان كانت قد أعلنت استسلامها دون قيد أو شرط قبل إلقاء القنبلتين (١). لكن الرئيس الأمريكى مجرم الحرب "ترومان" طلب من رجاله تجربة ما توصلوا إليه من سلاح، فألقوا القنبلتين... الغريب أن إحدى القنوات الفضائية استضافت الطيار الذى ألقى القنبلة على هيروشيما، فقال إنه لم يشعر بالندم على ما فعل طوال حياته، وأنه طار فوق المدينة ضحيته بعد ثلاثة شهور من ضربها، وشعر أنه أدى عملاً عظيمًا لوطنه... ثم كانت "الحرب الكورية" حرب إبادة، وكذلك فعلوا فى فيتنام، وهاهم يمارسون عدوانهم وهمجيتهم فى العراق وأفغانستان، ويهددون سوريا وإيران.

فهل لهؤلاء الفرنجة الحق فى الحديث عن حقوق للإنسان؟. أى حقوق هذه وأى إنسان يقصدون؟!. هل هى حقوق الإنسان الأوربى فى العيش على اضطهاد باقى شعوب العالم، وأن من يعترض أو يقاوم فهو إرهابى؟. إنهم لا يملكون حتى حمرة الخجل!.

إن شعوب المنطقة لم تتعلم الحرية والكرامة من القيم الأمريكية التى تبغضها أصلا؛ لأنها عنوان للزيف والنفاق والاستغلال واستعباد الشعوب، وأن هذه الشعوب ليست فى حاجة إلى مساعدات وقروض ومشورة أمريكا ونظامها الاقتصادى... إننا أمة قديمة عظيمة، لها جذور ضاربة فى عمق الحضارة والتمدن، وليست وليدة أقل من ثلاثة قرون فقط كالولايات المتحدة الأمريكية، التى هى وليدة الحضارة الغربية... الفاجرة.

- هربرت سبنسر (١٨٢٠ - ١٩٠٣) هو صاحب عبارة "البقاء للأصلح" وليس داروين... ويقول: "إنى - ببساطة - أطبق آراء السيد داروين على الجنس البشرى... فلن يعيش فى نهاية المطاف غير من يتقدمون بالفعل، وهؤلاء لا بد أن

يكونوا خيار جيلهم... إن الفقراء ومن لم يتحملوا مشاق الحياة هم ضعاف البنية (لم يتعرض إلى سبب فقرهم ولا إلى من كان السبب فيه) وكان موتهم الفجائى السهل هو الوسيلة التى اتخذتها الطبيعة لتحسين النوع... لا ينبغى لشىء أن يوقف هذه العملية الحميدة أو يعوقها... إن الطبيعة عندما تعمل على التخلص ممن هم عند حد أدنى من مستويات التطور (مَنْ السبب؟)، وتعمل من ناحية أخرى على إخضاع الباقين لانضباط التجربة الذى لا يتوقف، فإنها تكفل نمو عنصر يكون فى آن واحد متفهمًا لظروف الوجود وقادر على التصرف وفقًا لها... ومن المستحيل وقف مفعول هذا الانضباط بأى وجه"... ونحن نقول: بل يمكن وقفه، وأن وقف قهر واستغلال الفقراء هو الفريضة الأولى لأى جهد إنسانى سوى، فرديًا كان أو جماعيًا.

ويعلق "جالبرنب" على ذلك قائلاً: "لا يسع المرء إلا أن يعجب بالطريق الشاملة التى أسهم بها سبنسر والداروينية الإجتماعية فى الدفاع عن النظام، فقد جعلا التفاوت والحرمان أمرين مفيدين اجتماعيًا، وجعلا الحد من المشاق عملاً ضارًا بالمجتمع (!). ولم يعد لسعداء الحظ ووافرى الثراء أن يشعروا بالذنب؛ لأنهم المستفيدون الطبيعيون من تفوقهم، وأن الطبيعة قد انتخبتهم باعتبارهم جزءًا من التقدم الحتمى نحو عالم أفضل" (!).

هؤلاء هم بعض من آباء الفكر الأوربى يعلنون قناعاتهم بكل الصفاقة والانحطاط والوحشية... والفجر.

ويورد روجيه جارودى فى كتابه "الولايات المتحدة طليعة الانحطاط" الصادر عن دار الكتاب للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ـ دمشق ١٩٩٨ ترجمة: مروان حموى.. يورد ما كتبه سيمون وايل (١٩٠٩ ـ ١٩٤٣)، وهو فيلسوف بدأ عاملاً فى مصنع، ثم انضم للجنرال ديجول فى لندن عام ١٩٤٣، ومعروف بشكل خاص بكتابه La Pesanteur et La grace: "نعرف جيدًا أن أمركة أوربا بعد الحرب تشكل خطرًا بالغًا. ونعرف جيدًا ما سنفقده لو تحققت هذه الأمركة، فأمركة أوربا ستقود بلا شك إلى أمركة الكرة الأرضية كلها... وستفقد الإنسانية ماضيها".

ثم يقول جارودى فى مقدمة كتابه: "البطالة والطرد من العمل فى بلادنا، والجوع فى ثلاثة أرباع العالم، والهجرة كممرّ من عالم الجوع إلى عالم البطالة... لقد بدأنا باغتيال أطفالنا الصغار. ونهيئ للقرن الحادى والعشرين انتحارًا كونيًا، فيما إذا استسلمنا للانحرافات الحالية فى السياسة الدولية. ونتساءل: أهناك سياق واحد للأحداث نستطيع من خلاله فهم عصرنا؟ أعنى، أهناك رابطة داخلية وعميقة تجمع بين كل المشكلات الدولية التى تستدعى التدخل العسكرى، وتبرر دور صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى، والدور الأوربى كما رسمته معاهدة مايستريخ، ومنظمة التجارة الدولية "الجات القديمة"، وعودة النظام الرأسمالى إلى بلدان أوربا الشرقية، والأصوليات الإسلامية والمسيحية واليهودية، ومشكلاتنا الراهنة: البطالة والتسريح، والهجرة، والعنف، والمخدرات؟ كيف نستطيع الإمساك بوحدة هذه المشكلات وفهم معناها؟ وقبل كل شىء: كيف نستطيع أن نضع برنامجًا متماسكًا للخروج منها؟... ما الرؤية التركيبية التى تبرز فى نهاية القرن العشرين، والتى يمكن أن نكونّها من مجموعة أحداث تبدو ظاهريًا منفصلة بعضها عن البعض الآخر؟ ما المشكلات الكبرى التى تبرز لتشكل مستقبلنا القريب؟ هل نحن متجهون إلى حرب عالمية ثالثة إنما من نموذج جديد؟ ذلك أن ما سُمى حتى الآن بالحربين العالميتين لم تكن فى حقيقة الأمر إلاّ حربين أوربيتين، لا عالميتين، ولم تُسم الحرب الأولى عالمية إلاّ لأن الدولتين المتحالفتين إنجلترا وفرنسا ضمتا إلى جيوشهما "فرق الملونين" التى تشكلت من مواطنى مستعمراتهما: من الجنود السنغاليين، حتى جنود الشمال الإفريقى بالنسبة إلى فرنسا، وجنود ممتلكات التاج البريطانى الممتدة من كندا حتى أستراليا بالنسبة إلى بريطانيا.

وجرى الأمر نفسه فى الحرب العالمية الثانية، التى انفجرت أيضًا بسبب صراع أوربى ـ أوربى، مع فارق أن الحلفاء الغربيين، أشركوا فى هذه الحرب الشعوب التى كانت خاضعة لهم. فإنزال البروفانس مثلاً، ضم ٧٠ ٪ من عناصره جنودًا مغاربة (ونسبة قتلى المغاربة إلى نسبة القتلى الآخرين أعلى بكثير)، وكان

الهدف تحرير فرنسا... وجرت الحرب الأمريكية ـ اليابانية فى السياق نفسه، إذ لم تكن حربًا بين حضارتين، إنما بين خصمين يطوران نفس النظام الصناعى، وقد اختصما بهدف السيطرة على المحيط الهادى وعلى غزو الأسواق. ولم تتداخل الحربان عسكريًا أبدًا، فقد تخيّل هتلر ـ كى يبعد الولايات المتحدة إلى أقصى زمن ممكن عن النزاع الأوربى ـ أن يشرك اليابانيين؛ كى يحقق بعد ذلك محور برلين ـ روما ـ طوكيو.

يعتقد هانتجتون فى إطار ما يسميه "بالحرب الحضارية" أن الحرب الثالثة إذا ما انفجرت، ستكون من نوع جديد، إذ لن تكون نتيجة تنافس الأوربيين، فيما بينهم، بل مجابهة بين حضارتين: حضارة المركز (الغرب)، وحضارة المحيط (بلدان الاستعمار القديم)، كما يعطى لهذين الطرفين مفهومًا دينيًا: وهو الصدام بين حضارة "يهودية مسيحية" وبين حضارة "إسلامية كونفوشية". ولئن طرحت المشكلة بشكل سيئ، إلا أنها مشكلة حقيقية: فبعد انهيار الاتحاد السوفيتى واستبدال "الشيطان السوفيتى" بـ "الشيطان الإسلامى" وحلفائه المحتملين ممن نطلق عليهم اسم العالم الثالث، ثم تدمير العراق "كى يكون مثالاً للآخرين"... نتسائل هل ستحقق الولايات المتحدة حلمها فى بسط نظامها الخادع "للسوق الحرة" على العالم كله؟ وبمعنى ما ـ وهو ما شرحته فى كتابى "نحو حرب دينية" ـ هل سيكون تصادمًا حضاريًا؟ إن وحدانية السوق ستضطر أن تحطم كل أولئك الذين يريدون الاحتفاظ بنظام آخر من القيم غير القيم التجارية، والذين يدافعون عن هويتهم، ويدافعون عن معنى الحياة.

إن النقطة الحساسة فى حدود الإمبراطورية الأمريكية "وهى ما كانت تسمى فى زمن الإمبراطورية الرومانية "بعتبة الإمبراطورية" وهى "الخليج العربى": لأنه محاط بأحواض البترول الأغزر فى العالم، وسيبقى لعشرات السنين "عصب التنمية الغربية"، فوق هذه العتبة تحقق لوحدانية السوق أحدث نصر، إذ جرى تدمير العراق عبر حرب خاضتها الولايات المتحدة بتأثير جماعتى ضغط فى الولايات المتحدة دفعتاها لفتح نار المعركة، وقد حددهما ألين بيريجيت فى جريدة "الفيجارو" عدد ٥ نوفمبر ١٩٩٠ بأنهما:

١ ـ اللوبى اليهودى.

٢ ـ لوبى رجال الأعمال.

وفوق هذه النقطة الحساسة من حدود الإمبراطورية الجديدة، لا تتوقف إسرائيل عن لعب الدور الذى رسمه لها مؤسسها تيدور هرتزل، وهو أن تكون "حصنًا متقدمًا" للحضارة الغربية ضد "بربرية الشرق"... أما البرنامج الأكثر دقة لدور إسرائيل فقد ظهر جليًا فى فبراير ١٩٨٢ أى قبل غزو لبنان بقليل، فى مجلة كيفونيم التى تصدرها المنظمة الصهيونية العالمية: وهو تفتيت كل الدول المجاورة من النيل حتى الفرات. وهى الطريقة الأفضل التى تستجيب لأطماع الهيمنة العالمية للولايات المتحدة. فى الموضع الأكبر حساسية على حدود إمبراطوريتها.

كما فرضت على الشعب العراقى إجراءات حرمان مميت، من خلال الحظر الذى يستمر فى القضاء على الأطفال فى محاولة لسرقة حتى مستقبل هذا البلد... لقد جرى تحديد الهدف الجديد فى مؤتمر شرم الشيخ عام ١٩٩٦ (!)، وكانت الحكومة الإسرائيلية هى التى حددت الهدف: "محاربة الإرهاب" و"التدخل الإنسانى"... هذان هما الادعاءان الجديدان المتكاملان للاستعمار الجديد... وحدد شمعون بيريز ودون أن يمتلك أدنى دليل إيران بأنها "مركز الإرهاب الدولى".

ومن المتفق عليه أن كلمة الإرهاب، تشمل كل أشكال مقاومة الشعوب دفاعًا عن استقلالها، مع استبعاد كل أشكال الإرهاب التى تمارسها الولايات المتحدة التى تهدد استقلال هذه الشعوب. وعلى سبيل المثال، يزعمون أن مقتل جندى إسرائيلى فى الجزء المحتل من جنوب لبنان، بمعنى أن يُقتل محتل من قبل المقاوم كما حدث فى الماضى فى فرنسا أيام الاحتلال النازى، هو عمل إرهابى، أما مذبحة المدنيين فى قانا والقصف الإسرائيلى الذى وصل حدود مدينة بيروت فهو "دفاع مشروع"، تمامًا كما هو "مشروع" تصفية النازيين لأربعين من رجال المقاومة فى شاتوبريان انتقامًا لمقتل ضابط ألمانى فى باريس... وعندما سقطت طائرة

أمريكية فوق أولمبياد أتلانتا، وقبل إجراء أى تحقيق، وجهت أصابع الاتهام إلى إيران، ورغم ضغط وكالة المخابرات المركزية على وسائل الإعلام، لم يثبت من خلال المعاينة الميدانية أى دليل على صدق هذا الادعاء.

من السهولة بمكان أن نورد العديد من الأمثلة لاختلاق المزاعم المتصلة "بالمعركة ضد الإرهاب" أو "التدخل الإنسانى" و"الدفاع عن حقوق الإنسان"؛ لتبرير الاعتداءات المباشرة على الدول المتهمة ووضع العراقيل فى وجه التعامل التجارى معها... لقد تذرعوا بـ "تيان آن مين" (ميدان فى بكين) لكبح نمو العلاقات الاقتصادية مع الصين، ولكن مقتل ألفى لبنانى مدنى فى مذبحة قادها آريل شارون عام ١٩٨٢، لم تكن كافية للحد من الدعم الأمريكى لإسرائيل بالسلاح والمال، باعتبارها رأس حربة لوضع اليد على كل بترول الشرق الأوسط.

وإنه لأمر ذو مغزى أن الحاخامات الأكبر تطرفًا والأكثر شوفينية إنما تجدهم فى الولايات المتحدة: حيث تعيش الجماعة اليهودية الأكثر أهمية فى العالم، بل إنها أكثر أهمية حتى من المجتمع الإسرائيلى نفسه. أما المحاربون القوميون الأكثر تعصبًا فهم الحاخامات الذين تربوا فى المدارس التلمودية التى أسسها الحزب القومى الدينى برئاسة الحاخام الأمريكى "زفى يهودا كوك" (١٨٩١ ـ ١٩٨٢) والتى كانت مبادئها الرئيسية كما يلى "يتابع الله عمله للخلاص عبر المعجزة التالية: وضع كل هذه الأراضى تحت السيادة اليهودية. كل الأرض التوراتية اليهودية مقدسة، إنه تكليف إلهى: حماية الأرض وإلحاقها، وبناء أكبر عدد ممكن من المستوطنات اليهودية فيها... وكل تسوية إقليمية إنما تؤخر زمن الخلاص".

أما المجموعة الثانية من الحاخامات الأمريكان والمعروفة باسم "لوبافيتش" التى تستوحى أفكارها من حاخام بروكلين العجوز، اليعازر مزراحى، فتعلم أتباعها بكل صراحة، أنه يحرم على الشعب اليهودى أن يتخلى عن أصغر كسرة من أرض إسرائيل الكبرى إلى العرب، وكذلك يحرم التفاوض معهم حول هذا الأمر.

تمثل إيران العقبة الرئيسة فى هذا المشروع، وبخاصة أنها تقيم علاقات طبيعية مع باكستان والهند والصين وروسيا، وحديثًا مع تركيا... وتتابع إيران مسيرتها على الرغم من التعليمات الأمريكية بفرض حصار عليها، وتشكل إيران مركزًا محتملاً لإعادة تجميع أجزاء كبيرة من الجزيرة الآسيوية الأوربية فى مواجهة أطماع حلف الأطلسى... ويمكن فى ضوء هذه الحقيقة، تفسير الجهود التى تبذل فى إطار الاستراتيجية الأمريكية تجاه العالم لتأمين كل الإمكانيات لتطوير السلاح النووى الإسرائيلى، رغم رفض إسرائيل لأى رقابة دولية على نشاطها النووى... إن نقطة الضعف الإسرائيلية فى هذه الإمبراطورية، هى فقدانها للروح، ونعنى بذلك فقدانها لأى مشروع تعاونى من أجل مستقبل الإنسان إلا تنمية إنتاجها واستهلاكها من خلال تفوقها بالسلاح.

هذا هو السبب الذى اضطر معه هانتجتون لأن يقيم أفكاره على قاعدة التعارض المزعوم بين الحضارة اليهوية ـ المسيحية و"التواطؤ الإسلامى ـ الكونفوشيوسى" (وهو الوريث لأقدم الحضارات فى العالم من دجلة إلى سورية إلى الصين، وقد اعتبر المؤرخ توينبى أن النطاقين السورى والآسيوى المركزى هما مركز الحضارة فقال "فى سورية أخذت المسيحية شكلها الذى انتشرت من خلاله فى العالم الهلنستى كله، وفيما بين النهرين تشكلت النسطورية ومذهب الطبيعة الواحدة، وفى الحجاز جنوب سورية ظهر الإسلام فى مكة، وفى الحدود الشرقية لشمال الجزيرة العربية ولد المذهب الشيعى)".

إن تحديد هانتجتون السابق للقطبية فى العلاقات الدولية، إنما كان تمهيدًا لنشر تعبير "العولمة" الاستعمارية للاقتصاد، على جثة الهويات الثقافية أو الدينية لكل الحضارات الأخرى... إن أمريكا مشغولة بتفتيت مراكز المقاومة لإمبراطوريتها الكونية، ويظهر ذلك الآن جليًا فى الكرة الأرضية كلها عبر للصراعات الإقليمية، فهى تحرض كوريا الجنوبية ضد كوريا الشمالية، وتايوان ضد الصين. والهند ضد الباكستان، وكذلك البوسنة ضد الصرب؛ لتبرير تدخلها العسكرى على ما كان يعرف بالحدود بين الإمبراطوريتين العثمانية

والنمساوية. وفى أمريكا الجنوبية تغذى الخلافات بين كوبا والبلدان الأخرى فى أمريكا الجنوبية.

وتعتبر "خطة السلام" المزعومة فى فلسطين النموذج الأكثر تعبيرًا عن المناورات الأمريكية، فهذه الخطة لا تقدم للفلسطينيين إلا غبار ما كان يتمتع به المواطنون السود فى التنظيمات الإدارية فى ظل نظام التمييز العنصرى فى جنوب إفريقيا "البانتوستان" ويمثل أقل من ٦ ٪ من الأرض الفلسطينية محاطًا بطرق تصل المستعمرات الإسرائيلية بحماية الجيش الإسرائيلى. وقد اخترع بيغن هذا التفتيت تحت اسم الحكم الذاتى، وتابع خلفاؤه تنفيذه بسعى حثيث... إن الهدف هو زرع نصف مليون يهودى مستوطن والاستيلاء على الأرض والماء.

وقد بدا هذا التحدى مجزيًا للمعتدين؛ لأنه لم ينجح فى تقسيم الفلسطينيين فحسب، بل أيضًا فى انقسام العالم العربى بكامله حول الموقف الواجب اتخاذه حِيال هذه المناورات التقسيمية الكبرى.

ويعبر التناقض الرئيس فى العالم المعاصر، عن نفسه بمنتهى الجلاء فى خلق الانقسامات إلى أقصى حد. والخبث الأكبر فيما يسمى الدفاع عن الديموقراطية وعن حقوق الإنسان... وهناك، وكما يجرى فى فلسطين، كانت المشكلة الدينية هى التى دُفعت لتحتل المرتبة الأولى. ويتطلب الأمر النضال ضد الحملة العالمية التى تشن باسم ديانة لا يجرؤ أحد على تسميتها وهى ديانة "وحدانية السوق" التى تصطدم، عندما يتطلب الأمر، مع ديانات محددة مثل الإسلام فى آسيا وأفريقيا، ومثل الحركات اللاهوتية التحريرية فى أمريكا الشمالية أو الجنوبية (٤).

لو أن الإسلام بدل أن يتمرس خلف ماضيه، استعاد المفهوم القرآنى حول وحدانية الأديان منذ أن نفخ الله روحه فى آدم، مع شريعة تشكل قاسمًا مشتركًا لكل أشكال الإيمان والحكمة على مستوى العالم كله... وبكلمة أخرى لو أنه تم الجمع بين أصالة القرآن فى فقه التحرير، مع أصالة رسالة يسوع بعد قرون من

لاهوتيات الهيمنة، لاطمأنت هذه الجبهة العالمية إلى انتصارها على عالم بلا روح تسوده وحدانية السوق... هذا هو مدى اتساع الدراما التى تُلعب على مستوى الكوكب الأرضى فى كل المستويات: الثقافة والإيمان، وكذلك السياسة والاقتصاد.

إشارة أخرى كاشفة: ففى مؤتمر سياتل عام ١٩٩٥، وحيث حاولت الولايات المتحدة إملاء أوامرها بقبول أهدافها فى "سوق عالمية"، انسحب القادة الآسيويون الرئيسيون، حتى إن رئيس وزراء ماليزيا وهى إحدى الدول المؤسسة لمنظمة "آسيان"، رفض أن يتابع أعمال المؤتمر تعبيرًا عن احتجاجه على سياسة التدخل الأمريكى... فى عام ١٩٨٢، بنت الصين مركزًا للأبحاث النووية فى أصفهان بإيران فى محاولة لوضع عقبة فى وجه حرب وقائية ضد إيران، على غرار تدمير إسرائيل مفاعل تموز النووى فى العراق، فى الوقت الذى كانت تبنى هى سرًا ترسانتها النووية، إلى أن كشفت اعترافات الفيزيائى الإسرائيلى مردخاى فانونو فى جريدة لندن صاندى تايمز، فى ٥ نوفمبر عام ١٩٨٦، عن خطورة هذه الترسانة القادرة على محو كل المدن وصولاً إلى السد العالى فى مصر.

وتضم المجموعة النووية الإسرائيلية، إضافة إلى مفاعل بلوتونيوم فى ديمونة، مركز البرمجة النووية فى مورك "حيث يوجد فيه مفاعل أمريكى تجريبى"، وحقل اختبار صواريخ بالميكى، ومعمل تجميع فى يوديفات وقواعد تخزين الأسلحة النووية التكتيكية فى كفار وزاخريا، وإيلابون... وما زال فانونو، منذ ذلك الحين، فى السجون الإسرائيلية، بينما تستنكر الحكومة التجارب النووية فى الصين، والهند، وباكستان، وكازاخستان التى ورثت جزءًا من السلاح النووى السوفيتى، وإيران.

وقد تحولت أمريكا من دائن رئيس إلى مدين رئيس؛ حيث أصبحت استثماراتها الأقل فى العالم الصناعى على الرغم من قوتها الآتية من تقنية ضغط الزر، ومن جيشها الذى لا يحركه أى مشروع إنسانى، ولا يحلم، شأنه شأن البنتاجون، إلا بحروب يكون فيها الهلاك "حتى الصفر".. وتظهر هذه البلاد التى يريد قادتها أن يصبحوا سادة العالم، كجبار بقدمين من صلصال، بسبب هشاشته

الاقتصادية المموهة بالمضاربات المالية التى حولت المصارف إلى كازينوهات؛ حيث تضاعفت إفلاساتها بعد إفلاسات صناديق التوفير بها.

لهذا السبب، تراهن الولايات المتحدة، ولو لزمن، على سياسة التسليح لمواجهة صعود عمالقة آخرين. ليس فقط بالتسليح المبالغ فيه لمرتزقتهم الرئيسيين فى الشرق الأوسط مثل إسرائيل، ولكن أيضًا لتأخير بزوغ الصين. وفى الوقت الذى تبحث فيه إنجلترا عن المراوغة فى إعادة هونغ كونغ إلى الصين، فإن الولايات المتحدة تقوم بتسليم طائرات إلى تايوان بقيمة ٤,٥ مليار دولار، فى الوقت ذاته الذى باعتها فرنسا فيه ستين طائرة ميراج.

كل ذلك يحدث لمنع الصين من التوحد مجددًا بسوقها الداخلية الذى حجمه مليار و ٢٠٠ مليون إنسان، ومصادرها الطبيعية الهائلة واليد العاملة الوفيرة... فى مواجهة مرحلة "القصور الحرارى" التى دخلتها الولايات المتحدة، أى مرحلة التفكك الداخلى بسبب النمو البائس لأمريكا الأخرى؛ حيث يعيش ثلاثة وثلاثين مليون مواطن تحت خط الفقر، وحيث التفتت الاجتماعى الناتج عن التمييز العنصرى الممتد عبر القرون، وبشكل خاص ضد السود؛ وحيث الانحلال الاجتماعى بسبب المخدرات والفساد، وحيث المضاربات المالية الطفيلية.

مرة أخرى نقول، لقد استطاع نظام "المركزى الإمبراطورى" الذى يسعى عبر القوة التقنية الفريدة لأسلحته، أن يجعل من سيادة دول "المحيط" سيادة محدودة، وأن يحتكر لنفسه حق التدخل فى هذه الدول مموهًا ذلك، عند الإمكان، بأنه تدخل إنسانى تحت غطاء مؤسسات يفتعلها مثل الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولى والبنك الدولى... ولن نورد هنا إلا ما يشكل، فى يومنا هذا، المدماكين الأكثر صلابة لـ "وحدانية السوق" وهما المخدارت، والسلاح:

- يبلغ حجم التعامل بالمخدرات فى الولايات المتحدة اليوم، من الضخامة ما يعادل أرقام التعامل فى صناعة السيارات أو صناعة الفولاذ، ويزداد استهلاك المخدرات طردًا مع فقدان الحياة لمعناها نتيجة للبطالة والتسريح وأمور أخرى.

إن الغاية النهائية للحياة هى الاستهلاك الذى يخلق ازدهار "السوبر ماركت". وإنه لأمر ذو دلالة أن الرقم القياسى لانتحار اليافعين، سجلته الدول الأكثر غنى: الولايات المتحدة والسويد... وفى الجنوب يموت الناس بسبب نقص وسائل العيش أما فى الشمال فيموتون لانعدام غايات الحياة.

ويعتبر الاستهلاك المتزايد للمخدرات أحد النتائج الطبيعية لوحدانية السوق: أولاً، بسبب إنتاجها، إن الريح الذى تدره نبتة الكوكا التى يستخرج منها الكوكاين على الفلاح البوليفى، أكبر بعشر مرات من ربح نبتة الكاكاو أو البن، وهى وحدها القادرة على السماح له بالحياة، كما أن الدولة ملزمة بتسديد ديونها لصندوق النقد الدولى. ونتيجة لاستهلاك المخدرات، تعانى الولايات المتحدة ثلاثة ملايين مصاب بالتسمم المزمن، أما الذين يتعاطون المخدرات فيقدر عددهم بعشرين مليون أمريكى... أما فى فرنسا واستنادًا إلى تقديرات مؤسسة سوفر، فقد تناول المخدرات فرنسى واحد من أصل خمسة تتراوح أعمارهم بين ١٢ و ١٤ عامًا، وقد أصبحت المخدرات بخور "الكنيسة الجديدة" التى هى وحدانية السوق. ويعطينا الاتحاد السوفيتى معنى كبيرًا، فمنذ العودة إلى الرأسمالية انفجر إنتاج واستهلاك المخدرات، وتضاعفت مساحة الأراضى المزروعة بالخشخاش فى أوزبكستان خلال عامين فقط (١٩٩١ ـ ١٩٩٣). أما أفغانستان، فقد أصبحت منذ عام ١٩٩٣ البلد الأول المنتج للأفيون، فقد تضاعف إنتاجها ثلاث مرات.

ـ أما فى ميدان السلاح، فقد استمرت صناعته الأكثر ازدهارًا فى الولايات المتحدة، وجعل منها القوة الأولى فى العالم منذ انتهاء الحرب العالمية الأولى. وقد حملت الحرب العالمية الثانية، والتى أصبحت الولايات المتحدة ـ بفضلها تملك نصف ثروة العالم ـ حلاً نهائيًا للأزمة الاقتصادية فيها والتى بدأت عام ١٩٢٩... كما أدت الحرب الكورية إلى ازدهار اقتصادى جديد... أما مجزرة العراق، فقد أدت بما رافقها من انتشار النقل الحى عبر القنوات الفضائية، إلى صقل سمعة الأسلحة الأمريكية؛ حيث ارتفع الخط البيانى للإنتاج بعد انتهاء الحرب بشكل رأسى.

- وهناك نتيجة طبيعية أخرى لوحدانية السوق: الفساد.

حدد آلن كوتا منطق هذا النظام بقوله: "إن تصاعد وتائر الفساد أمر لا يمكن تجنبه نتيجة انطلاق النشاطات المالية والسمسرة، على الأخص عمليات الدمج والشراء المشبوهة والتى تسمح بتكوين ثروات ببضع دقائق، من المستحيل تكوينها من خلال عمل حقيقى كثيف يستمر حياة كاملة، ويضيف: "إن الاقتصاد التجارى سيلقى دعمًا دائمًا من هذه السوق الأساسية التى يلعب الفساد فيها دورًا شبيهًا بالخطة"... وليس هناك كلام أفضل من هذه العبارات فى نظام يباع كل شىء فيه ويشترى، ويتحول فيه الفساد، بل وحتى الدعارة، ليصبحا قانونين بنيويين فى صلب هذا النظام، بدلاً من كونهما مجرد انحرافات فردية... والعهر السياسى هو المثال الأكثر فضحًا... فالبعض أيد حرب الخليج من أجل حفنة من الدولارات، والبعض برر نزول عشرات الألوف من الجنود الأمريكان إلى أرض مقدسة فى الحجاز ودفع نفقاتهم، بتبريرات واهية.

هذه هى الظواهر التى تحدد انحطاط النظام؛ حيث تدر المضاربات أكثر بكثير مما يدره الاستثمار الطبيعى فى ميدان الإنتاج أو الخدمات... وتحمل كلمة المضاربة معنى محددًا كالذى سجله معجم روبرت فى التعريف التالى: المضاربة عملية مالية تتضمن الاستفادة من تقلبات السوق "حركة القيم والبضائع" من أجل تحقيق منفعة.

وقد لاحظ آلياس - الحائز على جائزة نوبل فى الاقتصاد - أن التدفق المالى يرتفع فى المتوسط إلى ألف ومائة مليار دولار فى اليوم، أى أربعين مرة أكبر من التدفق المتصل بالقواعد التجارية الطبيعية. إن نظامًا كهذا لا يمكن الدفاع عنه (آلياس: الغرب على حافة الهاوية - مقابلة فى جريدة الليبراسيون فى ٢ آب ١٩٩٩).

تشير هذه الحقائق أن النظام القائم لـ "وحدانية السوق" يحقق للمرء ربحًا فيما لو دخل ميدان المضاربة بالمواد الأولية (أى أوراق النقد وصكوك البورصات

أو ما يدعوه الاقتصاديون "المنتجات المشتقة". وهى كل ما لا يؤخذ فى الحسبان عند تعداد المنتجات أو الخدمات) أكبر أربعين مرة مما لو عمل فى ميدانى الإنتاج أو الخدمات.

- آدم سميث (١٧٢٣ - ١٧٩٠): فيلسوف واقتصادى إنجليزى يعتبر مؤسس علم الاقتصاد الكلاسيكى، اشتهر بكتابه "دراسة فى طبيعة وأسباب ثروة الأمم". يعتبر هذا الكتاب المحاولة الأولى فى تاريخ الاقتصاد، الهادفة لفصل الاقتصاد السياسى عن العلوم السياسية والأخلاقية والدينية المتصلة به، ويتضمن تحليلاً عن عملية الغنى الاقتصادى وتوزيع هذا الغنى بين الأمم والأفراد... ويرى أن المصادر الأساسية لكل الدخول هى الإيجار والأجور والأرباح. كما درس تطور الصناعة والتجارة لدى الأمم الأوربية وطبيعة رأس المال. والموضوع الرئيس الذى صيغ باعتباره غاية لرأس المال من أجل إنتاج الثروة وتوزيعها، هو غياب التدخل الحكومى، ووجود حرية التجارة... ويرى سميث أنه بالإمكان تشجيع الإنتاج والتبادل وبالتالى تحسين مستوى المعيشة فقط، من خلال النشاط الفعّال لرجال التجارة والصناعة على أن يعملوا فى ظل أقل ما يمكن من سيطرة الحكومة وتدخلها.

وقد شهدت هذه النظرية تعديلات مهمة من قبل اقتصاديين متعددين، على ضوء التطورات التى طرأت منذ زمن سميث، ولكن نظريته - مع ذلك - لعبت دوراً كبيراً فى رسم هيكل الرأسمالية. (موسوعة فانك رواجنل).

- تشير دراسة أجرتها وزارة الصحة الأمريكية، أن استخدام المهدئات عند المراهقين فى سن ١٢ - ١٧ عامًا، قد ازدادت ٧٨ ٪ ما بين عامى ١٩٩٢ و ١٩٩٥. وقد ارتفع استهلاك حبوب الهلوسة مثل حبوب ل. س. د إلى ١٨٣ ٪ (٥٤ ٪ ما بين عامى ١٩٩٤ و ١٩٩٥)، وارتفع استهلاك الكوكايين إلى ١٦٦ ٪ والماريجوانا إلى ١٠٥ ٪ ٣٧ ٪ ما بين عامى ١٩٩٤ و ١٩٩٥.

واعترف ١٠,٤ ٪ من الشباب الأمريكى من الشريحة العمرية نفسها أنهم تناولوا المخدرات خلال الشهر السابق على الاستطلاع الذى أجرته وزارة

الصحة... وتدل دراسة أخرى رسمية أيضًا، أن حالات الإسعاف التى سجلتها المستشفيات بسبب الإسراف فى تعاطى المخدرات قد ازدادت ٩٦ ٪ فى حالات تعاطى الكوكايين.

٤ ـ من الملاحظ أن عودة الرأسمالية إلى بلدان شرق أوربا، قد رافقها ارتفاع مجنون فى انتشار البغاء.

لكى نفهم لماذا نعتبر انتشار طراز الحياة الأمريكية "وأوهامها"، أحد الأسباب الحقيقية لتفكك الأخلاق وانحدار الفنون فى يومنا هذا، نجد من الضرورى أن نضع هذه المشكلة ضمن منظور التاريخ الأمريكى؛ لأن انحطاط الثقافة الذى يلعب دورًا منظمًا فى حياة المجتمع الأمريكى، إنما ينحدر من طبيعة تاريخ الولايات المتحدة.

لقد لعبت الثقافة والأيديولوجيات فى أوربا ـ دومًا ـ دورًا مهمًا فى الحياة السياسية، كما جرى على سبيل المثال فى أوربا المسيحية وفى عصر التنوير، وفى عصر الثورة الفرنسية، وفى عقود القوميات، والماركسية وثورة أكتوبر.

أما فى أمريكا، فخارجًا عن الهنود، السكان الأصليين الذين نظمت حضارتهم علاقاتهم الاجتماعية "قبائل الأنكا مثلاً"، والذين فقدوا ٨٠ ٪ من عددهم بسبب التصفية العرقية، ثم هُمش من بقى منهم وزُج فى "محميات". فإن كل السكان الذين يعيشون فى الولايات المتحدة هم من المهاجرين.

ومهما كانت أصول هؤلاء المهاجرين، وحضاراتهم الأولى، فقد جاءوا إلى أمريكا بحثًا عن العمل وكسب المال. وسواء أكانوا أيرلنديين أم طليان، أم عبيدًا سودا غُربوا عن مواطنهم الأصلية قسرًا، سواء أكانوا مكسيكيين أم من بورتوريكو، فقد جاء كل منهم يحمل معه دينه وثقافته. ولأنه لم يكن لدى هؤلاء المهاجرين والمهجرين ديانة أو ثقافة مشتركة، فقد كانت الرابطة الوحيدة التى تجمعهم، تشبه ما يربط بين أفراد فريق يعمل فى مشروع مشترك.

أما الولايات المتحدة، فهى تنظيم إنتاجى، تضبط عمله العقلية التكنولوجية والتجارية نفسها؛ حيث يشترك فيها المنتج والمستهلك فى غاية واحدة هى النمو الكمى للرفاه. أما الهوية الشخصية الثقافية والروحية أو الدينية فهى مسألة خاصة وفردية بشكل حازم، لا شأن لها فى آلية عمل هذا التنظيم ولا تتدخل فيها.

ولا يستطيع الإيمان بمعنى الحياة أن يعيش فى مثل هذه البنى الاجتماعية، إلا لدى الجماعات التى حافظت على هويتها وثقافتها القديمة، أو لدى بعض الأفراد ممن تغمرهم روح البطولة. أما الغالبية العظمى من هذا المجتمع، فقد مات الله عندها؛ لأن الإنسان فيه قد بتر عن بعده الربانى، وهو البحث عن معنى الحياة.

وهكذا أصبح المكان خاليًا ليحل فيه تشرذم الطوائف والخرافات، وتسرب المخدرات، وسموم الشاشة الصغيرة.. كل ذلك تحت غطاء رسمى، يرضى بكل أنواع التمييز ويبرر كل المجازر.

إن أول مراقب نافذ البصر لواقع الولايات المتحدة، كان توكفيل الذى كشف عام ١٨٤٠ فى كتابة "الديموقراطية فى أمريكا" عن الآلية الحتمية لبناء الدولة قائلاً: "إنى لا أعرف شعبًا يحتل فيه حب المال حيزًا كبيرًا من قلوب الناس أكثر من هذا الشعب، شعب يشكل تجمعًا من المغامرين والمضاربين"، وما زلنا اليوم قادرين أن نجد فى تاريخهم أسس انحطاط ثقافتهم.

فمن جهة العلاقة بالطبيعة، لم تأخذ كلمة "الحدود" وعلى مدى قرن كامل، نفس المعنى الجغرافى نفسه الذى أخذته فى أوروبا. كان الحيز المكانى بالنسبة إليهم امتدادًا مفتوحًا وبقى كذلك حتى نهاية القرن التاسع عشر؛ حيث بلغ التوسع مداه بالوصول إلى المحيط الهادئ، عندها فقط أعلن عن "ترسيم الحدود"... كان هذا الفضاء الجغرافى مفتوحًا لكل أنواع السلب، وأشكال الإبادة: إبادة الغابات، والحيوان والإنسان، وأيضًا التنقيب المحموم عن مناجم الذهب والفضة.

أما العلاقة مع البشر الآخرين فكانت ذات طبيعة خاصة: فى البداية كان اصطياد الهنود للاستيلاء على أراضيهم، دون أن يترك لهم خيار غير خيار

التصفية العرقية أو التصفية فى "المحميات"، وبعد ذلك ساد بين البيض أنفسهم قانون الغاب لاقتسام ثروات الهنود المسروقة وأراضيهم، أو الذهب المأمول استخراجه!

أما ما يتعلق بمعنى الحياة، فقد تقلص إلى البعد الكمى للثروة أو الأرض أو ما فيها من كنوز... كانت حياة "الوسترن" و"الغرب الأقصى" ما عدا بعض الاستثناءات، تضفى لبوس العظمة على هذه "الملحمة العنصرية" وسيادة قانون الأقوى فى الحرب التى شنها الجميع ضد الجميع. أما البيوريتانية المسيحية، فلم تلعب أى دور فى العلاقات الاجتماعية القائمة آنذاك إلا دور التبرير.

ويشكل العنف الذى يرعاه نفاق دينى واضح وثابت فى تاريخ الولايات المتحدة منذ تأسيسها، أكثر الأفعال دموية... وقد حمل البيوريتانيون الإنجليز الذين نزلوا أمريكا، حملوا معهم الاعتقاد الأشد فتكًا فى تاريخ الإنسانية، وهو الاعتقاد بفكرة "الشعب المختار" الذى أعطى الشرعية لعمليات استئصال السكان الأصليين واغتصاب أراضيهم، وكأنه أمر إلهى اقتداء بالنموذج التوراتى، نموذج "يشوع": حيث أوكل رب الجنود لشعبه مهمة ذبح السكان الأصليين فى بلاد كنعان (فلسطين) والاستيلاء على أراضيهم.

وتمامًا مثلما فعل الإسبان الذين وصفوا تصفية هنود جنوب القارة، بأنها عملية "تنصير"، فقد استلهم البيوريتانيون الإنجليز سفر يشوع فى مطاردتهم للهنود، وسرقة أراضيهم، وعمليات "الاستئصال المقدسة" على غرار ما ورد فى التوراة.

كتب أحدهم يقول بصفاقة: "من الجلى أن الله دعى المستعمرين إلى الحرب؛ حيث يركن الهنود إلى عددهم وأسلحتهم، يتربصون الفرص لارتكاب الشر، مثلما فعلت قبائل الأماليين، والفلسطينيين الذين تحالفوا مع آخرين ضد إسرائيل" (من كتاب ترومان نيلسون: بيوريتانيو ماساشوستس "من مصر إلى أرض الميعاد ـ اليهودية").

وغالبًا ما يصور "إعلان استقلال الولايات المتحدة"، فى ٤ يوليو ١٧٧٦، أنه تصور مسبق لإعلان "حقوق الإنسان والمواطن" فى فرنسا الذى صدر عام ١٧٨٩.. إلا أن إعلان الاستقلال هذا، هو ـ فى حقيقة الأمر ـ مثال مذهل للنفاق الذى توحيه كلمة "الحرية" حسب المفهوم الأمريكى.

ينادى الإعلان فى سطوره الأولى "يولد كل الناس متساوين، وقد وهبهم الخالق حقوقًا غير قابلة للتنازل عنها: حق الحياة، وحق الحرية، وحق البحث عن السعادة".

إلا أن "الحرية الأمريكية" تجلت بشكل آخر: الاحتفاظ بالرقيق الأسود قرنًا كاملاً بعد الإعلان. واحتاج الأمر حربًا أهلية لتضع عام ١٨٦٥ نهاية لما كانوا يسمونه حتى ذلك الحين "المؤسسة الخاصة"، أى بمعنى آخر "الرق". ومنذ تحرير العبيد لم يترك لهم مكان فى المجتمع، ولم يكن يسمح لهم بامتلاك واحد فقط من الستين آربانت "قياس فرنسى" المسموح به للبيض.

بعد ذلك، ولد إرهاب الجمعيات السرية مثل منظمة كوكلوكس كلان، أما قوانين السود فقد أبعدت العبيد القدامى عن الحياة السياسية، كما أبعدهم التمييز العنصرى عن المجتمع المدنى. وهكذا ورغم تضحيات مارتن لوثر كينج، تستمر التفرقة العنصرية إلى يوما هذا... وتفوح رائحة النفاق أكثر عندما يتعلق الأمر بالهنود، إنها المرة الأولى التى يظهر فيها بقوة ما سيصبح لاحقًا للمبدأ المحرك لكل الاعتداءات الأمريكية المستقبلية للولايات المتحدة فى العالم: وهو أن العدوان والتصفية العرقية، صورا مسبقًا على أنهما ردود فعل دفاعية... وقد وصف إعلان الاستقلال الذى نادى بالحرية والمساواة، وصف الهنود بـ "المتوحشين الذين لا يعرفون الرحمة والمعروفين بحبهم لإشعال الحروب وارتكاب المجازر".

من هذا المنطلق، تحدث الإعلان عن مجتمعات السكان الأصليين: كى يبرر مقدما المجازر واغتصاب الأرض بحجة "الدفاع المشروع". وهبط عدد السكان الهنود بحكم عمليات التصفية من عشرة ملايين إلى مائتى ألف فقط، وكأن الأمر

أن الهنود هم الذين غزوا أرض المستعمرين، لا أن المهاجرين من أوربا، هم الذين وفدوا ليغتصبوا أراضيهم ويدمروا حياتهم.

هكذا كانت السياسة الأمريكية الثابتة، منذ ذلك الحين، انطلاقًا من "الخطيئة الأولى" بحق الهنود والأرقاء السود.

قال سيمون بوليفار، أحد أبطال محاولات الاستقلال فى أمريكا اللاتينية فى أواسط القرن التاسع عشر: "يبدو أنه كتب على الولايات المتحدة أن تقوم بتعذيب وإذلال القارة باسم الحرية".

ويشهد توكفيل على بربرية المستعمرين تجاه الهنود الذين استخدموا أسلحة لا يمكن مقارنتها بأى مقياس بأسلحة الغزاة. ووصف بسخرية لاذعة وإنسانية دامية انتصار "الحرية"، تلك المسيرة المظفرة للحضارة عبر الصحراء قائلاً: " فى قلب الصحراء، وفى أواسط الشتاء: حيث كان البرد قارسًا جدًا، قام ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف بمطاردة الأعراق البدوية من الوطنيين الذين كانوا يفرون أمامهم، حاملين مرضاهم وجرحاهم، وأطفالاً ولدوا حديثًا، وشيوخًا على حافة الموت"، وتابع يقول: إن المشهد كان مثيرًا ومنحطًا ولم يمح من ذاكرتى أبدًا.

هكذا بدأ تاريخ "الشمال" فى "العالم الجديد"، كما صوره نعوم شومسكى فى كتابه "إيديولوجيا واقتصاد"... وفى عام ١٧٥٤ وصف بنيامين فرانكلين الناطق الرسمى البارز باسم التنوير، وصف "أب الأمة" بأنه الرجل الذى يطرد السكان الأصليين كى يفسح المكان لأمته.

وأعطى جورج واشنطن الدرس نفسه لقبائل الأيروكواس، عندما كلف جيشه بتدمير مجتمعها وحضارتها، وهما مجتمع وحضارة متقدمان نسبيًا بمقاييس عام ١٧٧٩، وكان يحاكم ضباطه وجنوده إن هم لم يبدأوا بقتل الأطفال السود أولاً؛ لأنهم خطر المستقبل!.

لم تشهد القرون المتعاقبة - إلا نادرًا - أن ينظر إلى مثل هذا النفاق والجبن الأخلاقى الواضح، بمنظار الإعجاب والاحترام.

وفى عام ١٧٨٩ وصف توماس جفرسون ما سماه "اتحادنا". بأنه المنطلق لإعمار كل أمريكا الشمالية منها والجنوبية.. وقال: "إنه لأمر حسن أن تبقى القارة بيد العرش الإسبانى، إلى أن يصبح مجتمعنا قويًا بما يكفى ليتمكن من التهام القارة قطعةً قطعةً".

أما جون كيترى آدامز مهندس الفكرة التى قادت إلى وضع "مبدأ مونرو" فقد وصف "الدومينيون" على أنه قارة أمريكا الشمالية. وقد أوضح فكرته بقوله: هذا هو قانون الطبيعة، وقد جرى تطبيق هذا "القانون" تطبيقًا واسعًا جدًا. فقد استخدمه آدامز من جديد فى القضية المتعلقة بالجهود الخائبة التى بذلتها الصين لمنع توريد الأفيون إلى بلادها انطلاقًا من الهند. وقد أدى فشل هذه الجهود إلى اندلاع حرب الأفيون. واستخدمت بريطانيا العنف لتقضى على المقاومة التى أبدتها الصين، باسم المبادئ السامية للتجارة الحرة. كانت المقاومة الصينية قد منعت الإمبراطورية البريطانية من الوصول إلى الأسواق الصينية عن طريق منع توريد منتجها الرئيس الذى قدمته للصين وهو الأفيون، ووصف آدامز محاولات الصين لمنع توريد الأفيون بأنه عمل ضد القانون الطبيعى.

وفى فترة أقرب إلينا، حدد وودرو ويلسون "واجبنا الخاص" تجاه كل شعب مستعمر، وهو "أن نعيد لهذا الشعب النظام والسيادة وندربه على القانون والتعود عليه وإطاعته". هذا يعنى من الناحية العلمية الخضوع لـ "حقنا" فى سرقة هذا الشعب واستغلاله. وشرح ويلسون باختصار الدور الذى تلعبه القوة الأمريكية فى هذا المشروع قائلاً: انطلاقًا من حقيقة أن التجارة ليس لها حدود قومية، وانطلاقًا من أن الصناعى يريد امتلاك العالم من أجل الأسواق، فان على علم بلاده أن يتبعه أينما ذهب، وعلى الأبواب المغلقة للأمم الأخرى أن تخلع، وعلى وزراء الولايات المتحدة أن يحموا امتيازات أصحاب رؤوس الأموال، حتى ولو أدى ذلك إلى انتهاك سيادة الأمم الأخرى المتمردة. يجب خلق المستعمرات أو الحصول عليها، بحيث لا نهمل أو نتغاضى عن أصغر زاوية فى العالم".

هذه العبارات الصادقة والفاجرة والكاشفة بسبب وقاحتها وصراحتها، تفصح عن حقيقية المثل العليا الأمريكية فى الحرية وتقرير المصير.

وقد طبق ويلسون عندما أصبح رئيسًا للجمهورية بعد بضع سنوات، عقيدته حول تقرير المصير. بغزوه المكسيك وجزيرة أسبانيولا التى تشكل تاهيتى وجمهورية الدومينكان. وقد قتل جنوده وسلبوا وأسسوا حالة شبيهة بالرق، ودمروا النظام السياسى، ووضعوا البلاد بين أيدى المستثمرين الأمريكيين.

وقد نشر روبرت لانسينج، وزير خارجية ويلسون، مذكرة شرح فيها معنى "مبدأ مونرو" ووصف ويلسون نشرها بأنه سوء تصرف سياسى، ولكن حيثياتها لا يمكن أن تهاجم.

قال لانسينج: "فى دفاعها عن مبدأ مونرو، إنما تدافع الولايات المتحدة عن مصالحها الخاصة. أما إنصاف الأمم الأمريكية الأخرى فهو مسألة إضافية، وليس غاية بحد ذاتها. وبقدر ما يبدو هذا المضمون مبنيًا بشكل فريد على الأنانية، فإن واضع هذا المبدأ، ليس لديه دافع أسمى أو أكثر أريحية ليقدمه".

ما كان استرجاع أشكال المخاتلة الأصلية فى الأسطورة الأمريكية ليحمل فائدة تاريخية كبيرة، لو لم يتطور هذا النظام السياسى بعد قرنين ليشمل العالم كله.

فحتى الحرب العالمية الأولى تركزت أعمال السلب فى القارة الأمريكية فقط. وكانت المشكلة آنذاك تتلخص بإعاقة سيطرة أوربا على الأرض والمؤسسات الأمريكية بالوسائل المالية أو غيرها.

كان تاريخ الولايات المتحدة فى القرن التاسع عشر، هو أولاً تاريخ إبادة الهنود، إذ جرى بين عامى ١٨٠٠ و ١٨٣٥، تهجير كل الهنود من حوض المسيسبى، فى ظروف تهجير وإسكان تذكرنا بعمليات التهجير الهتلرية... كما أبيد الآلاف من حيوان البيزون (البقر) الذى يقتاتون به، ومن صوفه يصنعون ملابسهم، ودمرت مساكنهم. ولم تتوقف المقاومة الهندية المسلحة إلا بعد ارتكاب مجزرة "ووندنى" عام ١٨٩٠. كان تاريخ الولايات المتحدة أيضًا تاريخ استغلال العبيد السود وبخاصة فى ميدان زراعة القطن.

هذه هى السمات الأساسية لسياستهم الداخلية. أما سياستهم الخارجية فقد هدفت لنزع يد إسبانيا والبرتغال عن "ممتلكاتهما" فى القارة؛ ليحل محلها توغلهم الاقتصادى وسيطرتهم السياسية والعسكرية، ثم طردوا بريطانيا بعد ذلك من الشرق الأوسط فى بدايات القرن العشرين، ليستغلوا بدلاً منها ثروته البترولية.

وقد حدد الرئيس مونرو فى رسالته إلى الكونجرس "٢ كانون الأول ١٨٢٣" القاعدة الأساس لهذه السياسة الهادفة لاستبعاد الهنود والزنوج وأوربا، قال فيها: للأوربيين القارة القديمة، وللأمريكان القارة الجديدة. واتخذ من تفجير بارجة فى ميناء هافانا، ذريعة لشن حرب ضد إسبانيا جرى بنتيجتها احتلال بورتوريكو والفليبين وكوبا.

أسال التدمير الأوربى المتبادل فى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ ـ ١٩١٨) أنهارا من الذهب، صبت فى الولايات المتحدة، التى هبت للنجدة عندما وصلت الحرب إلى نهايتها ولاحت أعلام النصر... وتحمل أسطورة المحررين الأمريكيين لأوربا تضليلا مزدوجًا:

ـ التدخل الأمريكى الذى جاء بعد ثلاث سنوات من اندلاع الحرب (عام ١٩١٧) لأن مصالح الفعاليات الاقتصادية الأمريكية تعرضت للخطر بسبب نسف البواخر الأمريكية التى واصلت متاجرتها خلال الحرب مع بريطانيا. وكذلك لأن الوزير الألمانى زيمرمان، وعد المكسيك بتشكيل حلف ضد الولايات المتحدة، سيعيد بنتيجة للمكسيك أقاليمها الضائعة "تكساس وأريزونا ونيومكسيكو"... وقد أدى تدخل ألقيصر كيسزر "صاحب أكبر مصانع للسفن فى الولايات المتحدة" إلى تبدل فى الرأى الأمريكى، لمصلحة إرسال حملة إلى أوربا (٤ أبريل ١٩١٧).

كلفت الحرب العالمية الأولى فرنسا مليون ونصف قتيل، وألمانيا أكثر من مليون وسبعمائة ألف قتيل. ومن الضرورى أن نقارن هذه الأرقام بعدد الضحايا التى نتجت عن المشاركة الرمزية للولايات المتحدة وهى فى كل الأحوال ضئيلة.

أما الرخاء الاقتصادى الذى شهدته الولايات المتحدة ما بين عامى (١٩٢٠ و ١٩٣٣)، فقد تحول إلى تهتك، مع نمو نشاط المافيات المتآمرة مع أجهزة الشرطة من خلال قانون منع الخمور الذى صدر عام ١٩١٩، والذى ازدهرت من خلاله الحانات غير القانونية، والملاهى وبيوت الدعارة السرية ونشاطات مهربى الخمور.

وقد شهدت أعوام (١٩٢١ ـ ١٩٢٤) إجراءات لكبح جماح الهجرة إلى الولايات المتحدة، وازداد نشاط عصابات الكوكلاكس كلان، ناشرة الرعب من جديد فى مناطق الجنوب. وحملت النوفينية المسيطرة، إلى الكرسى الكهربائى العديد من الأبرياء مثل ساكو وفانزتى، الناشطين الإيطاليين وأصبح الهم السياسى تحطيم أى نظام اجتماعى يتعارض مع التوغل الاقتصادى الأمريكى، وبكل وسيلة ممكنة. كما أصبح الاتحاد السوفيتى و"العدوى" التى يمكن أن ينقلها، العدو الرئيس. وهيمن رعب مماثل على أوربا الغربية. ولم يتردد القادة الأمريكان فى الاعتماد على أعتى الطغاة، باسم الدفاع عن الحرية، التى هى فى الحقيقة حرية الباب المفتوح للتوسع الأمريكى بلا حدود.

وفى الحرب العالمية الثانية، جرى الإنزال الأنجلو ـ أمريكى فى أوربا عام ١٩٤٤، وكان اليابانيون قد دمروا بشكل مفاجئ الأسطول الأمريكى فى بيرل هارير، بينما كان الأمريكيون يسعون لإنقاذ مصالحهم فى المحيط الهادئ أمام التوسع اليابانى الخاطف.

لم يتدخل الأمريكيون مباشرة ضد هتلر إلا فى ١٩ يونيه ١٩٤٤، عندما كان يعانى هزيمته الأولى فى كانون الثانى ١٩٤٤؛ حيث تحطم جيشه فى ستالينجراد، بعد أن خسر ٤٠٠ ألف جندى بينهم ١٤٠ ألف أسير.

كانت المقاومة فى أوربا، وطوال سنوات الحرب، قد قضمت الاحتلال الألمانى. وفى ذلك الحين كان هتلر قد حشد خيرة قواته (١٨٩ فرقة من أصل ٣١٥ فرقة) على الجبهة الروسية، و٣٨ فرقة على الجبهة الإيطالية و ٦٤ فرقة

على الجبهة الممتدة من النرويج إلى فرنسا. وأدى هذا كله إلى تشتت آلة الحرب الهتلرية.

وجاء إنزال يونيه ١٩٤٤ بعد قصف مرعب على التجمعات السكانية المدنية راح ضحيته ٥٧٠ ألف قتيل و٨٠٠ ألف جريح من المدنيين.

والمثال الأكثر دلالة على قصف المدنيين، هو قصف درسدن (١٣٥ ألف قتيل مدنى)، على الرغم من أن الزحف الروسى كان قد تجاوز المدينة، التى لم تعد لهذا السبب تشكل هدفًا عسكريًا. أما هيروشيما، فقد مسحت يوم ٢ أغسطس ١٩٤٥ من على الخارطة بفعل قنبلة ذرية، أودت بحياة ٧٥ ألف ضحية خلال ٤٢ ثانية فقط... ثم جاء دور ناجازاكى، بعد ثلاثة أيام من قصف هيروشيما فعاشت نفس المصير وخلال ٤٢ ثانية فقط أيضًا، مع أن الإمبراطور كان قد وافق على استسلام اليابان قبل إلقاء القنبلتين.

كانت الفكرة عن الشيوعية شاملة جدًا. ففى عام ١٩٥٥ توصلت مؤسسة وودرو ويلسون، بالاشتراك مع جمعية التخطيط القومى إلى تعريف للشيوعية أكثر ما يكون دقة: "يأتى الخطر الشيوعى من التحول الاقتصادى لبلد ما بشكل يضعف رغبته وقدرته فى أن يكون متممًا لاقتصاد الغرب الصناعى".

ولكى يتصدى القادة الأمريكان لمثل هذا التهديد، لم يترددوا، غداة الحرب العالمية الثانية فى حمل جنرالات النازية الجديدة إلى السلطة والتحالف معهم.

وكانت هذه السياسة، التى طبقت بعد الحرب الثانية فى كل أمريكا اللاتينية، قد طبقت سابقًا بعد الحرب العالمية الأولى. ففى عام ١٩٢٢، وصف السفير الأمريكى فى روما، مستذكرًا ذكرى مسيرة موسولينى إلى روما التى وضعت نهاية للديموقراطية فى إيطاليا، وصفها "بالثورة الشابة والجميلة"، وأوضح لماذا يرى "أن الفاشيست ربما يكونون العامل الأقوى فى كبح جماح البلشفية" وحظيت إيطاليا الفاشية منذ ذلك الحين بتعامل طيب من قبل الولايات المتحدة، وذلك عندما سويت مسألة ديون الحرب. ثم تدفقت الاستثمارات الأمريكية إلى

إيطاليا. وفى عام ١٩٣٣ تحدث تيودور روزفلت عن موسولينى واصفًا إياه "بالسيد الإيطالى الذى يثير الإعجاب". وفى عام ١٩٣٧، قيمت وزارة الخارجية الأمريكية الحركة الفاشية بأنها "أصبحت روح إيطاليا التى فرضت النظام فى قلب الفوضى والمبادئ فى وجه التجاوزات، وحلت مشكلة الإفلاسات".

ولم تغير إدانة غزو إيطاليا لإثيوبيا إطلاقًا من طبيعة العلاقات بين أمريكا وإيطاليا. وشرح السفير الأمريكى لونج أسباب ذلك بقوله: "دون هذا التوجه كانت أشكال العنف البلشفى ستظهر فى المراكز الصناعية. والمناطق الزراعية التى تسود فيها الملكية الخاصة".

وفى عام ١٩٣٧ اعتبرت وزارة الخارجية أن الفاشية تتوافق مع المصالح الاقتصادية الأمريكية، وبمعنى آخر مع المفهوم الأمريكى للديموقراطية.

وحدث الأمر نفسه مع هتلر. ففى عام ١٩٣٣ كتب القائم بالأعمال الأمريكى فى برلين إلى واشنطن "إن الأمل المعقود على ألمانيا، إنما يعلق على الجناح المعتدل فى الحزب الذى يقوده هتلر. الذى وجه دعوة تعاون إلى كل الناس المتمدنين والعقلاء".

ولأن "المحور" لم يهاجم الولايات المتحدة بعد بيرل هاربر، فقد استمر الموقف الأمريكى من الفاشية على حاله لم يتغير.

وبعد الحرب... تتابعت السياسة نفسها، ولكن بلباس جديد. ففى عام ١٩٤٣ شهد الجنوب الإيطالى تراجع قوات الدوتشى، بناء على إيحاء من تشرشل مدفوعًا بالخوف من شبح حصار بلشفى. وقامت الولايات المتحدة بدعم ملك إيطاليا الذى تعاون مع النظام الفاشى. وفرضت دكتاتورية المارشال بادرجليو، تمامًا كما فعل روزفلت عندما نصب عام ١٩٤٢ الأميرال دارلان وليس الجنرال ديجول. على الجزائر.

كان الهدف هو منع المقاومة ضد الفاشية من الوصول إلى السلطة. وكان الشيوعيون قد لعبوا دورًا حاسمًا فى صفوف هذه المقاومة.

قال ديفيد ماك ميشيل فى كتابه "أكاذيب عصرنا": منذ أن تسرب التقرير المعروف باسم تقرير بايك عام ١٩٧٦ إلى الكونجرس، بات معروفًا مدى تدخل وكالة المخابرات المركزية فى الحياة السياسية فى إيطاليا. وكان الأمر يتعلق بمبلغ خمسة وستين مليون دولار، قدمت كمساعدات مالية لأحزاب سياسية مرضى عنها، وإلى شركاء لها، وذلك بين عام ١٩٤٨ وبداية السبعينيات. وفى عام ١٩٧٦ سقطت حكومة ألدومورو فى إيطاليا، بعدما كشف أن وكالة المخابرات المركزية أنفقت ستة ملايين دولار لدعم المرشحين المعادين للشيوعية.

تلك هى كلمات وإحصاءات وتحليلات ووثائق روجيه جارودى الذى يتحدث من قلب الحضارة الغربية، ومن ثم فهو "شاهد من أهلها"، وتلك هى أحكامه المطمئنة عليها، والتى تقطع بأنها حضارة بالفعل والقول والتاريخ والوجدان.. فاجرة!

وفيما يلى بعض البيانات التى وردت فى دراسة نشرت على الموقع الإلكترونى Arabic@kanaanonline.org:

ـ ١١٦٤ مليار برميل هو إجمالى الاحتياطيات المؤكدة من البترول الخام فى العالم عام ٢٠٠٨، ويتركز ٥٨ ٪ من هذه الكمية فى الدول العربية، و٢٥ ٪ فى دول الأوبك غير العربية، والباقى فى دول أخرى.

ـ بلغ عدد سكان العالم ٧ مليار نسمة، ويمثل الأرز الغذاء الرئيس لنصف سكان العالم، ورغم صيحات الفزع التى يطلقها البعض، فإن الإنتاج العالمى يكفى لتغذية كافة السكان وحصول كل منهم على ٣ آلاف سُعر حرارى يوميًا، لكن سكان الدول الغنية يستهلكون ما قدره ٤ آلاف سُعر حرارى لكل منهم، مقابل ٢٥٠٠ سعر فى الدول الفقيرة، ويتم إتلاف ٣٠ ٪ من المنتجات الغذائية فى العالم، بسبب الترف أو المنافسات السوقية، أو خدمة الاحتكارات، أو الظروف السيئة لنقلها وتخزينها (تقرير الأمم المتحدة فى ٣١/ ١٠/ ٢٠١١).

ـ تعتبر الشركات النفطية المعولمة أكبر مستفيد من ارتفاع أسعار النفط، وارتفعت إيرادات شركة "توتال" الفرنسية بنسبة ١٥ ٪، وبلغت ٤٦,٢ مليار يورو،

رغم انخفاض إنتاجها من النفط والغاز، وزادت أرباحها بنسبة ١٧ ٪ خلال الربع الثالث من العام الجارى، وحققت أرباحًا بقيمة ١٠ مليارات يورو خلال ٩ أشهر، وتتوقع أن تفوق أرباحها الصافية ١٣ مليار يورو خلال سنة ٢٠١١، وستتعاظم أرباحها خلال السنة المقبلة بعد استئناف إنتاج النفط الليبى، واستغلال الحقل النفطى الضخم "Pazflor" فى المياه العميقة لسواحل أنغولا (أ. ف. ب. ٢٨/ ١٠/ ١١).

- بلغت إيرادات شركة "أديداس" (ثانى أكبر شركة عالمية فى إنتاج الملابس والتجهيزات الرياضية، بعد شركة "نايك") ٣,٧٤ مليار يورو خلال الربع الثالث من العام الحالى، وفاقت أرباحها ٤٤١ مليون يورو، وتتوقع أن تنمو إيراداتها وأرباحها سنة ٢٠١٢ بسبب "كأس الاتحاد الأوروبى" والألعاب الأولمبية فى لندن... وارتفعت قيمة أسهمها مباشرة بعد نشر هذه الأرقام (رويترز ٠٣/ ١١/ ١١).

المغرب فى خدمة الاقتصاد الفرنسى؟: ستقوم شركة "ألستوم" الفرنسية بإنشاء الخط الحديدى، والقطار الرابط بين طنجة والدار البيضاء، بتكاليف فاقت ٣ مليارات يورو، وكانت التقديرات الأولية لا تبلغ ١,٨ مليار يورو، ولم تخضع الصفقة إلى مناقصة أو منافسة مما جعل بعض رجال الأعمال وأحزاب المعارضة واقتصاديين يشيرون إلى ارتفاع التكلفة وانعدام شفافية هذه الصفقة، التى رفض المصرف الأوربى للاستثمار تمويلها، فالتجأت فرنسا إلى أصدقائها فى الخليج (السعودية، والكويت، والإمارات) لتمويل هذه الصفقة التى تستفيد منها "ألستوم"، وهى الشركة التى تعرضت لحملة مقاطعة بسبب مشاركتها فى تنفيذ السياسة الاستعمارية الاستيطانية للكيان الصهيونى، وربط مستعمرات الضفة الغربية بالقدس، بواسطة قطار من صنعها... يستورد المغرب من فرنسا ١٥ ٪ من حاجياته ويصدر نحوها ٢١,٥ ٪ من صادراته، وتوجد على أرضه ٧٥٠ مؤسسة فرنسية، تشغل حوالى ١٠٠ ألف عامل، ويعانى سكان المغرب الأمية (أكثر من ٣٥ ٪) والفقر والبطالة وضعف المداخيل (عن أ. ف. ب وصحف مغربية ٢٦/ ٢٨/ ١٠/ ١١) .

ليبيا... بيزنس مسلح: أصبحت منطقة "الزنتان" فى ليبيا، بعد الإغارة الأمريكية/ الأوربية/ العربية عليها، سوقًا مفتوحة للسلاح (لتجار المخدرات

وعصابات التهريب وجماعات الإسلام السياسى) بأسعار زهيدة، وهناك أيضًا أسلحة ثقيلة يتجاوز مداها ٤ كيلومترات، تباع للمهربين وتجار المخدرات (صحيفة "الشروق" - الجزائر - ٢٩/ ١٠/ ١١)... وبعد تخريب البلاد توافد الوزراء ورجال الأعمال من إيطاليا وبريطانيا وفرنسا وأمريكا، لعقد الصفقات بأموال الشعب الليبى الموجودة فى مصارفهم (١٧٠ مليار دولار)، إضافة إلى مداخيل النفط المقدرة سنويًا بثلاثين مليار دولار بعد عودة الإنتاج... ومن ضمن المؤسسات المزدهرة شركة "Sne Special Projects Ltd" وهى شركة أمنية بريطانية، مختصة فى الاستعلامات وتأمين تنقل رجال الأعمال والأموال والسلاح، يديرها مرتزقة نفذوا مهمات لصالح الجيش الصهيونى، ثم عملوا فى العراق وأفغانستان وباكستان والسودان ونيجيريا، وشاركوا فى عمليات المداهمة والاغتيال والتقتيل الجماعى، إضافة إلى جمع وإرسال المعلومات ونقل الأشخاص مقابل ٨٠٠ دولار لرحلة لا يتجاوز ثمنها ٥ دولارات فى الأوقات العادية... ولهذه الشركة فروع فى طرابلس وبنغازى ومصراطة منذ شهر مايو ٢٠١١، وتستخدم الحدود بين ليبيا وتونس ومصر لتهريب الأشخاص والسلاح والمعلومات... وتقوم الشركات الأمريكية "Scn Resources Group" و "Security Contracting Network" بمهمات خاصة لصالح بعض دول الحلف الأطلسى، مستعملة "المنظمات غير الحكومية" التى تعمل فى مناطق التوتر، بتمويل من بعض وزارات الدول المشاركة فى الحرب... تقوم هذه الشركات الأمنية بتسهيل السيطرة على مقدرات البلاد، بعد شل أجهزة الدولة وتخريب البنية التحتية (صحيفة المانفستو - إيطاليا - ٠١/ ١١/ ١١)... وقد قدر عدد القتلى الليبيين بـ ٧٠ ألفًا، إضافة إلى آلاف الجرحى والمحلات والبنى التحتية والطرقات التى خربت... وقد طلب حلف الأطلسى من "المجلس الانتقالى" تسديد فاتورة تكاليف الحرب وقيمتها ٤٨٠ مليار دولار، إضافة إلى إقامة قاعدة عسكرية لـ ٢٠ ألف جندى منهم ١٢ ألف أمريكيين... وبعد تخريب البنية التحتية، ومواقع نقل وتصفية النفط، ستضطر ليبيا إلى استيراد قرابة ٣ ملايين طن بحوالى ٣ مليارات دولار، وتتفاوض فى إسطنبول (صدفة؟) مع

الشركات النفطية المعولمة منها "توتال" و"بريتش بتروليوم" و "كونوكو فليبس" وشركات أخرى من إيطاليا وألمانيا وتركيا، لتوريد احتياجاتها من النفط، علمًا بأن الدول الإمبريالية التى خربت البلاد، لم تفرج بعد عن أموال البلاد المجمدة فى مصارفها، وقد استورد "المجلس الانتقالى" نفطًا بقيمة ١ و ٦ مليار دولار، بواسطة دولة قطر (عن موقع Ness Book ووكالة رويترز ٠٤/ ١١/ ١١).

الهند.. استغلال فاحش: أنشأت شركة السيارات اليابانية "سوزوكى" شركة "Maruti" فى الهند لصناعة سيارات رخيصة الثمن مخصصة للسوق المحلية، ولم تكن صناعتها ممكنة لولا الاستغلال الفاحش للعمال... يشغل أحد مصانعها فى مدينة مانيسار (ولاية هاريانا) أكثر من ثلاثة آلاف عامل، منهم ٩٧٠ عاملاً مثبتًا... ويبقى العمال تحت التأهيل" لفترة تفوق ٤ سنوات، وأعدت المؤسسة "قانونا داخليًا" ضمنته ١٠٣ عقوبات للعمال، من الغرامات المالية إلى الفصل من العمل عند ارتكاب ما تعتبره إدارة الشركة "مخالفة"... أضرب العمال سنة ٢٠٠٠ لمدة ٣ أشهر من أجل زيادة الرواتب، ومنذ ٢٠٠٧ قام عمال أكبر مصانع "ماروتى" بإضرابات عدة من أجل الحق فى تأسيس نقابات مستقلة عن إدارة الشركة، بهدف التفاوض حول العقد الجماعى للعمل، وتحالفت الشركة مع الحكومة المحلية فرفضت تكوين نقابة، وطردت المحرضين، وتراجعت عن قرار الطرد بعد إضرابات عديدة... يبلغ أجر العمال المثبتين بعد أقدمية تفوق ١٠ سنوات ٣٦٠ دولارًا شهريًا (ثلث هذاالراتب يغطى إيجار مساكن صغيرة معدة لهم)، ولا يمثل الأجر الأساسى سوى النصف، وتشكل المنح والحوافز التى يمكن حذفها فى أى وقت، نصف الراتب... وبلغ الراتب السنوى للمدير العام ٩٦ ألف دولار سنة ٢٠٠٧ و٥٠٠ ألف دولار سنة ٢٠١٠ بزيادة حوالى ٤٢٠ ٪ (أ. ف. ب. ٢٥/ ١٠/ ١١).

طاقة نووية: بعد تسرب الإشعاعات النووية من مفاعل "فوكوشيما" اليابانى وما سببه من أضرار بالبشر والطبيعة وبعد ارتفاع كلفة المفاعل الفنلندى، سوقت مجموعة "أريفا" (الفرنسية المعولمة) مفاعلاتها نحو الدول العربية (الجزائر، الأردن، السعودية والخليج، مصر...)، وبعد انخفاض سعر اليورانيوم فى الأسواق

وقرار ألمانيا إيقاف مفاعلاتها النووية بحلول سنة ٢٠٢٢، وجدت "أريفا" الفرصة سانحة لتوفير ٣٠ ٪ من المصاريف وتسريح ٤ آلاف موظف، من جملة ٤٨ ألف (منهم ٣٠ ألف فى فرنسا)... تنتج "أريفا" حوالى ٨٦٠٠ طنًا من اليورانيوم، تستخرج نصفها من النيجر، سادس منتج لهذا المعدن فى العالم، وأحد أفقر البلدان فيه!. وهى أكبر شركة عالمية للطاقة النووية والوحيدة التى تسيطر على كافة العمليات من الاستخراج إلى معالجة النفايات... واكتشفت الشركة الفرنسية مواقع جديدة لاستخراجه ليبلغ الإنتاج ٥ آلاف طن سنة ٢٠١٢ (مقابل حوالى ٤ آلاف طن حاليا ٢٠١١)، وعند ذلك ستصبح النيجر ثانى منتج لليورانيوم فى العالم، بعد كندا، لكن عائدات البلاد منه لا تتجاوز حاليًا ١٢٠ مليون دولار سنويًا، لتصبح ١٤٠ مليون دولار سنة ٢٠١٢.. كما تنتج النيجر حوالى ٢٠ طنًا من الذهب (تستغله شركة كندية) وحوالى ١٢ ألف برميل يوميًا من النفط، ستصبح ١٠٠ ألف برميل سنة ٢٠١٨.. ويبلغ عدد سكان النيجر حوالى ١٦ مليون نسمة، ثلثهم فى حالة نقص غذائى مستمر (!).. وقد بلغ الدخل القومى سنة ٢٠٠٩ حوالى ١٠ و ٥ مليار دولار، بمعدل ٧٠٠ دولار للفرد، وتمثل الفلاحة حوالى ٤٠ ٪ منه والصناعة ١٦ ٪ والخدمات ٤٤ ٪ (رويترز ٢١/ ١٠/ ١١) .

كوبا: أدانت الجمعية العامة للأمم المتحدة للمرة العشرين على التوالى، الحصار الأمريكى المفروض على كوبا، بـ ١٨٦ صوتًا ومعارضة أمريكا والكيان الصهيونى.. يستمر الحصار منذ ١٩٦٢، فترة رئاسة جون كينيدى، ويمنع دولاً أخرى من التصدير إلى كوبا... وتقدر الحكومة الكوبية الخسائر الناتجة عن الحصار بحوالى ١٠٥ مليارات دولار (أ. ف. ب. ٢٥/ ١٠/ ١١).

ويستمر الأستاذ الطاهر المعز فى مقالاته المتتابعة على موقع -ara bicc@kanaanonline.org عدد ٩٣ وما بعده:

ديمقراطية صندوق النقد الدولى: تأسس صندوق النقد الدولى سنة ١٩٤٤، ومقره واشنطن، ويضم ١٨٧ دولة، ويطبق سياسة التمييز والتفرقة، إذ لا تتساوى قيمة الدول داخله، بل تتناسب حصة كل دولة مع وزنها الاقتصادى الذى يقاس

بدوره بنسبة المساهمة فى ميزانية الصندوق، فبينما تملك أمريكا ١٧ ٪ من الأصوات، و" مجموعة السبعة " (الدول الأكثر تصنيعًا) ٤٥ ٪ من الأصوات وإذا أضيفت إليها الدول الصناعية الأخرى، تجتمع لديها ٦٠ ٪ من الأصوات، فإن القارة الإفريقية بكاملها لا تملك سوى ٣ أصوات، وقروض البنك مشروطة بالخصخصة وتخفيض نسبة الضرائب وميزانية الخدمات الاجتماعية، وفتح السوق أمام الشركات المعولمة والمصارف الكبرى... أما أمريكا التى تتجاوز ديونها ١٥ بليون دولار (أى أكثر من منتوجها الداخلى الخام). فلا أحد يراقبها أو يطالب بأن تكون تحت وصاية صندوق النقد الدولى (صحيفة "المانفستو" الإيطالية ٠٦/ ١١/ ١١)..

- اعتبر تقرير التنمية البشرية لعام ٢٠١١ النرويج أفضل دولة فى مجال التنمية البشرية تليها أستراليا ثم هولندا والولايات المتحدة ونيوزيلندا وكندا، بينما جاءت ١٥ دولة إفريقية فى مؤخرة الترتيب، منها: الكونغو الديموقراطية والنيجر، وبوروندى، وموزمبيق، وتشاد، وليبيريا، وبوركينافاسو، وهبطت مصر (أكبر دولة عربية) ١٢ مركزا وأصبح ترتيبها ١١٣، بعد أن كان ١٠١خلال السنة الماضية، وسجل التقرير (فى مصر) ارتفاع الأسعار والتكاليف ونقص الخدمات مثل التعليم والصحة، واستمرار تعميق الهوة منذ سنة ١٩٨٠... ويبلغ معدل نصيب الفرد فى مصر من الناتج المحلى الإجمالى ٥٢٦٩ دولارًا، ومتوسط العمر ٧٣ سنة، بينما يبلغ نصيب الفرد فى النرويج ٤٧٥٥٧ دولارًا سنويًا.. وبخصوص التفاوت الطبقى أو الفجوة بين الأغنياء والفقراء فإن أمريكا تأتى فى المرتبة الثالثة والعشرين وفرنسا فى المرتبة العشرين (رويترز ٠٢/ ١١/ ١١)...

مقارنات: يتذمر الأوربيون والأمريكيون من سعر برميل النفط، عندما يبلغ سعره ١٠٠ دولار، لكن نفس المقدار (ما يعادل برميلاً) من المواد المستوردة من عندهم، كالكوكاكولا يباع بمعدل ١٢٦ دولارًا، والحليب بـ ١٦٣ دولارًا، وعصير البرتقال بـ ٣٠٧ دولارات، والزيت بـ ٢٣٧٠ دولارًا، وماء تنظيف العينين ب ٣٩٧٢٨ دولارًا، وعطر " شانيل" ١,٦ مليون دولار.. (عن صالح النملة ـ

السعودية). باكستان... أضرار جانبية للحرب فى أفغانستان: شنت أمريكا أكثر من ٣٠٠ هجوم باستخدام طائرات دون طيار على أراضى باكستان منذ عام ٢٠٠٤ مما أسفر عن مقتل أكثر من ألفى شخص، وتشهد المناطق الحدودية مع أفغانستان مؤخرًا هجمات بهذه الطائرات مرة كل أربعة أيام، فى إطار برنامج لوكالة الاستخبارات المركزية الأمريكية معروف بـ" القتل المستهدف " (أو الاغتيال النتقائى)، أسفرعن مقتل قرابة ٦٠٠ مدنى خلال السنة الحالية (صحيفة التايمز ٠٥/ ١١/ ١١).

جواتيمالا: فاز الجنرال السابق "أوتو بيريس مولينا" (٦١ عامًا) على منافسه رجل الأعمال "مانويل بالديزون" (٤١ عامًا)، فى الانتخابات الرئاسية، وكلاهما يمينى معادٍ للعمال والفقراء، ولا توجد سوى فروق طفيفة فى برامجهما، وقد بلغ الإنفاق على الحملة الانتخابية أرقامًا قياسية: ٢٢,٥ مليون دولار للجنرال بيريس و ١٣ و ٧ مليون دولار لبالديزون، واتسمت الحملة بالعنف الذى ذهب ضحيته عدد من القتلى لم يُعلَن عنه رسميًا... عاشت البلاد حربا أهلية من سنة ١٩٦٠ إلى ١٩٩٦ أسفرت عن حوالى ٢٠٠ ألف قتيل، واتهم حينها الجنرال "بيريس" بالاعتداء على الحقوق الأساسية للمواطنين، وتعتبر البلاد حاليًا "الأخطر فى العالم"، بمعدل ١٨ جريمة قتل يوميا (٦ أضعاف المعدل العالمى): حيث بقى ما نسبته ٩٨ ٪ من الجرائم دون تتبع أو عقاب... يبلغ عدد سكان جواتيمالا ١٤ مليون نسمة، ٥١ ٪ منهم فقراء، و١٥ ٪ فى فقر مدقع، و٣٠ ٪ من السكان أميون، و٤٩٪ من الأطفال فى حالة صحية وغذائية متردية (أ. ف. ب ٠٦/ ١١/ ١١) .

نيكاراجوا: فاز الرئيس "دانيال أورتيجا" بولاية ثانية فى الانتخابات الرئاسية والتشريعية التى جرت يوم ٦/ ١١/ ١١، وهو زعيم سابق "للجبهة السندينية للتحرير الوطنى" التى أطاحت بالدِّكتاتور "سوموزا" سنة ١٩٧٩.. تولى "دانيال أورتيجا" رئاسة نيكاراجوا من ١٩٨٤ إلى ١٩٨٩، لكن أمريكا موّلت وسلّحت مليشيات ومرتزقة وأشاعت العنف والتقتيل والتخريب... انتخب أورتيجا رئيسًا سنة ٢٠٠٧، بعد أن أعلن "توبته" وتخلّيه عن الماركسية، وتحالف مع الكنيسة

الكاثوليكية، وقدم تطمينات لرجال الأعمال وصندوق النقد الدولى والبنك العالمى، وصرح إثر فوزه فى انتخابات ٢٠١١: "إنه انتصار للمسيحية وللاشتراكية ولقيم التضامن" .. تعتبر نيكاراجوا أكبر دول أمريكا الوسطى من حيث المساحة، وأفقر دولة، ويبلغ عدد سكانها حوالى ٦ ملايين نسمة، منهم حوالى مليون فى العاصمة " ماناجوا "، ويعيش ٦٣ ٪ من السكان فى "الأحياء القصديرية" و٤٧ ٪ فى حالة فقر دائم، و٥٥ ٪ من السكان فى وضع بطالة دائمة، وقد تدهور الوضع منذ وصول الرئيس اليمينى اللبرالى "إنريكى بولانيوس" إلى الحكم سنة ٢٠٠٢؛ حيث قضى على ما تبقى من مكتسبات فارتفعت نسبة الأمية من ١٢ ٪ إلى أكثر من ٤٠ ٪ فى عهده، وتقلصت ميزانيات الصحة والتغطية الاجتماعية والخدمات... وتنتج البلاد العديد من المعادن الثمينة منها: الذهب، والفضة، والزنك، والنحاس.. يبلغ الأجر الأدنى حوالى ١٠٠ دولار ومتوسط الأجر حوالى ٢٩٠ دولارًا، لكن أسعار المواد الأساسية جد مرتفعة، أما المصاريف الشهرية لعائلة مكوّنة من ٦ أفراد فلا تقلّ عن ٤٣٥ دولارًا لتوفير المواد الغذائية (عن أ. ف. ب ويونايتد براس ورويترز ٠٧/ ١١/ ١١).

كولومبيا... أصدقاؤهم أعداؤنا: أعلنت الحكومة الكولومبية عن قتل قائد القوات المسلحة الثورية الكولومبية، المعروفة اختصارا بـ "فارك"، ويستعين الجيش الكولومبى بخبراء أمريكيين وصهاينة، منذ أكثر من ٢٠ سنة، ويمثل الصهاينة أكبر مصدر لسلاح الجيش الكولولمبية، إضافة إلى وجود خبراء عسكريين صهاينة فى مجال التدريب والاستخبارات والتعذيب وترويع الفلاحين واقتلاع الأشجار وإتلاف المنتوجات الزراعية... وقد باع الصهاينة لكولمبيا أسلحة خفيفة ورادارات وأجهزة مراقبة وتنصت وطائرات دون طيار و٢٤ طائرة من نوع "كفير" (لم يعد يستعملها الجيش الصهيونى)، مقابل ١٦٢ مليون دولار، إضافة إلى عقود أخرى مع شركات أمنية عسكرية مثل "Israel Aircraft Industries - IAI" و"Elta Systems Ltd" تتجاوز قيمتها ٢٠ مليون دولار... منذ ٢٠٠٥ تطورت العلاقات السياسية والتجارية بدعوى "محاربة الإرهاب" ومحاربة اليسار الحاكم

فى البلدان المجاورة (فنزويلا، إكوادور)، كما يوجد خبراء عسكريون من أمريكا التى تملك سبع قواعد عسكرية فى كولمبيا، ومن فرنسا (حيث يدرس الرئيس السابق "ألفارو أوريبى" طلبة الهندسة فى شرق فرنسا ومن بريطانيا... وتصوّت كولمبيا فى الأمم المتحدة عادة، مع الكيان الصهيونى وأمريكا، بصورة منتظمة (عن Elespectador).

فرنسا... فوارق طبقية: طبقت الحكومة قبل ٣ أشهر، خطة تقشف لتوفير ١٢ مليار يورو، وأعلنت عن خطة أخرى بـ ٨ مليارات يورو (زيادة ضرائب، تأخير سن التقاعد، إلغاء برامج اجتماعية، وتشغيل العاملين يومًا ثانيًا دون مقابل...) وبلغت قيمة الإعفاءات الضريبية التى تمتعت بها الشركات الكبرى والأثرياء حوالى ٧٥ مليار يورو... من جهة أخرى، التزم نيكولا ساركوزى بألا تتجاوز مصاريف "قمة العشرين" فى مدينة "كان"، ٨٠ مليون يورو، لكن المصاريف المعلنة فاقت ٩٠ مليون يورو لمدة يومين، وكانت كلفة الليلة الواحدة فى فندق ماجستيك، حيث نزل ساركوزى ٣٧ ألف يورو، وفى "كارلتون"؛ حيث نزل باراك أوباما ٣٥ ألف يورو... تجاوزت ميزانية الدوريات العسكرية بالمروحيات والزوارق الحربية ٣٠ مليون يورو، والتجهيزات الأمنية ونقل الضيوف ٥٨ مليون يورو (The Sun) ٠٧/ ١١/ ١١... ويبلغ الأجر الأدنى ١٠٠٠ يورو، وقد بلغت معدلات مصاريف الفرنسيين لمتطلبات السكن ٩٨٠٠ يورو سنويًا (حسب أرقام حكومية) أو ربع معدل مداخيلهم، ويجد ٦٠ ٪ صعوبات للحصول على سكن وخصوصًا الشباب دون ٣٠ سنة؛ حيث يقيم ٢٥ ٪ منهم لدى عائلاتهم لأسباب مادية، وبلغت نسبة الفقر لدى الشباب ٢٢٫٥٪ بينما تبلغ ١٣٫٥ ٪ لدى مجموع السكان (أقل من ٩٥٤ يورو شهريًا).. أما بالنسبة للأجراء فإن ٥٧ ٪ منهم يتذمرون من صعوبات الحصول على قروض عقارية، ويمثل السكن أكبر باب للمصاريف العائلية (أ. ف. ب. ٠٧/ ١١/ ١١ ٩).

ويقول الدكتور عادل سمارة على موقع arab@kanaanonline.org فى مقال له بعنوان "تخصص أمريكا فى السلاح ليس صدفة": "... الولايات المتحدة هى المركز الإدارى والمالى لأكبر ٥٠٠ شركة فى العالم التى تشكل شبكة مصالح على

صعيد العالم بلا استثناء، وهذه الشركات ليست مجرد مصالح اقتصادية محايدة سياسيًا، هى المجمع المدنى والعسكرى معًا بمعنى أن النخب الحاكمة فى الولايات المتحدة هى بين مالك ومشارك ومدير فى هذه الشركات... هى النخبة الإدارية السياسية فى البيت الأبيض، ونخبة المجمع الصناعى المدنى والمجمع الصناعى العسكرى، والنخب الإعلامية والنخبة الثقافية الأكاديمية، ونخبة المؤسسة الدينية... وعليه، فإن من يحكم الولايات المتحدة ليس فردًا ولا مجموعة وزراء، وإنما هو تحالف طبقى يملك ويحكم، وهو متداخل بين الحزبين الحاكمين اللذين يشكلان احتكار العمل السياسى على مستوى البلد كله.

إن ما حصل فى السنوات الأخيرة لهذه البلد الضخم والمتوحش معًا، هو إفلاس قواعده الاقتصادية الأساسية الثلاثة: المؤسسات المالية، وشركات السيارات، وإفلاس الاستهلاك؛ أى تراجع القدرة الاستهلاكية للمواطن فى الولايات المتحدة.

فماذا يعنى هذا؟ يعنى أن كامل شبكة الاقتصاد قد ضُربت باستثناء المجمع العسكرى الذى حافظ على سوقه، وهذا يفتح الحديث عن دور الاقتصاد العسكرى للولايات المتحدة ذات المصالح فى مختلف بلدان العالم. فلها ١٠٠٠ قاعدة عسكرية موزعة على مختلف بلدان العالم (وليست القواعد الموجودة فى العراق وعددها ٥٠٥ قاعدة، ضمن هذا العدد)، ولها قيادات عسكرية مناطقية لكل منطقة فى العالم... هى تحيط العالم بحزام عسكرى أمريكى، وجيش الولايات المتحدة اليوم تقوده قيادة لها مصالح فى شركات الأسلحة والشركات المدنية، وهذا الجيش يسلح ويدرب نخبًا عسكرية فى العديد من دول العالم. لذا لا غرابة أن الجنرال ماكرسيتال والجنرال بتريوس مرشحان محتملان للرئاسة المقبلة، وهو الأمر الذى لم يحصل بعد أيزنهاور فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، وهو نفسه الذى حذَّر من المجمع الصناعى العسكرى حين قال: "إن أمل احتفاظ هذه الدولة بسيطرتها الخارجية هو السلاح".

ما الذى يدعم النخبة العسكرية؟ هل تسيطر على النخب الأخرى؟ بالطبع لا، فالنخب متآلفة كطبقة حاكمة... إن ما يدعم النخبة العسكرية هو موقعها فى تطورات الاقتصاد الأمريكى الذى يعانى أزمتين خطيرتين هما: تراجع حجم وسوق الاقتصاد المدنى الأمريكى، وتراجع القدرة الاستهلاكية الأمريكية... وعليه، فالمجمع العسكرى فى الولايات المتحدة هو اليوم حصن الدفاع الأخير للحفاظ على الإمبراطورية، وهذا قد يفسر ضعف رفض المجتمع المدنى الأمريكى للدور المتوحش للجيش الأمريكى فى العالم وآخر مذابحه فى ليبيا (القطر القتيل). إن عدم تطور رفض شعبى أمريكى طبقى واسع وحقيقى لدور الولايات المتحدة العدوانى فى الخارج قائم على الاعتقاد بأن هذا الدور هو الملاذ الأخير لبقاء السيطرة التى تحقق مصلحة هذا البلد، حتى إذا ذهبت أمم الأرض إلى الجحيم كى لا يخسر الأمريكى ليلة حمراء.

ولكن... كيف تطورت سياسة السلاح؟

هناك لحظتان مفصليتان فى النصف الثانى من القرن العشرين تكمنان وراء جنون السلاح والحرب الأمريكى، ونشهد اليوم تجليهما:

الأولى: منذ أن أطلق الاتحاد السوفيتى أول صاروخ إلى الفضاء التقط عتاة الإمبريالية الأمر. وأدركوا أن التفوق سيكون لمن يركب السماء. لذا نقلوا الأمر من الفضاء من أجل الإنسانية إلى الفضاء لامتطاء الإنسانية؛ قد يلخص هذا الفارق بين الشيوعية والرأسمالية. كان التطور الأخطر هو قرار إدارة ريجان دخول "حرب النجوم" التى تبلورت لاحقًا إلى استخدام النجوم فى "حرب التخوم" لا سيما بعد تفكك الاتحاد السوفيتى، سواء ضد يوغسلافيا أو أفغانستان أو العراق أو الصومال ثم ليبيا... أو الوقوف الآن على أبواب سوريا.

والثانية: نتائج حرب فيتنام،:حيث تبين للولايات المتحدة أن بوسع دولة مستجدة كالبرازيل أن تنافس صناعاتها: لذا قررت الذهاب عميقًا فى اقتصاد التسلح.

وعليه، يبدو أن منافسة أو تفوق عدة دول فى الإنتاج المدنى على الولايات المتحدة، قد دفعها لاتخاذ قرار حسم التفوق فى السلاح لصالحها، الأمر الذى جعل منها قوة رعب وماكينة لإشعال الحروب فى كل مكان. وهذا يؤكد أن التخصص والتبحر فى إنتاج السلاح كان بقرار. وليس نتيجة عفوية نجمت عن ضعف قدرة الولايات المتحدة على المنافسة؛ لذا، فإن أمريكا تصدر حوالى ٥٢ ٪ من مجموع السلاح فى العالم، وبلغت جملة صادراتها (المصرح بها) ٦٥ مليار دولار، من سنة ٢٠٠٠ إلى ٢٠٠٩ تليها روسيا، وقد باعت فرنسا سلاحًا بقيمة ٨,١٦ مليار يورو سنة ٢٠٠٩ وحوالى ١٧ مليار يورو من ٢٠٠٥ إلى ٢٠٠٩... كما أن هناك ٣٥ دولة (منها ١٨ أوربية) باعت أسلحة لأنظمة استبدادية، ثم نددت بها وبأسلوبها القمعى (عن تقرير "منظمة العفو الدولية" ٢١/ ١٠/ ١١) .

أزمة المجمع المدنى لصالح العسكرى

كى نفهم أزمة المجمع الاقتصادى المدنى الأمريكى، لا بد أن نتذكر بداية الأزمة منذ ١٩٧٣ والتى كانت مكوناتها: أعباء حرب فيتنام، والطفرة النفطية، ودخول شركاء منتجين فى السوق العالمى مثل: أوربا، واليابان، والصين، وروسيا، والهند، والبرازيل، وجنوب إفريقيا، وهم الذين انتزعوا من الولايات المتحدة جزءًا كبيرا من حصتها فى الإنتاج السلعى العالمية، حتى تقلصت من ٤٠ إلى أقل من ٢٠ بالمائة... لقد دفعت هذه التطورات الولايات المتحدة إلى السوق الذى بوسعها التحكم فيه بدرجة أكبر، وهو سوق السلاح، بمعنى أنها حافظت على تفوقها فى إنتاج الأسلحة وتسويقها وخلق أسواق لها عبر: حروب تخوضها هى نفسها (أفغانستان والعراق) وبشراكة مع حلف الناتو (يوغسلافيا، والعراق، وليبيا)... أو حروب تشعلها هى نفسها وتزودها بالسلاح (الصومال، ساحل العاج، رواندا، اليمن... إلخ)... وقد ساعدها ولا يزال على هذا، وجود قواعد لها فى العديد من بلدان العالم وحاجة أنظمة تلك البلدان للخبراء العسكريين الأمريكيين، ووجود تحالف طبقى له مصالح مع الطبقة الحاكمة/ المالكة فى الولايات المتحدة، وغياب قطب عالمى آخر ينافسها بجدارة أو يهددها فى هذا السوق؛ لذا لا غرابة أن نجد

وسطاء أمريكيين فى مختلف النزاعات داخل العديد من بلدان العالم الثالث وبخاصة الوطن العربى.

فى هذا السياق تشكل دول النفط العربية رافعة أساسية للاقتصاد الأمريكى حيث تحقق له أربع خدمات:

فرصة التحكم بسوق النفط لصالح الشركات الأمريكية مما يؤهل الولايات المتحدة للتحكم بصنبور النفط الذى تصطف لتشرب منه الدول الكبرى المنافسة لها اقتصاديًا.

الحصول على ريع بيع النفط بالدولار مما يحقق للولايات المتحدة فرصة الربح من استخدام الدولار فى جميع صفقات بيع النفط عالميًا: حيث تستخدم شيكات صفقات النفط دون أن تدفع شيئًا، وهذا ما دفعها للقضاء على الرئيسين صدام حسين، ومعمر القذافى.

السيطرة التجارية على السوق الاستهلاكية الواسعة لبلدان النفط التى تمارس استهلاكًا سفيهًا، ولديها سيولة مالية.

تصريف كميات هائلة من الأسلحة لهذه البلدان وهى صفقات تتراكم دون استعمال ثم تتقادم ليتم شراء صفقات جديدة... وهكـذا.

ومن جانب آخر، فإن الولايات المتحدة تحمى هذه الأنظمة، وأنظمة أخرى فى العالم حماية مأجورة، بمعنى أن حماية هذه الأنظمة ليست دون ثمن، فنفقات القواعد العسكرية وتكاليف الخبراء الأمريكيين فى اليابان وكوريا الجنوبية والعراق وقطريات الخليج... إلخ، هى على حساب هذه الدول.

وقد يكون من الطرافة بمكان أن تصبح دول النفط العربية ـ أو أن تلعب ـ دور الملاذ الأخير للإمبريالية الأمريكية نفسها. فمنذ بداية الأزمة الجارية فى الولايات المتحدة وأوربا وبقية العالم أو أكثره، كان لا بد للولايات المتحدة من استعادة دولاراتها من العالم لإسعاف اقتصادها، فما حصل حين لهفت الولايات المتحدة الدولارات المتراكمة فى بلدان النمور الآسيوية عام ١٩٩٧، قامت بشبيه له

فى بلدان النفط العربية؛ لذا طلبت من مجلس التعاون الخليجى اتخاذ عدة إجراءات أهمها السماح لمحافظ مالية أمريكية بالاستثمار فى بورصات الخليج، وجاءت المحافظ الأمريكية لتنهب شعوب الخليج بموافقة حكوماتها. وعادت إلى واشنطن تلك الأموال... السعودية أعلنت عن خسائر ١٢٠ مليار دولار والكويت أعلنت عن ٨٠ مليار دولار، ولم تعلن باقى الدول خسائرها، ولكن خبراء يقولون إن الخسائر الحقيقية وصلت إلى ١٠٠٠ مليار دولار. وتعتبر خسائر البورصات نتائج "حرب أسواق" وليست نتائج "لعبة أسواق"، وبالتالى فإنه بعد سحب العملة الخضراء من الخليج فإن المحافظ المالية الخليجية ذهبت إلى الولايات المتحدة، وكانت خسائر بنوك الخليج تزيد على ٢٠٠٠ مليار دولار. وللمقارنة وحسب، فإن الصين الشعبية قد دفعت لإنقاذ الاقتصاد الأمريكى ٢ تريليون دولار وحصلت على أمرين أساسيين، هيهات لخليج النفط المتآكل أن يفعلهما:

أولاً: حصلت على سندات/ ضمانات من الخزينة الأمريكية.

ثانيًا: ابقت بل وزادت عدد الشركات الأمريكية التى نقلت الكثير من صناعاتها إلى الصين؛ حيث فرص الاستغلال والربح أعلى، وبالتالى تعاونت الولايات المتحدة والصين على سلخ القيمة الزائدة من العمال الصينيين، أو تقاسمتا الاستغلال فبقى تدفق الربح للشركات الأمريكية. وبقيت للصين فرصها فى تحقيق عمالة أعلى والحصول على سيولة مالية.

أزمــة المــلاذ الأخــيـر

فى الفترة ما بعد الحرب العالمية الثانية؛ حيث خرجت الولايات المتحدة الدولة القوية الوحيدة، قاد هذا إلى دخل عالٍ لمواطنيها ومن ثم قدرة استهلاكية عالية. وهو ما نتج عنه مسلَّمات منها: تدفق مدخرات من مختلف بلدان العالم إلى مصارفها: حيث هى الأكثر قوة وموثوقية... واعتماد كثير من بلدان العالم على التصدير إلى السوق الأمريكى... وبالطبع اعتماد الصناعة الأمريكية على هذا السوق الأقدر استهلاكيًا... وهذا عكس ما كشفت عنه الأزمة الجارية، وهو

تراجع القدرة الاستهلاكية فى الولايات المتحدة: حيث يشكل الإنفاق الاستهلاكى ٧٠ بالمائة من اقتصاد الولايات المتحدة. وهذا يجد تفسيره ليس فى استهلاك الطبقة الرأسمالية رغم شراهة استهلاكها، بل فى تدنى استهلاك الطبقة الوسطى واقتران ذلك بتراجع كبير فى خلق الوظائف بسبب عجز الأشغال الصغيرة عن التوظيف.

الكرسى المرن يفقد عجلاته!

حينما بدت بوادر الأزمة الجارية، وكانت محصورة ظاهريًا فى المستوى المالى، وصفنا وضع الرأسمالية الأمريكية بالجلوس على كرسى مرن يسمح لها بالحركة والاستدارة والمناورة أفقيًا دون الاضطرار للهبوط إلى الأسفل. لكن تطورات الأزمة فى الولايات المتحدة نفسها بوصولها عصب الاقتصاد الحقيقى أى الإنتاجى وليس انحصارها ماليًا، وتفشيها إلى أوربا ومختلف بلدان العالم، قلل من مرونة هذا الكرسى. فلم تحل السياسات المالية لضبط الأمور دون انفجار الأزمة، كما أن علاج الأزمة بتمويل مسبباتها، أى إنقاذ وإسعاف المؤسسات المالية التى خلقت الأزمة، لم يقرِّب حل الأزمة. وتكفى الإشارة إلى أن البنوك التى مُنحت مقادير مالية هائلة لإسعافها، لم تتعاون مع بعضها ولم تقدم تسهيلات إقراضية للمواطنين الذين هم أحق بهذه الأموال؛ لذا لم تعد هناك توليدات لفرص عمل تستوعب الذين تم الاستغناء عنهم والذين يدخلون سوق العمل والعاطلين حتى قبل الأزمة، وأصبح هناك ٧٠ مليون أمريكى يعيشون على المساعدات الغذائية الحكومية، وفقد عشرات الملايين مساكنهم التى صبوا فيها مداخيلهم ومدخراتهم، واتضح أن الانخراط فى الحروب الخارجية والتمسك بالسيطرة تستهلك إمكانيات مالية هائلة... إلخ، بينما عائداتها المالية تذهب للشركات.

وإذا كانت الإسعافات المالية الأولية قد حمت الاقتصاد الأمريكى حتى اللحظة، فإن بلدان جنوب أوربا تقف على حافة الإفلاس أو عدم نجاعة العلاج. ومثال اليونان اليوم أوضح. فيبدو أن سياسة التقشف وما توفره للاقتصاد على حساب حياة المواطنين، هى مثابة الضغط على صدر المصاب بالذبحة الصدرية؛ كى يشتغل القلب وما زال الأمر فى شك مريب.

لقد شكل هذا المناخ الاختبار الحقيقى لمرونة الكرسى الليبرالى الرأسمالى. وهى المرونة التى تسمى بالديموقراطية... بكلمة أخرى، اتضح الفارق الطبقى بشكل أكبر. ففى الأزمة الاقتصادية للبلد لا بد من تضحية ما، فأية طبقة هى التى سوف تضحى؟ وهل التضحية طوعًا؟ بالطبع لا، إذن من هى الطبقة التى سوف "ترغم" الأخرى على التضحية ككبش فداء... وذلك هو منطوق الصراع الطبقى.

حزبان أم حزب واحد؟

شهدت الأشهر الأخيرة تطورًا لافتًا فى علاقات الحزبين الأمريكيين. فرغم بقاء عام واحد قبل الانتخابات الرئاسية، فإن السياسة الاقتصادية للحزبين تتقارب؟ لماذا يتفق الحزبان على سياسة تقشفية لتخفيض الدين وإن كان الفارق أن أوباما يحاول حفز التشغيل مقابل تمسك الجمهوريين بحماية رأس المال: كى يتمكن من إدرار دخل أعلى لهم - بالطبع - دون أن يقلقوا على الفقراء، فتخفيض الدين يعنى تقليص الخدمات التى تقدمها الحكومة، وبالتالى، فإن من سيعانون تقليص الخدمات هم أكثر ممن سوف يستفيدون من تقليص الضرائب أى الأغنياء. ولكى يضطر الديمقراطيون لتخفيض الإنفاق يصر الجمهوريون على رفض زيادة الضرائب ولو بنسبة بسيطة مما يقلل قدرة الحكومة على مساعدة الفقراء.

المفترض، ضمن معتقد الليبرالية، أن يتبنى أوباما وصفات كالتى طرحها بول كروجمان: استثمار أكثر فى البنية التحتية، وقف الحروب، إغلاق القواعد، وتقييدات عقلانية على رأس المال الجشع... وهذا يفتح له نافذة حوار عام لتجنيد شعبى لصالحه فى مواجهة الجمهوريين... وحين يقف الديمقراطيون مع طبقتهم ضد الطبقات الأخرى فى المجتمع، فهم لا شك سيكونون أكثر شراسة تجاه الأمم الأخرى. وعليه، إذا كانت فرصة زيادة الضرائب غير متاحة حتى ولو بنسبة ضئيلة، فما الذى يغرى الحكومة بالتوقف عن النهب من الخارج؟ والحكومة هنا تمثل الشركات نفسها التى لا تريد دفع ضرائب فى الداخل؟

لذا، فالحكومة لن توقف حروبها، بل تتوسع بها خدمة بشكل أساسى للمجمع الصناعى العسكرى. فالسلاح وضراوة الحرب والتجسس، هما ثروة البلد الأساسية للتصدير فى هذه المرحلة. أما الطبقة العاملة والوسطى فليست لديها بعد خيار ثالث أى حزب آخر يستقطب أصواتها وينافس: كى تُحل الأزمة عبر صناديق الاقتراع. أى أن الطبقة العاملة هى طبقة لم تتمكن من فرز حزبها! بكلام آخر، فإن الأكثرية الشعبية بلا حزب، وتقف ـ الآن ـ فى مواجهة دكتاتورية رأس المال بحزبيها وأمنها وجيشها.

الانسداد... والثغرة

إذا كانت قراءة وضع أى بلد يجب أن تنطلق من النظام العالمى، فإن قراءة وضع الولايات المتحدة هو الأكثر التصاقًا بهذه القاعدة. وهذا يعنى أن التحرك ضد الطبقة الحاكمة هناك لا بد أن يكون داخليًا وخارجيًا: لأن الولايات المتحدة فاعل سياسى على صعيد العالم بأسره.

وحضور الولايات المتحدة على الصعيد العالمى ليس فقط فى مستوى العدوان وبيع السلاح، بل كذلك فى ديون بنوكها التجارية على هذا الصعيد، وهو الأمر الذى طالما قاد إلى تجريف ثروات بلدان كثيرة دون أن تحاول مصارفها تخفيف أو شطب ديونها، الأمر الذى قلل شراكتها عالميًا، وهو ما قاد إلى خلق ظروف متوترة اجتماعيًا فى بلدان كثيرة حتى فى أوربا نفسها، وكذلك فى الولايات المتحدة نفسها؛ حيث حدث تراكم الثروة مقابل تراكم الفقر.

هناك بدايات أولية للحراك الداخلى فى الولايات المتحدة والذى بدأ قبل أكثر من عشر سنوات فى سياتل، واليوم احتلال وول ستريت، وهو تيمن باحتلال المصانع فى أوربا إبان ثورة ١٩٦٨. ولكن هذا ما زال محدودًا وبدون مضمون طبقى واضح وبدون نطاق واسع ولا حركة ثورية تقوده. كما أنه لا يُردف بحراك على صعيد عالمى بمعنى حراك ثورى سواء ضد الوجود والدور الأمريكى أو ضد الأنظمة الحليفة والتابعة لها.

كما أن الإمبريالية توسع عدوانها سواء على ليبيا القطر القتيل وليس الأخير أم اليمن أم سوريا أم إيران أم كوريا الشمالية. صحيح أن هذا العدوان من جهة،

ووجود حراك شعبى عربى من جهة ثانية، هى آليات تصعيد المقاومة ضد رأس المال. ولكن القوى المضادة للثورة تحاول الإمساك بالمبادرة وتبدأ بالهجوم؛ لأن شريان حياتها هو فى الحرب والتدمير ثم إعادة البناء. هذا قانون عام أساسى فى الرأسمالية... لذلك فإن تأجيل المذبحة فى سوريا ناجم عن حسابات تشير إلى كلفة عالية وربما فشل كامل.

لكنه قانون تحدٍّ فى الوقت نفسه. بمعنى أن لا خيار أمام الطبقات الشعبية على صعيد عالمى سوى المقاومة. إن مناخ الأزمة الاقتصادية موات للاصطفاف الطبقى للطبقات الشعبية. وهو رغم قصور العامل الذاتى فإنه يفتح آفاقًا يمكن أن تتطور سواء من خلال الحراك العربى، أو تبلور أنظمة تقدمية فى أمريكا اللاتينية، أو تعميق التعاون الدبلوماسى والاقتصادى الروسى/ الصينى ولا سيما فى التصدى للتغول الأمريكى. هذه التطورات إلى جانب آفاق توسع الحركة المناهضة للحرب والعولمة. يمكن أن تشكل رافعة تغيير على صعيد عالمى. ولكن تبقى الحكمة فى الاستمرار وليس التوهم بسقوط سريع لرأس المال. إن نظام رأس المال الذى يهيمن على العالم منذ قرون لا يسقط فى فترات قصيرة. مما يستدعى من القوى الثورية وعيًا بالعمل الدءوب على مستوى كل من الخطاب والوعى من جهة، والانتظام العملى من جهة ثانية. على هذه القاعدة فقط يمكن التأسيس لاقتلاع النظام الرأسمالى وليس لإدارة أزمته.

وبصدد محاولة الغرب تجريد العرب من الدين المسيحى ومن الدين الإسلامى معًا. كجزء من مخطط تدمير القومية العربية، يمكن القول إن: "الدين فى الغرب كما فى أى مكان قابل للاستثمار السياسى بفعل السلطة السياسية/ الطبقية الحاكمة. وليس شرطًا بسبب جوهر الدين نفسه. وربما كانت أول هزيمة للدين بمعناه الأخلاقى فى الغرب، حينما تمكن أمراء الإقطاع من امتطاء الدين من أجل احتلال الشرق العربى، بخاصة تحت ذريعة إنقاذ قبر السيد المسيح كما لو كان عليه السلام معتقلاً! أما الليبرالية كفلسفة سياسية ووليدتها الرأسمالية كممارسة اقتصادية فكانت أكثر ذكاء وفاعلية فى الدين. مما سمح لها باحتلال

الدين المسيحى أى رسملته لتصبح (طبقة) رجال المؤسسة الدينية مثقفين عضويين لمؤسسة رأس المال... والأمر ينطبق على رسملة الدين اليهودى وبشكل أكثر حدِّة... وفى سياق استخدام الدين لإكمال المهمة التى هُزم فيها الإقطاع، أى احتلال الوطن العربى وإبادة أهله إلى الأبد، حاولت ولا تزال تحاول الرأسمالية الغربية بدءًا من المرحلة التجارية (المركنتيلية) وحتى اليوم عرض السيد المسيح كما لو كان أوربيًا، إلى حد تغيير سحنته ولون عينيه ولون شعره. وقد لا يبدو هذا ذا معنى لدى البعض، ولكن الأمر على خلاف ذلك. فالمقصود هو تجريد العرب من تراثهم المتعلق بالأديان بتصوير السيد المسيح على أنه أوربى أبيض، وهذا بخلاف الطبيعة وأثرها على البشر. فلا يمكن لفلسطينى فى تلك الأيام أن يكون بهذا اللون. ربما يستدعى هذا تساؤلاً: ترى لو لم تكن كنيسة القيامة والمهد فى فلسطين موجودة كأبنية لا يمكن سرقتها، هل كان صعبًا على مثقفى الغرب من العنصريين أن ينكروا وجود المسيحية فى فلسطين؟ ومع ذلك لو حصل هذا الافتراض، فإنه لن ينفى المسألة الأساس وهى المصلحة فى نهب الشرق بل العالم. ربما لهذا لم يهدموا هذه الأماكن؛ كى يتواصل استغلالها كذريعة لا كانتماء وإيمان. فليست تسويتها بالأرض صعبة، فانظروا إلى العراق وليبيا. وإلى قيام الكيان الصهيونى بمسح مئات القرى الفلسطينية وإقامة الكيبوتسات مكانها.

كما تم تجريد الأمة العربية من الدين الإسلامى عبر صياغة "أديان إسلامية" تعادى العرب وتبرر إذلالهم؛ لذا نجد الإسلام الأمريكى والإسلام الوهابى الذى هو فى الأساس صياغة بريطانية منذ أواسط القرن التاسع عشر. والإسلام العثمانى الذى هو طورانى معاد للأمة العربية، والإسلام الفارسى الذى هو قومى فارسى كذلك. وبكلمة موجزة. فإن التزييف هو ضد الإسلام الأساسى أى العربى.

لقد وصلت الهجمة باسم الدين إلى تحالف ليس غريبًا لكل ذى عقل أو متابع لتاريخ قيادة حركة الإخوان المسلمين التى لم تقطع تواصلها وتحالفها مع أنظمة التبعية العربية، وهو تحالف يفتح ـ بالضرورة ـ على تحالف مع الأنظمة الغربية

الرأسمالية بحكم علاقاتها مع أنظمة التبعية، وبحكم اعتقاد الإخوان بالرأسمالية بغض النظر عن طبيعتهم الإسلامية المدعاة؛ لذا برز سريعًا للعيان تحالف الإخوان مع الولايات المتحدة سواء فى مصر أم تونس أم ليبيا، وبالطبع ضد سوريا، وبشكل مسلح. وقد لا يكون مفاجئًا أيضا أن أصبح النظام الإسلامى التركى الجديد قاعدة للحلف الأمريكى الإخوانى. وعليه، فإن القيادة الحالية فى تركيا لم تحافظ على دور تركيا فى حلف الناتو وعلى علاقتها الحميمة بالكيان الصهيونى، بل أضافت إلى ذلك إخضاع الإسلام لهذا التحالف!.

مقابلة تليفزيونية مع الصحفى الأمريكى "وليام أنجدال" منقولة من التليفزيون الروسى.

المذيعة: مستر "أنجدال" شكرًا لحضورك. بالعموم لم يواجه العالم، من قبل هذا الكم من المشكلات الاقتصادية والسياسية فى الوقت نفسه. هل تظن أن كل هذه المشكلات وتضارب المصالح بين الدولار واليورو، والصراع فى شمال أفريقيا والشرق الأوسط تغذى بعضها بعضًا، ومتصلة فيما بينها؟

أنجدال: ما أراه فى كل هذه الأزمات. وقرار قصف ليبيا، وأزمة الدولار والاقتصاد الأمريكى، وتصرف الولايات المتحدة الأمريكية فى الفترة الأخيرة، هى كلها دلائل على تفكك دولة عظمى، والتى بدأت تتكون بعد الحرب العالمية الثانية... ولا أحد فى واشنطن يريد الاعتراف، تمامًا كما كان الحال فى بريطانيا منذ مائة سنة، أن هذه هى بداية انهيار الإمبراطورية! وكل هذا متعلق ليس فقط بمحاولة الإبقاء على هذه القوة متكاملة، بل على توسّع نفوذها إلى بقية الدول.

المذيعة: هل تقصد أن ما يحصل فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا هو محاولة من الولايات المتحدة للإبقاء على نفوذها؟

أنجدال: طبعًا، فقد تمّ الإعلان عن هذا المخطط فى عهد جورج بوش بعد احتلال العراق عام ٢٠٠٣، وتمّت تسميته "الشرق الأوسط الكبير"

وقد أظهروا خارطة عما يدور فى ذهنهم، وهو السيطرة وإدخال "الديموقراطية" (كما أسموها) إلى العالم الإسلامى: أفغانستان، باكستان هبوطًا إلى إيران وسوريا والدول المنتجة للبترول، واستطرادًا إلى دول شمال أفريقيا.

والأحداث التى نسميها "الربيع العربى" قد تم التخطيط لها منذ سنوات، والمحرضون على ما يُسمى "الانتفاضات المفاجئة" فى مصر وتونس وغيرها. كلها تمّ التحضير لها! وبعض القياديين، أى المحرضين عليها تم تدريبهم فى بلغراد ـ صربيا. وتم تمويلهم من قبل وزارة الخارجية الأمريبكية (!).
هذا الأمر كان تحت سيطرة وزارة الخارجية الأمريكية، والمخابرات الأمريكية.
السؤال: لماذا يفعلون ذلك؟ برأيى هناك سببان:

الأول: هناك ثروات ضخمة فى دول الشرق الأوسط. وأحد قواعد الأجندة تحديدًا كما فعلوا فى الاتحاد السوفيتى السابق، هو إدخال "الخصصة" وسياسة "الاقتصاد الحر"، حتى يتمكن صندوق النقد الدولى والمصارف الغربية والمؤسسات المالية من التدخل والسيطرة!

(هذا ما لم ينجح ولم يستطيعوا تطبيقه أبدًا. فلا تزال معظم الصناعات فى "روسيا" ضمن سيطرة الدولة، مباشرة أو غير مباشرة).

الثاني: الهدف، كما فعلوا عسكريًا فى ليبيا وجنوب السودان، وهو "تحييد" المناطق النفطية، والتى هى إستراتيجيًا ضرورية للصين ونموّها. فالموضوع يتمحور حول السيطرة على "الدولار الآسيوى"، وهو أمر تحدّث عنه زبيجنيو بريجنسكى فى كتابه "رقعة الشطرنج"، ومحاولة منع الصين و روسيا من التعاون وتشكيل فريق واحد اقتصاديًا وسياسيًا!.

المذيعة: هل يمكننا أن نقول بصدق إن تلك الدول فى الشرق الأوسط وشمال أفريقيا قد أصبحت أقرب إلى الديمقراطية؟

أنجـــــدال: أصدقائى فى تونس و مصر يقولون لى إن العكس ما حصل! فالاقتصاد فى حالة أسوأ، فمثلاً ليبيا كان لها أعلى مستوى معيشة بالنسبة إلى دول أفريقيا، وبعد القصف الناتو أصبحت البلاد خراب نتيجة القصف... أما اقتصاد مصر فهو فى حالة مزرية.

المـذيـعـة: إذا المحرّضون على هذه الأحداث، أى الولايات المتحدة الأمريكية وبعض الدول الأوروبية، هل يمكنهم أن يعيدوا الأوضاع إلى طبيعتها؟ أو أن هذا ليس لصالحهم؟

أنجـــــدال: لا أظن لثانية أنهم مهتمون أن يكون الوضع طبيعيًا أم لا، كل ما يهمهم، بخاصة البنتاغون، هو السيطرة العسكرية... والخطوة التالية لما يُسمَى "المجلس الانتقالى" فى ليبيا، والذى هو دمية، هى إعطاء الإذن للناتو بإنشاء قواعد عسكرية داخل ليبيا، وهو أمر لم يحصلوا عليه فى فترة نظام القذافى!، الأمر نفسه بالنسبة إلى جنوب السودان، هو عاجز عن الدفاع عن نفسه، وبوجود قوات عسكرية للناتو "Africom"، تنسق مع قيادة منطقة أفريقيا، والمثير أن هذه القيادة أنشأت عام ٢٠٠٦ بعد الهجوم الدبلوماسى الاقتصادى الصينى على أفريقيا، ودعوة قيادات أفريقيا إلى بكين؛ حيث تم توقيع معاهدات مهمة للتنقيب عن النفط، وإنشاء مستشفيات، وتقديم قروض ميسرة، كل ما لم يفعله صندوق النقد الدولى فى أفريقيا خلال ال ٣٠ عامًا الماضية! وقد كان لهذا الأمر نتائج مهمة للصين.

المـذيـعـة: أعلم أن لك رأيك الخاص فى هذا الموضوع، ولكن من الذى سيدفع تكلفة هذه الحروب؟

أنجـــــدال: علينا أن نعود إلى الثمانينيات، عندما كان الدولار العملة الاحتياطية فى العالم، والصين لديها فائض تجارى ضخم؛ لذا فماذا نفعل فى ال ٣ ترليون دولار من سندات الخزينة الأمريكية الموجودة فى المصرف المركزى الصينى؟ فعليًا، يوجد القليل من الأسواق الضخمة

للاستثمار فيها: لذا فالمكان الوحيد للصين: لكى تستثمر فيه فائضها هو الدولار أو اليورو. والواقع أن أمريكا لا يمكنها أن تمول كل هذه الحروب إذا لم تشتر الصين سندات خزينة لديها. فمن السخرية أن الصين تمول الحروب المقامة ضد مصالحها!

المذيعة: هل تظن أن الولايات المتحدة لديها فرصة لتعويم نفسها من الأزمة الاقتصادية الحالية؟

أنجدال: الطريق الوحيد لكى يخرجوا من هذه الأزمة، أى أزمة "وول ستريت"، هى إيجاد طرق جديدة "للنهب"، فالربيع العربى موجه للسيطرة على ثروة النفط بعد خصصتها.

المذيعة: إذا لم يستطع الدولار المحافظة على سيطرته، هل تظن أن بإمكان اليورو أن يأخذ مكانه؟

أنجدال: السبب بوجود الأزمة اليونانية، فى منطقة اليورو، أن ذلك هو جزء من الحرب الخفية بين الدولار واليورو. فقد بدأت، عندما أخذت الصين تتشكى من الولايات المتحدة والعجز الكبير فى ميزانيتها، وتعريض الدولار للخطر، وبالتالى سندات الخزينة الأمريكية التى اشترتها الصين! فجأة، وقبل أن ينفجر الوضع، حصلت الأزمة اليونانية، وقد تم تفعيل الأزمة عام ٢٠٠٢، ولم يفتعل أحد هذه الأزمة غير "جولدمان ـ ساكس" أكبر مصرف فى أمريكا، واتصالاته السياسية العميقة فى واشنطن. فمن الواضح جدًا أننا إذا تتبعنا "خيط المال" نجد أن الأزمة اليونانية خُطط لها أن تنفجر "عند الطلب" من قبل "وول ستريت" والخزينة الأمريكية، وأيضًا المصرف الاتحادى الفدرالى FRB، فى سبيل المحافظة على قوة الدولار. ولكنى لا أرى الاقتصاد الأوربى فى خطر لسبب كبير هو أن أوربا لا تزال منطقة صناعية ولديها إنتاج صناعى كبير.

المذيعة: هل تظن أن بعض الدول الأوربية، لنقل مثلاً فرنسا، ستستفيد من الأحداث فى ليبيا؟

انجـــــدال: كنتُ سأقول لك هذا، فساركوزى، عندما انفجر الوضع فى ليبيا، كان له لقاء فى مارس فى باريس مع قيادات "المجلس الليبى الانتقالى". وقد همس فى آذانهم: الحصول على المداخيل النفطية فى منطقة ليبيا الشرقية، مقابل المال والسلاح للمقاتلين! هذه انتفاضة مولها حلف الناتو وال CIA والمخابرات الفرنسية!

المـذيـعـة: والآن، ماذا تتوقع أن يحصل؟

انجـــــدال: أرى أنه سيحصل نفس السيناريو الذى حصل فى العراق وفى أفغانستان. يوجد فى أفغانستان ١٧ قاعدة عسكرية دائمة، معظمها قواعد جوية، وهى ليست لقصف طالبان، ولكنهم يحضرون لحرب قادمة، بعد عشر سنوات، مع الصين وربما روسيا! ومناطق عسكرية فى قلب آسيا؟! هذا أمر لم يحصل فى ذروة الحرب الباردة ! لذا أظن أن ليبيا مهيأة للمصير نفسه.

المـذيـعـة: ماذا برأيك، على روسيا أن تقوم به فى الأحداث الجارية الآن؟

انجـــــدال: أظن على روسيا أن تقوم بتصحيح الخلل الحاصل، وإعادة التوازن للخلل فى الإستراتيجية الشديدة الخطورة لحلف الناتو والولايات المتحدة. بإمكان روسيا أن تقف سدًا فى وجه محاولات الولايات المتحدة فى مجلس الأمن، ومنعها من اتخاذ قرارات بشأن "سوريا"... ولا أظن أيضًا أن الصين ستوافق على إعادة سيناريو ليبيا فى سوريا! وأنا آمل أن تقوم روسيا بهذا!

(انتهت المقابلة)

وتقول الدكتورة غادة اليافى - ابنة رئيس وزراء لبنان الأسبق - على الموقع نفسه، تحت عنوان "لماذا انقلبت تركيا وقطر على سوريا، بينما أيدتها روسيا والصين؟"... "لماذا انقلب التركى والقطرى على سوريا؟ ما سر الشرق الأوسط الجديد؟ ما سر انقلاب أمير قطر على أبيه وأردوغان على معلمه نجم الدين أربكان؟ ما سبب الأحداث فى سوريا؟ إلى أين تتجه الأحداث، وما مستقبل سوريا؟ ما سر وثائق ويكيليكس؟".

[١] الحرب على سوريا

ما أسرار قصة الربيع العربى، ولماذا فقط تركيا وقطر هما رأس الحربة ضد سوريا، ولماذا تريد واشنطن تقسيم المقسم، وهل مشروع الشرق الأوسط الجديد حقيقة!

بدأت القصة منذ العام ١٩٩٢ حيث تم إقرار إتفاقية كيوتو للحد من انبعاث الغازات إلى الجو ولمنع تفاقم الاحتباس الحرارى، وفى العام ١٩٩٤ ألزم الاتحاد الأوربى نفسه بهذه الإتفاقية وأصبح الغاز أهم من النفط، والغاز موجود فى إيران وروسيا ... فهل ستسمح واشنطن بزيادة النفوذ الروسى فى أوربا وخصوصًا بعد زوال حلف وارسو، وبالتالى زوال سبب وجود الناتو؟

فى العام ١٩٩٥ عقدت صفقة فى قطر أدت الى انقلاب الابن على أبيه... وجرى ترسيم الحدود مع إيران، وبدأ استخراج الغاز لتلبية الطلب الأوربى، فكان البدء بتسييل الغاز القطرى إذ لا يمكن مد أنابيب من قطر إلى أوربا ... والبحرين وسلطنة عمان يشترون غازًا بعيد، بينما الغاز القطرى مخصص للسوق الأوربية لمنافسة الغاز الروسى، وجاء هذا بعد أن قامت واشنطن بإشعال الشيشان ويوغسلافيا بوساطة الأفغان العرب.

فى العام ١٩٩٦ كان بوتين قد بدأ الإمساك بزمام الأمور جراء الوضع فى الشيشان، وتأسست شركة غاز بروم التى ستصبح هى الحاكم الفعلى لروسيا على غرار الشركات الأمريكية التى تحكم الولايات المتحدة.

مشروع الشرق الأوسط الجديد: واشنطن تدرك خريطة الغاز فى المنطقة وهى فى تركمانستان وأذربيجان وإيران ومصر، والغاز الذى كانت تعلم به واشنطن فقط فى ساحل البحر الأبيض المتوسط ما بين فلسطين ولبنان وقبرص، وأدركت واشنطن أن السيطرة على هذه المنابع تعنى بقاء واشنطن قطب أوحد يدير العالم، فهى قادرة على منافسة الغاز الروسى، و كون غاز أذربيجان وتركمانستان صعب أن يصل إليهما لكونهما فى منطقة نفوذ روسى، لكن الوصول

إليهما سهل فى حال سيطرت واشنطن على غاز المتوسط وزودت أوربا بالغاز، وأصبحت موسكو عاجزة عن شراء الغاز من آسيا الوسطى، التى سترغم للدخول فى النفق الأمريكى... ولكن الحصول على الغاز فى المتوسط يحتاج إلى سلام فى المنطقة، والسلام فى المنطقة وفق الشرعية الدولية سيكون بداية نهاية إسرائيل، وهنا قررت واشنطن تقسيم الشرق الأوسط إلى دول طائفية تديرها إسرائيل، بحيث تتمكن من تصفية القضية الفلسطينية، ولكن قبل طرح مشروع الشرق الأوسط الجديد كان هناك طريقة أسهل فى نظر واشنطن وهى القضاء على المقاومة فى لبنان، فيمكن الوصول إلى الغاز دون حل القضية الفلسطينية، التى أصبحت عائقًا أمام مستقبل واشنطن، فكيف بدأت واشنطن بالعمل للسيطرة على هذه المنطقة، علمًا بأن المشكلة فى وجه واشنطن هى إما تصفية القضية الفلسطينية، أما القضاء على المقاومة فى لبنان.

- الحرب على لبنان فى العام ١٩٩٦ : تحت اسم "عناقيد الغضب" للقضاء على حزب الله والمقاومة ، لفرض سلام مع لبنان يؤمن إمدادات الغاز... وفشل العدوان وأصبحت المقاومة مشروعة، وأرغمت إسرائيل لأول مرة فى تاريخها على الالتزام بتفاهم أبريل، ثم جاء العام ٢٠٠٠ وهو عام النكسة الأمريكية؛ حيث تحرر الجنوب اللبنانى، وفى العام نفسه وصل بوتين خصم الغرب الى السلطة فى روسيا على إثر وفاة يلتسين.

البدء بتنفيذ مشروع الشرق الأوسط الجديد : أدركت واشنطن أن الغاز القطرى أصبح عاجز عن المنافسة فى السوق الأوربية، وأن النفوذ الروسى يزيد فى أوربا مع ازدياد الطلب، وليس ذلك فحسب بل بدأت موسكو بالانتعاش الاقتصادى تستعيد عافيتها. فقررت التحرك، وكان الهجوم بالطائرات على مبنى التجارة العالمى فى أمريكا هو مقدمة الهجوم الأمريكى كرد على هزيمة إسرائيل فى لبنان ووصول بوتين إلى السلطة والتقارب الصينى الروسى، بعد توتر دام عقود إبان الحرب الباردة، وسقوط بعض معاقل واشنطن فى أمريكا الجنوبية. وكانت البداية من احتلال أفغانستان، وطبعًا الهدف هو قطع طرق الترانزيت عن الصين ومحاصرتها ومحاصرة روسيا من جهة ثانية ومحاصرة إيران.

فى العام ٢٠٠٢ عقدت واشنطن صفقة مع رجب طيب أردوغان وعبد الله جول الذين انقلبا على معلمهم أربكان، وأسسا حزب العدالة والتنمية ليصبح عبد الله جول أول رئيس حكومة إسلامى فى تركيا، وكما كان الانقلاب فى قطر سببه الغاز كان الانقلاب فى تركيا سببه الغاز. فمع ظهور حزب العدالة والتنمية أعلنت واشنطن عن خط غاز نابوكو، وعند الأمريكيين حتى الاسم له معنى. فنابوكو اسم عمل موسيقى لفيردى يتكلم عن ما سمى سبى نبوخذ نصر لليهود فى العراق، وبعدها بعام تم احتلال العراق فعلاً... لماذا نابوكو؟ طبعًا تدرك واشنطن أن الغاز فى آسيا الوسطى محال أن يصلها، وفى إيران الحرب شبه مستحيلة، ولكن روسيا لم تكن تدرك أن البحر المتوسط يحوى الغاز الذى تريده واشنطن. فواشنطن حين أعلنت عن خط نابوكو، كانت موسكو تعتقد أن هذا الخط ولد ميتًا، ولكن واشنطن كانت تخطط أولاً للحصول على الغاز من مصر وساحل المتوسط (فلسطين، ولبنان، وقبرص) ومع تقسيم وتدمير سوريا ستحصل - حتمًا - بلا حرب على الغاز الإيرانى. وبالتالى لن تستطيع موسكو بعد ذلك شراء الغاز الأذربيجانى، ومن ثم تفقد موسكو نفوذها فى المتوسط وأوربا ووسط آسيا دفعة واحدة. وتكون واشنطن هى التى سيطرت على العالم للأبد.

نابوكو حلم أردوغان: نابوكو يجمع غاز المنطقة فى تركيا. ليصدر إلى أوربا دون المرور فى اليونان . فتتحول تركيا إلى دولة ثرية بالترانزيت الذى يفترض أن يبدأ بـ ٣١ مليار متر مكعب ويصل إلى ٤٠ مليار متر مكعب، ولهذا فإن أردوغان - الذى يدرك أن الوصول فى البداية إلى غاز وسط آسيا مستحيل - قد أشرف بنفسه على زيارة القاهرة لدعوتها للتوقيع على اتفاق نابوكو . ولم يدرك وقتها حسنى مبارك أنه كان يوقع على وثيقة إقالته من السلطة.

الصفقة مع أردوغان وعبد الله جول وأمريكا

- يقوم أردوغان وجول بتأسيس حزب إسلامى وتساعده واشنطن على الإمساك بزمام السلطة.

- يقبل هذا الحزب بتقسيم مصر إلى ثلاث دول، والعراق إلى ثلاث دول وسوريا إلى أربع دول.

- تتعهد واشنطن بجعل النفوذ على الدول السنية من الدويلات الجديدة لتركيا... وتقبل تركيا بأن يكون النفوذ على باقى الدول لإسرائيل.

- تتعهد واشنطن بأن لا يمر أنبوب الغاز فى اليونان: كى تضمن تركيا الحصول على كامل قبرص والدخول فى الاتحاد الأوربى على حساب اليونان.

- مقابل أن تحول الولايات المتحدة تركيا إلى عقدة غاز عالمية يقبل أردوغان أن يكون النفوذ على هذه العقدة لواشنطن.

- تساعد تركيا الولايات المتحدة فى أفغانستان خصوصًا والعراق.

الدول التى كانت واشنطن بصدد إنشائها:

مصر: دولة قبطية ودولة سنية متشددة ودولة للنوبيين. ودليل ذلك أعقب الثورة عنف طائفى مدروس: حيث كانت واشنطن تضمن أن سقوط سوريا لن يستغرق أكثر من شهر. ولأول مرة بعد الثورة الإعلام يتناول النوبيين فى مصر. وسر الفراغ السياسى فى مصر هو انتظار تطور الأحداث فى سوريا، وما تفجير خطوط الغاز فى سيناء إلا رسائل على أن المشروع حتى لو نجح لن يصل الغاز إلى أوربا. وما توقف العنف الطائفى فى مصر إلا لأن سوريا لم تسقط.

سوريا: المفروض تقسيمها إلى أربع دول. وسبب بداية الأحداث من درعا: لأن المشروع كان يقضى بترحيل كل أهالى درعا من الجنوب السورى بشكل نهائى. ومن يتابع تسلسل بداية الأحداث يمكنه وضع تصورعن التقسيمات التى كانت تخطط لها واشنطن... وطبعًا التقسيم سيشمل باكستان والخليج والعراق وحتى تركيا نفسها. ويعتقد أن أردوغان وافق على تقسيم تركيا بحيث دولة صغيرة غنية ولها نفوذ أفضل من دولة كبيرة بلا نفوذ.

الولايات المتحدة تشن هجومها الثانى: رغم وصول أردوغان إلى السلطة. كان على الولايات المتحدة إقناع حلفائها بالدخول فى خط الغاز ، فكان الجزء الثانى

من الهجوم يبدأ بالثورة البرتقالية فى أوكرانيا: حيث إمدادات الغاز الروسى، وبدء التحرش بروسيا البيضاء، كذلك حيث إمدادات الغاز الروسى، ومن ثم تم اغتيال رفيق الحريرى لبدء الضغط على دمشق، وكانت الحرب على لبنان، ولكن عوضًا عن تهجير أهالى الجنوب بشكل عام والشيعه بشكل خاص إلى العراق، خسرت إسرائيل الحرب خسارة زلزت واشنطن نفسها، وكسرت هيبتها.

لجأت واشنطن الى حلفائها الجُدُد فى أوكرانيا للضغط على الغاز الروسى لكى تضمن الولايات المتحدة الدعم الأوربى لمشروعها القادم، حيث لا زال بجعبتها خطط بديلة. وفعلا قطعت موسكو الغاز عن أوربا أسبوعين، واشنطن أرسلت رسالة بضرورة عدم الإعتماد على الغاز الروسى، وروسيا أرسلت رسالة بأن دول عبور الغاز هامة، وبالتالى حتى لو جاء الغاز من مكان ثانى ضربه سهل، ونتج من هذه الحرب خروج البرتقاليين من السلطة برضا أوربا.

الغضب الروسى: سارعت موسكو بالرد، و كان رد موسكو عنيف، بعد الإعلان عن خط نابوكو؛ حيث أعلنت "غاز بروم" بأنها ستستثمر فى مشاريع غاز فى أمريكيا اللاتينية وإفريقيا وآسيا، وحتى واشنطن ستجد نفسها تشترى الغاز من روسيا ، وأعلنت روسيا عن أربعة خطوط غاز وبدأت فعليًا بالعمل وهى:

١ ـ السيل الشمالى يوصل الغاز من شمال روسيا الى ألمانيا عبر البحر دون المرور ببر بيلاروسيا، وبدأ تنفيذ هذا المشروع فعليًا وبالتالى خف الضغط الأمريكى على روسيا البيضاء؛ لأن إسقاط بيلاروسيا لن يفيد بعد الآن بوقف إمداد الغاز.

٢ ـ السيل الجنوبى عبر البحر الأسود إلى بلغاريا، ومنها يتوزع خط عبر رومانيا هنغاريا النمسا، وجنوبًا عبر اليونان إيطاليا. وقد تم إنجاز معظم الاتفاقيات لمد هذا الخط.

٣ ـ السيل الأزرق عبر تركيا، فسوريا الأردن: لمد الأردن وإسرائيل بالغاز، هذا يثبت أن موسكو لم تكن تعلم بوجود الغاز فى المتوسط وقد تم إلغاء هذا الخط فعليًا، بعد أن علمت باحتياطات الغاز فى المتوسط.

٤ ـ مد خط من نيجيريا الى النيجر، فالجزائر لتسييل الغاز نقله الى أوربا ولاحقًا مد أنبوب إلى أوربا.

٥ ـ قامت أيضًا "غاز بروم" بالاستحواذ على نصف حصة شركة إينى الإيطالية فى ليبيا، وبدأت بالاستثمار فى السودان، وزار بوتين مصر على أمل الاستثمار فى مصر.

وردًا على الخطوات الروسية سيبدأ الربيع العربى ، تمهيدًا لتقسيم المنطقة وعزل روسيا والصين عن المتوسط، والاستحواذ على غاز مصر والمتوسط، ثم قطع الطريق فى شمال آسيا على أى مشاريع روسية من خلال إسقاط شمال إفريقيا ، وهذا ما سنتكلم عنه فى الجزء الثانى.

[٢] الربيع العربى

ردًا على التصعيد الروسى بدأت واشنطن بالتصعيد. ويمكن القول إن وثائق ويكيليكس كانت مقدمة لبدء الهجوم الأمريكى الجديد على المنطقة، فهذه الوثائق قد تم تسريبها عن قصد ولسبب. وما تسريبات ويكيليكس إلا رسالة أمريكية إلى من تبتزهم بالشرق الأوسط. مفادها من لا يسير معنا ستسرب وثائقه، ومن جهة ثانية بين كل ألف وثيقة بالإمكان تسريب وثيقة كاذبة بقصد زرع البلبلة للحرب النفسية.

طبعًا الهجوم على سوريا يحتاج إلى الخاصرة اللبنانية التى لم تستطع إسرائيل احتلالها، والمال رغم أن المشاريع فى الشرق الأوسط كلها دون استثناء على حساب السعودية، فظهور تركيا وقطر كان على حساب السعودية، وبدأ التسريب عن بعض السياسيين اللبنانيين الذين احترقت أوراقهم أصلاً، حتى أن البعض كان يعتقد أنهم خونة أكثر مما ذكرت ويكيليكس، وقليلاً مما يحدث فى المملكة العربية السعودية.

ولكن من أهم الوثائق تلك التى كانت تتحدث عن الفساد فى تونس، لدرجة أن بن على أيامها حجب موقع جريدة الأخبار عن التونسيين: كى لا تصل الفضائح

إلى التونسيين. والسبب هو التحضير للهجوم على ليبيا ولاحقًا الجزائر لقطع الطريق أمام روسيا، بل وأمام النفوذ الصينى المتنامى فى إفريقيا. وكان يجب التخلص من مبارك كذلك لعدة أسباب منها لزوم تقسيم مصر.

التخلص من مصر كنقطة ضعف مرعبة بأى وقت من الممكن أن تسقط، وتسليم الإخوان المسلمين الحكم كبداية لتقسيم مصر وتنفيذ الصفقة مع أردوغان... وقبل الحديث عن الربيع العربى سنمر على السودان لنفهم تطور الأحداث فى اليمن والصومال والسودان لتشكيل صورة كاملة عن الأحداث.

فماذا حدث فى السودان؟

إلى جانب الغاز زاد الطلب الأوربى على الوقود الحيوى ، الذى بدأ من ١٪ وارتفع إلى ٧٪ وسيصل إلى١٠٪ وبالتالى ١٠٪ من الوقود الحيوى ستكون ضمن الوقود فى الاتحاد الأوربى. وبدأ صراع روسى أمريكى على الوقود الحيوى، فقامت وشنطن ودون سابق إنذار بقطع القمح عن مصر أكبر مستورد للقمح فى العالم، كى تمنع موسكو من بيع المزيد من الوقود الحيوى فى السوق الأوربية، وكلنا يتذكر أزمة القمح المصرية حين قامت سوريا بمساعدة مصر من مخزونها الإستراتيجى. والسودان إلى جانب غناه بالنفط والغاز مرشح؛ لأن يكون أكبر مصدر للوقود الحيوى فى العالم.

ومع واشنطن وضمن الصفقة مع أمير قطر تم إنشاء شركة "كافاك" القطرية للإضافات البترولية. وبدأت قطر بالاستثمار فى السودان لحساب واشنطن، أى أن الولايات المتحدة وضعت قاعدة عسكرية فى قطر لبدء استخراج الغاز والوقود الحيوى. وكان هناك فى السودان صراع خفى أشعل السودان كله: حيث جن جنون واشنطن من العقود بين السودان والصين للتنقيب عن النفط. ودخول "غاز بروم" إلى السودان لاستثمار الغاز. حتى وصل الأمر الى استدعاء الرئيس السودانى إلى محكمة الجنايات الدولية لمحاكمته على جرائم واشنطن فى السودان، كما حوكم سابقًا ميلوسوفيتش على جرائم الناتو والأفغان العرب فى يوغسلافيا.

ولكن الصين التى غيرت إستراتيجيتها القتالية وأصبح بمقدورها شن ضربات استباقية للحفاظ على الأمن القومى الصينى ومعها السودان، شنًا هجومًا مضادًا من خلال دعم تمرد فى تشاد التى تصدر الإرهاب للسودان.. وهنا ومع وصل ثوار تشاد إلى تخوم العاصمة التشادية أوقفت واشنطن مهزلتها وعدوانها فى السودان عبر صفقة، و هدأ إقليم دارفور. ونسى العالم أن الرئيس السودانى مطلوب للمحكمة الدولية، ولكن أمريكا التى هزمت جزئيًا. بدأت بإستراتيجية جديدة من خلال التضييق على إمدادات الصين من السودان، فلم تنجح بضرب السودان، فقررت ضرب خط الإمداد، فأصبحت بحاجة إلى الصومال ، ولكن قلبت الموازين فى وجهها مع ظهور قوات المحاكم الإسلامية، فقامت قطر بالتدخل لحساب واشنطن، واشترت زعيم المحاكم الإسلامية، وبدأت أعمال القرصنة فى مضيق باب المندب، وكانت تدار من دبى، ويرسل للقراصنة السفن المستهدفة البعيدة عن القطع العسكرية عبر رصدها بالأقمار الصناعية، وكانت بداية لإشعال المنطقة، فاشتعل اليمن فى الشمال من الحوثيين، وفى الجنوب من الانفصاليين، ودخلت قوات روسية وصينية إلى المياه لحماية المضيق من القراصنة، وقبضوا على الكثير من القراصنة حتى أصبحت القرصنة تثقل كاهل من يديرها.

وكما ظهرت القرصنة فجأة، اختفت القرصنة باشتعال اليمن فى ثورات لقوى متصارعه، ولم تنجح واشنطن فى شرب إمدادات النفط الصينى من السودان، ومازال الصراع قائمًا على منطقة أبيى الغنية بالنفط.

عودة لبداية الربيع العربى: إذا كان أسر حزب الله لجنود إسرائيليين قد قدم موعد الحرب، فساعد حزب الله على النصر، فإن إحراق أبو عزيزى نفسه سرع المشروع الأمريكى لينقذ سوريا لاحقًا. فتم إسقاط بن على ولاحقًا مبارك وبدء الهجوم على ليبيا وسوريا دفعه واحدة، ففى تونس حدث انقلاب عسكرى تحت غطاء الاحتجاجات الشعبية، وفى مصر الأمر نفسه، ومن تونس دخل السلاح إلى ليبيا، ومن مصر دخلت قوات شاركت فى أحداث ليبيا، ولكن مع فشل إسقاط

سوريا توقف العنف الطائفى فى مصر، وهذا يعنى أن التقسيم مجمد إلى أجل غير مسمى، و بعد أن كان مقررًا تسليم السلطة للإخوان المسلمين، جارى حاليًا تهميشهم، كون الإستراتيجية تغيرت مع عدم قدرة واشنطن على إسقاط سوريا .

فى الهجوم على سوريا : فى البداية لنطرح السؤال التالى، إذا كان عمر هيلارى كلينتون ٧٠ عامًا، وكان ساركوزى يهودى من أوربا الشرقية، فما لون الثياب الداخلية لأردوغان؟

طبعًا السؤال غريب. والجواب يكون وما دخل هذا بهذا؟ هنا نقول... هكذا بدأت الأحداث فى درعا مع فشل الدعوات عبر الإنترنت كما حدث فى مصر، فبعد دعوتين لم يخرج أى متظاهر فى سوريا، وبدأ تشغيل التظاهر قسرًا. فتم الحديث عن اعتقال مجموعه أطفال ، ولكن المظاهرات خرجت فى ١٨ مايو ضد رجل أعمال ومشغل خليوى (محمول) سوريين، وليس مثلاً ضد المشغل الثالث الذى كان من الممكن أن يكون سعوديًا أو قطريًا، وخرجت مظاهرات ضد إيران وضد المقاومة اللبنانية، فأين هى المطالب الشعبية، وأين هى الاحتجاجات؟

قد يكون من دفع للأطفال للكتابة على الجدران ومن أبلغ عنهم ومن اعتقلهم شخص واحد، فلم تتحدث السلطات السورية عن هذه القصة، ولكن هذه القصة التى كان من المفترض أن تكون سبب الاحتجاجات، لم يتم التطرق، وحسب الأفلام التى رفعها المتظاهرون فى درعا، كان هناك مستشفى ميدانى فى اليوم الأول للأحداث فى الجامع العمرى، ومن اليوم الأول كان هناك شخص واحد يرفع الأفلام على الإنترنت وليس تصوير أفلام من قبل محتجين ورفعها .

ومن اليوم الأول بدأت أعمال تمثيل الأفلام. فى اليوم الأول للأحداث سقط مدنى وما يزيد على ٢٥ رجلَ أمن سقطوا شهداء، ولكن فى الإعلام كان يتم الكلام عن مئات القتلى، وبدأ تطور الأحداث فى سوريا، فى درعا كان يخطط لتهجير كل أهالى درعا إلى غير رجعة: لأنها كانت تقف فى وجه دولة طائفية

تعتزم واشنطن إنشاءها، ولهذا كان من المفترض أن يكون هناك حرب شوارع تستنزف الجيش وتهجر الأهالى وعلى حدود محافظة مجاورة كان من المفترض أن يشب نزاع طائفى معه تفقد الدولة السيطرة على الجنوب تمامًا.

وفى الساحل يتم إثارة طائفة للهجوم على طائفة ثانية ، وحين تثور هذه الطائفة يقطع السلاح عن الطائفة الأولى لتهجيرها، ويقوم مسلحون بأعمال تفجيرات تستهدف طائفة ثالثة، فيكون هناك دولة بأمر الواقع، وفى حمص الأمر نفسه: حيث تقوم العصابات بترحيل طائفيتين من المدينة؛ وبذلك تصبح العاصمة محاصرة وهى مشغولة بأحداث فى دوما وريف دمشق وتصبح مقطوعه عن باقى سوريا فتسقط الدولة المركزية، ولكن ما الذى حدث؟

فى درعا: ذهب وفد إلى الرئيس السورى ضمنه بعض قادة العصابات المسلحة، بغض النظر عن المطالب الخدمية، ولكن يبقى الطلب الأهم هو خروج قوات الأمن من درعا، بحجة حل المشكلة مع المتظاهرين الذين لا يزيد عددهم على خمسة آلاف من أصل مليون وربع المليون مواطن، وفعلاً تم سحب كل قوات الأمن ، فاعتقد زعماء العصابات أنهم غدروا بالرئيس وأنه وقع فى فخهم، فقاموا باحتلال درعا عبر العصابات المسلحة، ومثل هذا الأمر يحتاج تدخل الجيش، لكن الجيش لم يندخل، فظننت واشنطن أن النظام ضعيف خصوصًا بعد أن أعلن النظام عن إصلاحات أصلاً لم يطالب بها المتظاهرون، فالإصلاح فى سوريا كان ردًا على الأحداث وليس مطلبًا للمتظاهرين.

و لأن الجيش لم يدخل درعا، فقد طلب الأمريكى من العصا' ات المسلحة استدعاء الجيش قصرًا، فقامت العصابات بقتل خمسة جنود سوريين بالقرب من بلدة نوى، وفعلا دخل الجيش فتفاجأ الجميع، بما فيهم إسرائيل، بقدرة الجيش؛ حيث حسم المعركة بخسائر لا تذكر.

فى بانياس: حسب موقع استخباراتى صهيونى عن رجل مخابرات أمريكية، إن الجيش العربى السورى نفذ عملية أرعبت العالم فى دقتها من خلال إبعاد سفينة

ألمانية كانت تدير العصابات فى بانياس، وبناء جدار إلكترونى سيطرت عبره أجهزة الأمن على الاتصالات، ثم دفعت بالعصابات إلى كمائن قبض فيها على كل المجرمين وقادتهم ، وخصوصًا منهم الجنسيات العربية.

فى تل كلخ: نفذ الجيش العربى السورى عملية جراحية قبض خلالها على عشرات المسحلين . وبدأ بتضييق الخناق على مهربى السلاح والإرهابيين.

فى حمص: كانت العملية الأمنية الأكبر: حيث كان الناس فى حى السباع مشغولون بالمظاهرات بينما المخابرات السورية تفكك أكبر شبكة اتصالات أمريكية، معلنة بذلك سقوط العدوان على سوريا، ويقال إنه بعد تفكيك هذه الشبكة أمر الحريرى بتشغيل مشغل خلوى ثالث فى لبنان تعويضًا عن هذا الإخفاق فى إدارة العمليات العسكرية فى الداخل السورى.

قبل أن نذكر نتائج هذه المرحلة من العدوان على سوريا، لنتذكر أنه خلال كل هذه الأحداث لم يتحرك أى من الإخوان المسلمين نهائيًا لا فى حماه ولا فى جسر الشغور.

الأمريكى يطلب الدعم: أدرك الأمريكى أن معركة الناتو فى سوريا فشلت فشلاً ذريعًا ، فكان عليه الانتقال إلى خطط بديلة. لهذا عليه أن يستدعى حلفائه وبالذات تركيا وقطر وإسرائيل. فكان التالى بعد تفكيك شبكة الاتصال الأمريكية:

١ ـ هيلارى كلنتون تقول إن الأسد قدم ما لم يقدمه رئيس آخر، وطبعًا كون آخرهم كلنتون الشعب السورى، فإن هذا الكلام يعنى أنه اذا لم تتحركوا (العملاء) فإننا سوف نفتح اتصالات مع القيادة السورية.

٢ ـ أوباما يطلب من إسرائيل العودة إلى حدود العام ١٩٦٧ كنوع من الضغط عليها.

٣ ـ عبد الحليم خدام يظهر علانية على التلفزيون الصهيونى ويطلب تدخل عسكرى تركى.

٤ ـ يتم الإعلان عن تأجيل خط نابوكو إلى العام ٢٠١٧ بعد أن كان مقررًا فى العام ٢٠١٤.

٥ ـ أردوغان يشعر بالقلق على مستقبل خط الغاز ويبدأ بالتصعيد تجاه سوريا.

٦ ـ الأسد يصدر عفوًا عامًا عن المحكومين من الإخوان المسلمين. ومن ثم فقد فشل الأمريكى والناتو فى سوريا واستدعى حلفاءه، ولكن ماذا فعل التركى والقطرى والإسرائيلى.

[٣] الخطة التركية

تبدأ الخطة البديلة فتخرج لأول مرة مظاهرات فى حماه وجسر الشغور، وطبعًا المتظاهرون هم "الإخوان المسلمين". فكانت الخطة التركية هى أن يقوم مسلحون باحتلال جسر الشغور كون عدد رجال الأمن فيها لا يزيد على ٨٠ ، فيضطر الجيش للتدخل، فيغرق فى حرب شوارع وعبوات ناسفة ويهاجر الأهالى إلى تركيا، فيتدخل الجيش التركى.

وبعد أن طلب عبد الحليم خدام علنًا على التلفزيون الإسرائيلى تدخل القوات التركية، أعلن أردوغان علنًا أن كل الخيارات متاحة تجاه سوريا بما فيها الحل العسكرى . وطبعًا تهديد إيران لتركيا بقصف القواعد العسكرية الأمريكية ليس إلا رسالة للأمريكيين ، ولكن أردوغان كان مصممًا على الخوض فى المغامرة؛ لأن مستقبله كامل متعلق بالغاز.

جسر الشغور: بدأ التنفيذ وقام ٤٠٠ مسلح بالبدء بشن هجوم على مراكز الأمن والشرطة، وحين جاءت تعزيزيات نصب لها كمين وقتل كل من فيها وحاولت مروحية التدخل فأصيبت، ونجحت العصابات باحتلال جسر الشغور، فبنى أردوغان مخيمات بانتظار دخول الجيش، بعد أن استشهد ١٢٠ رجلَ شرطة وأمن، بدأت الجزيرة ولمدة أكثر من أسبوع تكرر خبر مفاده نزوح العشرات من جسر الشغور تخوفًا من دخول الجيش، وسيدخل الجيش بسبب مقتل ١٢٠

شرطيًا يقول ناشطون إن الجيش قتلهم حسب الجزيرة، ولكن لم يدخل الجيش بل انتظر كثيرًا فى كل يوم كان يشعر المسلحون أن الجيش سيدخل. فأعلنت سوريا أن الجيش سيدخل ولكن لم يتحرك الجيش، وبعدها مظاهرات تطالب بتدخل الجيش فى جسر الشغور، واستمر الأمر أكثر من أربعة أيام حتى تمركزت قوات من الجيش على مدخل المدينة ولم تدخل.

وبعد عدة أيام أعلن التلفزيون السورى بشكل مفاجئ أن الجيش سيطر على المشفى الوطنى فى جسر الشغور، وتركيا تدرك أن المشفى الوطنى هو مقر القيادة والسيطرة؛ وبالتالى تم القبض على كل قيادات المسلحين، و مع ذلك طلب أردوغان من الجيش التركى دخول سوريا، ولكن الجيش التركى تفاجأ بوجود قوات سورية على الحدود ظهرت فجأة، ولم يعد بمقدرة الجيش التركى الوصول إلى جسر الشغور إلا بأمر حرب على سوريا، و لم يتجرأ أردوغان على التوقيع على قرار حرب، فسوريا كانت تدرك اللعبة فقامت قبل أن تدخل إلى المدينة بنشر قوات بشكل سرى على الحدود، ومع بدأ تنفيذ عملية تطهير جسر الشغور ظهرت القوات السورية للعلن، وعوضًا عن دخول القوات التركية مع كاميرا الجزيرة دخلت القوات السورية مع ٢٥ وسيلة إعلامية عالمية، وأمامهم بدأت بتنظيف المدينة من الكمائن والعبوات الناسفة، واستخراج جثث الجنود السوريين من المقابر الجماعية.

حماه واللاذقية: كانت الخطة البديلة عند الأتراك هى مفاوضة سوريا على رأس حزب الله أو تصفية القضية الفلسطينية مقابل الهدوء، وتم إشعال حماه التى كانت تشهد ـ أصلاً ـ إضرابًا بالقوة تحول إلى احتلال عسكرى. وتم قتل معظم رجال الأمن فى المدينة ومنطقة الرمل فى اللاذقية، على أمل أن يصل داوود أوغلوا ليفاوض سوريا بهم، ولكن سوريا طلبت تأجيل الزيارة ثلاثة أيام، وحين وصل لم يكن بيده أى ورقة، فقد دخل الجيش إلى حماه وقبض على العصابات المسلحة وخرج، وفى اللاذقية حسمت المعركة.

الدخول القطرى على الخط: بعد الفشل الثانى لأردوغان تدخل القطرى، بينما كان أردوغان يطلق تصريحات نارية تعبر عن الهسيتريا التى أصابته، وبطلب قطر تم تأسيس مجلس انتقالى سورى ترأسه برهان غليون دون أن يعلم، وقبض لاحقًا عشرين مليون يورو لقبول المنصب، وسمى الهرموش زعيمًا للجيش السورى الذى كان واجبه احتلال ولو ١٠٠ متر على الحدود، لكى تقوم قطر وتركيا بالاعتراف بالمجلس الانتقالى السورى كممثل شرعى لسوريا، وفى هذه الأثناء كان من المفترض أن ينقل نبيل العربى رسالة إلى دمشق، ولكن دمشق طلبت تأجيل الزيارة أربع أيام، وفعلاً تم ذلك، فقام الأمير القطرى بإطلاق تصريحه الشهير بأن الاحتجاجات فى سوريا لن تتوقف حتى يتم تلبية شروط المتظاهرين، أى الشروط الأمريكية، وكان من المفترض عند وصول نبيل العربى وبعد تصريحات الأمير، أن تكون هناك منطقة عازلة شمال سوريا، ولكن عوضًا عن تحرك المجموعات المسلحة ظهر الهرموش على التلفزيون السورى... ومن نتائج هذه المرحلة:

١ ـ إقالة وضاح خنفر من قناة الجزيرة.

٢ ـ عودة البرامج الحوارية ليدخل فيصل القاسم على خط الحرب ضد سوريا.

٣ ـ أردوغان يصاب بهستيريا التصريحات النارية، ويطلب فرض السلام بالقوة على إسرائيل، معلنًا فشله فى إسقاط سوريا، وفقدان الأمل من خط نابوكو.

٤ ـ بوادر التخلى عن الإخوان المسلمين: حيث فى مصر يظهر رئيس المجلس العسكرى بلباس مدنى، وكأنه سيصبح مرشحًا رئاسيًا، ومن جهة ثانية يترشح أحمد شفيق للانتخابات.

٥ ـ فى مصر يتم تحديد موعد للانتخابات النيابية.

٦ ـ التلميح باستهداف الجزائر كونها عقدة بوجه أمريكا.

٧ ـ نجاح سوريا فى حل مشكلاتها الداخلية دون استعمال أى من أوراق الضغط، ولهذا شهدت سوريا هدوء فى آخر أسبوعين، بل هدوء غير مسبوق.

٨ ـ ظهور تسريبات عن حرب استخباراتية يقصد بها سياسة الاغتيالات، وفعلاً حدثت عدة حوادث فى سوريا.

٩ ـ ظهور جاسوس صهيونى على التلفزيون السورى بشكل مفاجئ، يعتقد أنه بداية الرد السورى ليؤسس لمرحلة الانتقال من الدفاع إلى الهجوم.

فماذا تحمل الأيام القادمة لسوريا؟! وقد أصبح من المؤكد أن واشنطن وحلفاءها هزموا شر هزيمة فى سوريا، لدرجة أن الاتحاد الأوربى الذى يتشدق بحرية الإعلام يفرض عقوبات على قناة الدنيا.

معادلة.. إما سقوط سوريا أما سقوط الولايات المتحدة

لفهم نتائج ما يحدث على الأرض وخطره على مستقبل واشنطن، ذكرت سابقًا تزايد النفوذ الروسى فى أوربا وإفريقيا، مع تصاعد الدول الناشئة كالبرازيل وجنوب إفريقيا والهند والصين وتأثيرهم على مصالح واشنطن، وعلى وحدة حلف الناتو، ولكن هناك مخاطر أخرى أكثر كارثية على واشنطن فى حال لم تستطع وضع اليد على مصادر الغاز.

منذ العام ١٩٧٦ سحبت الولايات المتحدة ذهبها من حماية الدولار وباعته لتنقذ نفسها على حساب العالم، وأصبح العملة الوحيدة فى العالم التى لا ترتبط بالذهب، رغم أن تاريخها يقول: إذا صعد الذهب هبط الدولار وإذا هبط الدولار صعد الذهب، وطبعًا قامت واشنطن بهذه الخطوة بعد أن كادت تصل إلى الإفلاس فسرقت العالم بخطوة أحادية الجانب... ولكن اليوم هذه الخطوة لا تتكرر، علمًا بأن ديون الولايات المتحدة الفيدرالية تعادل ١٤٢٠٠ مليار دولار بعد حربيها فى العراق وأفغانستان، وما رفع سقف الدين الأمريكى إلا تأجيل للأزمة التى قد تدمر الاقتصاد الأمريكى. فى السابق كانت واشنطن تسترجع عملتها الخضراء، ومع هذا الاسترجاع كان الدولار يحافظ على قيمته، رغم أنه ليس إلا ورقة بلا معادل ذهبى، وخصوصًا حين كانت تسيطر على معظم منابع النفط وبشكل خاص فى الخليج العربى، الذى لا يسعر النفط بالدولار ويربط عملته

بالدولار فقط، بل كل الدولارات التى يقبضها يعيدها إلى واشنطن لشراء بضائع أمريكية وأسلحة وكإيداعات، فمثلاً دولة عربية واحدة لها إيداعات فى الولايات المتحدة بقيمة ٢٤٠٠ مليار دولار، ولكن فى السنوات الماضية وبعد أن أصبح الغاز ينافس النفط، وبعد كلفة الحروب التى شنتها واشنطن ولم تحصل على ثمنها، وبعدة التقارب الروسى الصينى الذى جعل من الصين قوة ترفض شراء سندات الخزينة الأمريكى، فإن مستقبل العملة الخضراء أصبح فى خطر، وما تضاعف سعر الذهب خلال السنوات السابقة إلا مؤشر انهيار العملة الخضراء، وبالتالى الأمل الوحيد لواشنطن هو ضمان بيع الطاقة بالدولار الأمريكى حتى لو لم تسيطر عليه، فجزء من حرب الغاز وهو الأخطر على واشنطن، يتعلق بالعملة الأمريكية نفسها، ولفهم شدة الخطر على واشنطن فى حال فشلت فى مد خط نابوكو لنناقش الاحتمالات الآتية:

أولاً: أن تسيطر واشنطن على غاز المنطقة، والبدء بعزل الغاز الروسى عن أوربا، فإن ذلك يمدد النفوذ الأمريكى إلى وسط آسيا، وبالتالى ستصبح واشنطن كذلك شريك فى نفط وثروات بحر قزوين.

ثانيًا: أن تفشل واشنطن فى تغذية خط نابوكو وإسقاط الجزائر، وبالتالى هناك ستة أنابيب غاز ستغذى أوربا بدون نفوذ الأمريكيين، وبالتالى يصبح الاتحاد الأوربى تحت رحمة روسيا وحلفائها، وعملة بيع هذا الغاز بيد روسيا، وبالتالى قد لا تكون الدولار، بل من المؤكد أن البيع سيكون بسلة عملات الدولار المتهاوى ليس ضمنها، ويضمن لموسكو نفوذ على ثروات بحر قزوين، وهذا يعنى تهاوى النفوذ الأمريكى من إفريقيا إلى آسيا إلى أوربا ومعه تهاوى العملة الأمريكية، فواشنطن حين شنت عدوانها على سوريا كانت تدرك أن عدم سقوط سوريا قد يعنى سقوط الولايات المتحدة الأمريكية، ولهذا من الواضح أنها كانت تملك خطط بديلة، فما الخطط البديلة؟

١ ـ توجيه ضربة عسكرية لإيران، و لكن مثل هذه الضربة قد تدمر الاقتصاد العالمى، كون أكثر من نصف بترول العالم سيكون تحت الرحمة الإيرانية، فكانت

تحاول واشنطن استخراج النفط من خليج المكسيك لعلها تؤمن بديلاً للنفط خلال فترة الحرب، ومع التسرب النفطى فشلت فى استخراج النفط، وبدأ الوقت يداهمها.

٢ ـ إسقاط سوريا فشل تمامًا ولم تتمكن من وضع يدها على المنطقة.

٣ ـ يمكن تلمس الخطط البديلة من خلال دخول القطرى على خط إنقاذ اليونان التى كانت كبش الفداء الأمريكى لأردوغان فيما لو نجحت واشنطن بإسقاط سوريا ، فمن الواضح أن واشنطن بعد أن خسرت مخططًا ضخمًا جدًا، ستعود لسياسة العصا والجزرة، فبعد أن كانت تتآمر مع التركى على اليونانى، الآن واشنطن تؤيد اليونانى ضد التركى، وقطر تستثمر فى اليونان، واليونان هى البلد المتوقع أن يدخله خط الغاز الإيرانى، فهل واشنطن ستحرك عملية السلام وتعيد محاولة جر الغاز بالطرق السلمية، أو ستقوم بالانتقال إلى تصعيد جديد تجازف فيه بكل ما تملك، من المؤكد أن سوريا انتصرت فى هذه المعركة ولكن من المؤكد أن معارك قادمة ستبدأ.

يقول الأستاذ عدنان برجى مدير المركز الوطنى للدراسات ببيروت فى مقال بعنوان "محاضر أمريكية سابقة تفضح خطط الأطلسى حاضرًا" يوم ٢/ ١٢/ ٢٠١٢: تميط اللثام مؤخرا عن بعض محاضر اجتماعات مجلس الأمن القومى الأمريكى فى صيف عام ١٩٩٠، أى قبل فترة وجيزة من الغزو العراقى لدولة الكويت. وقد جاء فى محضر الاجتماع المؤرخ فى الثالث والعشرين من شهر تموز/ يوليو ١٩٩٠، أن مستشار الأمن القومى الأمريكى فى ذلك الوقت برنت سكاوكروفت قد قال: "إن قيام العراق بعمل عسكرى ضد الكويت وإن كان سيمثل خطرًا على مصالحنا الاقتصادية فى المنطقة، إلا أنه قد يمنحنا الفرصة: لكى نقضى مع أطراف دولية على القوة العسكرية العراقية".

ويضيف فى المحضر عينه: لقد انصب اهتمامنا منذ انتهاء الحرب الإيرانية ـ العراقية على كيفية منع العراقيين من خوض حرب ضد "إسرائيل"، وقد عقد

الرئيس بوش (الأب) معنا ثمانية اجتماعات فى الشهور الماضية لبحث هذا الموضوع تحديدًا، ولتقدير خطر القوة العسكرية العراقية على مصالحنا فى المنطقة. وقد انتهينا وقتها إلى أن قيام العراق بعمل عسكرى ضد "إسرائيل" هو أخطر بكثير من قيامه بعمل ضد الكويت، على الرغم من أن تهديد الكويت سوف يؤثر على مصالحنا النفطية وعلى نفوذنا فى المنطقة، وفى حين أن الدول العربية سوف تنقسم فى مواقفها ما بين مؤيد ومعارض أو محايد بالنسبة إلى الكويت، فإنها ستؤيد جميعها العراق فى حال خوضه حربًا مع "إسرائيل".

ويتابع: "لم يحسم العراقيون مسألة خيارهم العسكرى، ونحن مازلنا نزودهم بصور الأقمار الصناعية حول سرقة الكويت لنفطهم، ومن ناحية ثانية نحن نحرض الكويتيين على عدم الاستجابة للمطالب العراقية وبضرورة ألا يسمحوا لهم بالخروج بأى مكاسب نتيجة ضغوطهم. إن المشكلة بين العراق والكويت ما زالت تحت السطح، وعندما يقوم العراقيون بخطوتهم العسكرية فسنقابلها بكل حزم".

ويؤكد "إن تدخلنا سيكون خطوة باتجاه أهداف أكبر، أولها تواجدنا فى المنطقة وسيطرتنا على النفط الخليجى والعراقى وتأمين حلفائنا الإسرائيليين والاقتراب من الخطوط السوفييتية، وتدمير الآلة العسكرية العراقية التى أصبحت تقلق "إسرائيل"؛ وثانيها أنه سيكون بإمكاننا التدخل فى شؤون أية دولة سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا، بل سيكون بإمكاننا تغيير أنظمة حكم لا نريدها مثل النظام العراقى أو القيادة الفلسطينية التى يرأسها ياسر عرفات".

ويشدد "إننا نحاول إدخال العراق فى مصيدة الكويت، وعندها سنبدأ ولن نتوقف إلا بعد إسقاط صدام حسين. سنحارب تحت علم الأمم المتحدة، وإذا تحقق النصر فسيكون لنا، وإذا تحققت الهزيمة فستكون لغيرنا. وجيشنا لن يقاتل مباشرة هناك، بل سيكون القتال من نصيب الدول العربية التى حصلنا منها على وعود بذلك. وإن قرار ضرب العراق قد اتُخذ منذ فترة، ونحتاج فقط إلى ذريعة لنسوقها فى مجلس الأمن لاستصدار قرار دولى بالأمر".

ومعلوم أن سفيرة الولايات المتحدة آنذاك فى بغداد إبريل غلاسبى قالت أثناء اجتماعها مع الرئيس العراقى صدام حسين: "إن بلادها ترغب باستقرار المنطقة، ولكنها ترغب بالدرجة نفسها فى بعودة الحقوق لأصحابها، ولذلك فإنها تؤيد العراق فى مطالبته بحقوقه التى سلبتها الكويت، وهى مستعدة لقبول توكيل العراق لها لتحصيل تلك الحقوق"، ويقول الكاتب العراقى عبدالله الجبورى: "إن السفير الأمريكى فى الكويت كان يضغط على الزعماء الكويتيين حتى لا يقدموا أية تنازلات للعراق".

قد يقول قائل إن التاريخ لا يتكرر لكننا نسأل: إذا كان الجيش العراقى يقلق إسرائيل وأمريكا مع أنه لا حدود للعراق مع فلسطين المحتلة، أفلا يقلقهما الجيشان المصرى والسورى، وهما اللذان انتصرا على الجيش الصهيونى فى حرب تشرين المجيدة عام ١٩٧٣، وهل هى صدفة أن تتزامن محاولات ضرب المؤسسة العسكرية فى مصر، التى شكلت السند الأساس لثورة ٢٥ يناير الشعبية، مع الضغط لإحداث انقسام فى الجيش السورى تحت ذريعة مواجهة النظام؟

إن الادعاءات الأطلسية والاستعمارية بحقوق الإنسان والديموقراطية ليست لها أية مصداقية، ويكفى دليلاً على كذب تلك الادعاءات ذلك الإصرار الأوربى والأمريكى، مع بعض مؤيدى الأطلسى من المصريين، على تسليم السلطة فى مصر لقيادة مدنية غير منتخبة مع أن الانتخابات هى الوسيلة الأمثل للديموقراطية الغربية. وإن الحقيقة التى لا تقبل النقاش هى أنه بعد حرب تموز التى تغلبت فيها مقاومة شعبية لبنانية على الجيش الصهيونى، وبعد تمكن شعب أعزل فى غزة من مقاومة هذا الجيش رغم استخدامه أقصى الهمجية وأكثر الأسلحة فتكًا، تأتى المحاولات الأمريكية الصهيونية، لإجهاض انتفاضات الشعب العربى من محتواها من جهة، ولتقضى على أهم جيشين باقيين حتى الآن فى المنطقة العربية من جهة ثانية.

إن ضرب المؤسسة العسكرية فى مصر وتقسيم الجيش السورى يعنى أن تصبح الأمة جسدًا بلا عمود فقرى، فيسهل حينها تفتيت كياناتها وتقسيم

مجتمعاتها ونهب ثرواتها وإقامة الإمبراطورية الصهيونية من النيل إلى الفرات، كمقدمة لمد هذه الإمبراطورية لاحقًا وفق قواعد وتبشيرات مشروع الشرق الأوسط الجديد إلى الدول الإسلامية كتركيا وإيران.

هل الحراك الشبابى العربى مخترق أمريكيًا؟

يقول الدكتور إبراهيم علوش فى مقال له يوم ٧/ ٤/ ٢٠١١ بالعنوان نفسه: "نقدم الترجمة أدناه للاطلاع على تفكير الصينيين والروس والأمريكيين اللاتينيين وغيرهم ممن لم يتعاطف مع الثورات العربية، وتعامل معها كثورات ملونة أمريكيًا أو كثورات مضادة. كما نقدمها للكشف عن الجهد الكبير والمنظم لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية لاختراق الحراك السياسى للشباب العربى. وإذا كنا لا نتفق على الإطلاق مع ما ورد فى المقالة من اعتبار كل الحراك الشبابى العربى مخترقًا وتابعًا لأجندة حكومة الولايات المتحدة الأمريكية، دون تمييز بين الحالات والدول المختلفة، والنشطاء المختلفين، والقوى والحركات المختلفة المشاركة فيه، فإن تطورات الأحداث فى ليبيا وسوريا، وتحديات الواقع الموضوعى نفسه فى مرحلة ما بعد الثورة فى مصر وتونس، باتت تطرح على الشباب العربى ضرورة إعادة قضية التناقض الرئيس مع الطرف الأمريكى ـ الصهيونى إلى رأس جدول أعماله، وضرورة جعل تلك القضية أساس حراكه السياسى والميدانى، وضرورة إعادة صياغة كل البرنامج الهادف للإصلاح الدستورى وتحقيق المطالب المعيشية وغيرها على ضوء ذلك التناقض الرئيس؛ لكى تعرف حكومة الولايات المتحدة وكل المشككين أن الشباب لم ولن يكونوا مطيةً لأحد، وأن إيقاف عجلة التطبيع وإعلان بطلان المعاهدات مع العدو الصهيونى وتجاوز حدود التجزئة العربية هو أساس التغيير الحقيقى، وأن الباقى مجرد نوافل أو مداخل أو تفصيلات. فلم يعد من المقبول القول إن التبعية للخارج قضية مؤجلة.

وقد ظهرت المقالة أدناه باللغة الإنجليزية فى ٣١/ ٣/ ٢٠١١ فى الموقع الصينى "الإعلام الرابع" The Fourth Media، وهى من تأليف الكاتبة الروسية آنا

فارفولوميفا. والمقالة عبارة عن نموذج للكثير من الكتابات الروسية والصينية وغيرها التى تتخذ موقفًا سلبيًا من الحراك الشعبى العربى، وهذه المقالة ـ بالذات انعكاس صغير وجزئى لبحث من عشرين صفحة باللغة الروسية نشر على موقع meast. ru وهو موقع "مركز بيترسبرج لدراسات الشرق الأدنى المعاصر" تحت عنوان: الدور الأمريكى فى الثورات العربية: تعبئة الاحتجاج من خلال الدبلوماسية العامة والشبكات الاجتماعية... ونلاحظ على مضض استخدام تعبير "منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا" فى المقالة للإشارة للوطن العربى، لكننا ترجمنا المصطلح كما هو. النقطة الأخرى هى أن المقالة تتناول الأمريكيين فقط، ولا تشير لما يقوم به الأوربيون بالاتجاه نفسه، وهو ليس أقل زخمًا أو خطورة... وفيما يلى نص مقالة أنا فارفولوميفا بعنوان "أداة أمريكا... مبادرة الشراكة الشرق أوسطية":

ترتبط قلاقل "الشرق الأوسط" وشمال أفريقيا، وآخرها صدامات الأردن وسوريا، بالتكنولوجيات الإلكترونية عن كثب الآن. وقد خرج تعبير "ثورات التويتر" إلى حيز الوجود، فيما يشير كثيرون لغرائب الأزمة السياسية التى شهدت التكنولوجيات الإلكترونية تفعل فعلها. وقد يكون هناك أكثر مما تراه العين فى الأحداث الأخيرة التى اجتاحت شمال أفريقيا و"الشرق الأوسط".

لم تؤدِّ أحداث ١١ سبتمبر إلى تدخل عسكرى فى "الشرق الأوسط" فحسب، ولكنها أدت لتطوير أسلحة قوة ناعمة جديدة يمكن أن تخلق دمارًا عظيمًا، وأن تقوض أى مجتمع من الداخل، على الرغم من أنها غير مرئية. ففى عام ٢٠٠١ عبأت الولايات المتحدة موارد ماليةً ضخمة، وأنشأت حوالى ٣٥٠ برنامجًا مختلفًا فى التعليم والثقافة والمعلومات للترويج للديموقراطية ولخلق جماعة جديدة من المواطنين العرب المستعدين للتركيز إيجابيًا على قيم وسياسات الولايات المتحدة. وقد تم دمج كل تلك البرامج فى مشروع واسع النطاق عنوانه "مبادرة دعم الشراكات فى الشرق الأوسط" أو "مبادرة الشراكة الشرق أوسطية" اختصارًا Middle East Partnership Initiative - MEPI. ويتم تنسيق نشاطات هذه المبادرة من المكتب الرئيس لوزارة الخارجية الأمريكية، ومن مكتبها الإقليمى فى تونس.

وقد أشارت الكاتبة ناتاليا تسفيتكوفا فى دراستها التى ظهرت فى موقع الإنترنت التابع لمركز بيترسبرغ لدراسات الشرق الأدنى المعاصر إلى ما يلى: "أولاً، لقد كانت هناك زيادة كبيرة فى عدد العرب الذين تلقوا تثقيفًا سياسيًا أمريكيًا فى الولايات المتحدة وفى بلادهم. وإذا كان هناك ألفا مواطن عربى يشاركون فى برامج التبادل أو التدريب فى الولايات المتحدة فى نهاية عام ٢٠٠٠، فقد صعد ذلك الرقم بين عامى ٢٠٠٤ و ٢٠٠٩ إلى مئات الآلاف. مثلاً، دعت وزارة الخارجية الأمريكية عام ١٩٩٨ حوالى ٣٢٠٠ من المصريين لبرنامج تدريبى للترويج للديموقراطية. وفى عام ٢٠٠٧، أصبح ذلك الرقم ٤٧٣٠٠ شخصًا، وفى عام ٢٠٠٨ بلغ عدد الذين شاركوا فى نشاطات مختلفة من هذا النوع فى مصر أو الولايات المتحدة ١٤٨٧٠٠ مصريًا".

وقد تأسست "مبادرة الشراكة الشرق أوسطية" MEPI عام ٢٠٠٢، وأعلنت عن خمسة أهداف ستتابعها فى المنطقة: تقوية المجتمع المدنى وحكم القانون، وتمكين النساء والشبيبة، وتحسين التعليم وتوسيعه، وتشجيع الإصلاح الاقتصادى، وزيادة المشاركة السياسية.

ومن أجل تحقيق هذه الأهداف، قدمت "المبادرة" المذكورة دعمًا مباشرًا للمنظمات غير الحكومية على مستوى عالمى وفى منطقة "الشرق الأوسط" وشمال أفريقيا، وللمؤسسات التعليمية، ولمؤسسات الحكم المحلى، ومؤسسات القطاع الخاص، لتنفيذ مشاريع مصممة للانخراط مباشرة مع شعب منطقة "الشرق الأوسط" وشمال أفريقيا والاستثمار فيه. وحسب موقع "مبادرة الشراكة الشرق أوسطية" على الإنترنت، فإنها وزعت فى عام ٢٠٠٩ وحده أكثر من خمسين مليون دولارًا من المنح لهذا الغرض، ويقول بيانٌ آخر على موقع "المبادرة" بأنها تسعى فى النهاية لإعادة إنتاج علاقة الولايات المتحدة مع مواطنى منطقة "الشرق الأوسط" وشمال أفريقيا، وأن حكومة الولايات المتحدة تسعى من خلال مشاريع "المبادرة" لجعل مواطنى المنطقة ينظرون للولايات المتحدة كشريك فى جهودهم لخلق التغييرات الإيجابية فى مجتمعاتهم.

وقد عانت الولايات المتحدة ردحًا طويلاً من صورة شديدة الإشكالية فى المنطقة مع كثير ممن يعارضون أفكارها وقيمها. لكن الكمية المعتبرة من المال المستثمر فى المبادرة الجديدة نتج عنه على ما يبدو بعض التغيير الإيجابى بالنسبة إلى الولايات المتحدة.

وقد نظمت "مبادرة الشراكة الشرق أوسطية"، فيما نظمته، برامج مرتكزة على التعليم، مثل: المنح الجامعية، وبرامج تعلم الإنكليزية، وتكنولوجيا التواصل الاجتماعى. وقد استهدفت تلك البرامج المتعلمين الصغار والناضجين ومعلميهم، مركزةً فى العادة على الفئات الأقل حظًا.

وحسب موقع "المبادرة" على الإنترنت: "من أجل ديمومة ونمو مجتمع مدنى قوى، فإن الأمر الحاسم هو أن يتقدم إلى الأمام" الجيل التالى" من القادة المسلحين بالتدريب والخبرة فى بناء الائتلافات والقيام بالحملات السياسية والتفاوض السلمى لتجشم عبء أدوارهم القيادية. إن "مبادرة الشراكة الشرق أوسطية" تمكن أولئك القادة والناشطين الطامحين، من خلال برامج التبادل، أن يزيدوا من فهمهم للقيم الديموقراطية والحكم الرشيد وحكم القانون من خلال تعريضهم وخوضهم للحوارات مع نظرائهم فى الخارج". ويضيف الموقع: "تسعى المبادرة لإلهام الشباب؛ لكى يصبحوا مواطنين وقادة مجتمع محلى ورواد أعمال مندفعين بنشاط".

وإذا أبقينا ما سلف رهن أعيننا، فإنه لا يعود مفاجئًا أن يصبح صغار السن قوة الدفع الأساسية خلف القلاقل فى المنطقة. فذلك لم يكن فقط لأن الناس الأكبر سنًا غير منخرطين باستعمال التكنولوجيات الحديثة، بل لأن كبار السن لم ينخرطوا فى دراسة الفلسفة "الصحيحة".

ويستطيع المرء أن يلاحظ أن الصدامات التى "ألهمت" كثيرين عبر المنطقة بدأت فى تونس ـ البلد الذى يقع فيه المكتب الإقليمى لـ "مبادرة الشراكة الشرق أوسطية".

بيد أن فكرة القوة الناعمة الجديدة لا تكتمل بدون توصيف "الدبلوماسية الالكترونية"، أو "دبلوماسية تويتر". وهى مبادرة أخرى أطلقتها حكومة الولايات المتحدة الأمريكية... ففى عام ٢٠٠٢، أطلق السفير جيمس هولمز، رئيس مجلس الصداقة التركى ـ الأمريكى منذ عام ٢٠٠٤، برنامج "قوة عمل الدبلوماسية الإلكترونية"، وفى عام ٢٠٠٣ تمت إعادة تنظيم قوة العمل تلك فى مكتب رسمى تابع للحكومة الأمريكية هو "مكتب الدبلوماسية الإلكترونية"... ومهمة هذا المكتب هى أن يكون مركز دراسات وأبحاث لتطبيقات تكنولوجيا الاتصالات الإلكترونية يتبع لوزارة الخارجية الأمريكية.

وفى يوليو ٢٠٠٩ نشرت مجلة بيزنس ويك Businessweek المعروفة، سبقًا صحفيًا عن تطبيقات دبلوماسية التويتر والخطوات الأولى فى ذلك الاتجاه. وقالت المجلة وقتها: "وزارة الخارجية الأمريكية تجند شركات وادى سيليكون (فى كاليفورنيا حيث ولدت البرمجة وتكنولوجيا الحاسوب ـ المترجم) مثل شركة جوجل وتويتر، للمساعدة بإدخال تلك التكنولوجيا المتقدمة إلى العراق وأفغانستان"... وقد زار جاك دورسى ـ أحد مؤسسى تويتر ـ وعدة قادة شركات تكنولوجيا أمريكية بغداد وقتها. ومع أن جاك دورسى أصر بأن "تكنولوجيا مثل تويتر يمكن أن تجعل الحكومات أكثر انفتاحًا وشفافية" فإن السبب الرئيس لاستقدام تلك التكنولوجيا كان مختلفًا على ما يبدو.

ويعلق سبنسر إ. أنتى، مؤلف مادة "دبلوماسية تويتر" فى مجلة بيزنس ويك فى هذا السياق: "لقد كان جاك دورسى جزءًا من أول وفد من نوعه ينشؤه المديرون التنفيذيون لوزارة الخارجية الأمريكية من ممثلى شركات جوجل وشركة الاتصالات الأمريكية AT&T وعدة شركات ناشئة فى وادى سيليكون، ليذهب للعراق لمقابلة المسئولين الحكوميين وقادة الشركات الخاصة والطلاب؛ ليقدم لهم أفكارًا حول استخدامات التكنولوجيا هناك. ومع أن فكرة الترويج لتويتر فى بلد تمزقه الحرب ولا يمكن الاعتماد على تياره الكهربائى قد تبدو بعيدة المنال، فإن مندوبى الوفد وجدوا جمهورًا متجاوبًا أمامهم".

ويضيف واضع التقرير سبنسر إ. أنتى: "يجادل جارد كوهين ـ مدير دائرة التخطيط السياسى فى وزارة الخارجية الأمريكية ـ بأن الولايات المتحدة تتمتع بفرصة فريدة لفتح أبواب الخارج بفضل قوة قطاعها التكنولوجى، بخاصة أن الشبان حول العالم يستخدمون تلك التكنولوجيا بشكل متصاعد ليتعارفوا، ويحرضوا، وينظموا".

واليوم نستطيع أن نرى أن المبادرات التى أطلقتها وزارة الخارجية الأمريكية خلال العقد الأول من القرن الجديد قد عادت عليها بنتائج مثمرة، فالشبان المستخدمون النشطون لوسائل الاتصالات الجديدة، باتوا بالفعل القوة التى استطاعت أن تغير الأنظمة السياسية فى "الشرق الأوسط" وشمال أفريقيا. لقد أصبحوا أداة الأجندات الخفية، ويقول المثل القديم: "ليس هناك شىء اسمه غداء مجانى" وهو مثل لا يزال صالحًا بلا استثناءات.

ويقول الكاتب والمحلل السياسى الدكتور سيد محمد الداعور فى مقال له بمجلة "الجزيرة" يوم ١٦ مارس ٢٠٠٤ بعنوان "مشروع أمريكى يرسم خريطة جديدة للمنطقة... الشرق الأوسط الكبير أم الجديد؟"

ينظر العرب بريبة وتوجس إلى المشروع الأمريكى الجديد فى المنطقة، الذى يهدف، حسب ما تعلنه الولايات المتحدة الأمريكية، إلى تشجيع ودعم الإصلاحات السياسية والاقتصادية، ونشر الديموقراطية فى العالم العربى ودول إسلامية أخرى، دون التعرض للصراع العربى الإسرائيلى، الذى يعتبر المسبب الرئيس للأزمات والمشكلات التى عصفت بالمنطقة وما زالت. وسوف يشمل هذا المشروع الذى سُمىَ بـ (مبادرة الشرق الأوسط الكبير)، والذى يروج له هذه الأيام الساسة الأمريكيون، بدءًا بالرئيس جورج بوش ونائبه ديك تشينى، مرورًا بوزير الخارجية كولن باول، ومستشارة الأمن القومى جونزاليزا رايس، وانتهاءً بكبار المسئولين فى البيت الأبيض ووزارة الخارجية ومراكز صنع القرار الأخرى، المنطقة الممتدة جغرافيًا من موريتانيا غربًا إلى أفغانستان شرقًا، مرورًا بإسرائيل وتركيا وإيران.

وقد سبق لإسرائيل أن طرحت مثل هذه المشاريع للمنطقة، وكان آخرها، بل أخطرها، رؤية رئيس وزرائها الأسبق شمعون بيريز فى أوائل التسعينيات لـ (الشرق الأوسط الجديد) التى عنون بها كتابه الشهير (The New Middle East) الذى نُشر فى عام ١٩٩٣، والتى كانت تطمح فى الظاهر إلى جمع دول الشرق الأوسط فى سوق مشتركة بعد تحقيق السلام المزعوم، بحيث يعزز قيام هذه السوق المصالح الحيوية ويصون السلام على المدى البعيد، ولكنها تخفى أجندة أخرى كانت تدور فى مخيلة بيريز وهى دمج إسرائيل فى المنطقة بعد إعادة صياغتها وتشكيلها لتصبح (الشرق الأوسط) وليست (العربية)، وتصبح إسرائيل هى الدولة المهيمنة والمسيطرة على مقدرات المنطقة كونها رأس الجسر للمشروع الغربى الاستعمارى منذ إقامتها فى عام ١٩٤٨... وقد كشف بيريز عن نياته وأهدافه الحقيقية فى مقابلة صحفية نشرتها (فصلية الشرق الأوسط) فى مارس ١٩٩٥، حين رد على سؤال حول قول سابق له مفاده أن هدف إسرائيل المقبل يجب أن يكون الانضمام الى جامعة الدول العربية، قائلاً: "أعتقد أن جامعتهم (العربية) يجب أن تُسمى جامعة (الشرق المتوسط)، وعندئذ يمكن لإسرائيل أن تنضم إليها. نحن لن نصبح عربًا، ولكن الجامعة يجب أن تصبح شرق أوسطية... لقد أصبحت الجامعة العربية جزءًا من الماضى".

وكانت صحيفة الواشنطن بوست هى أول من أفصح عن هذه المبادرة الأمريكية الجديدة، حين ذكرت فى ٩/ ٢/ ٢٠٠٤ أن إدارة الرئيس الأمريكى جورج بوش تعمل على صياغة مبادرة طموحة لتعزيز ونشر الديموقراطية فى (الشرق الأوسط الكبير)، وذلك بإعادة تكييف وتعديل نموذج استعمل من قبل فى الضغط من أجل نشر الحريات فى الاتحاد السوفيتى وأوربا الشرقية.

وقد بدأ بالفعل كبار المسئولين فى البيت الأبيض ووزارة الخارجية محادثات مع حلفاء أوربيين رئيسين حول رسم مخطط شامل لعرضه على مؤتمرات القمة المقررة لهذا العام ٢٠٠٤ لكل من مجموعة الدول الثمانى الكبرى، ومنظمة حلف شمال الأطلسى والاتحاد الأوربى... ونقلت الصحيفة عن مسئولين أمريكيين

وأوربيين قولهم إنه بالدعم والمساندة الدولية، تأمل الولايات المتحدة كسب التزامات فعلية من الأقطار الشرق أوسطية، والشرق آسيوية، لتطبيق إصلاحات سياسية واقتصادية واسعة. ومساءلتها عن سجلها فى حقوق الإنسان. وأضافت الصحيفة أنه لإعطاء هذه الدول حافزًا على التعاون، ستعرض الدول الغربية زيادة توسيع نطاق تعاملها السياسى وزيادة المساعدات وتسهيل عضوية منظمة التجارة العالمية وتعزيز ترتيبات الأمن. وأوضحت أن المبادرة اتخذت نموذجًا لها معاهدة هلسنكى لعام ١٩٧٥ التى وقعتها ٣٥ دولة من ضمنها الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى بالاضافة إلى معظم دول أوربا.

بوش يؤكد المبادرة

وقد جدد الرئيس الأمريكى جورج بوش خلال اجتماعه مع المستشار الألمانى جيرهارد شرودر فى البيت الأبيض فى ٢٨/ ٢/ ٢٠٠٤ دعوته لدول الشرق الأوسط لإجراء إصلاحات سياسية. واعتبر بوش أن فترة ما بعد إسقاط طالبان فى أفغانستان نموذجًا للتغيير السياسى، وأعرب عن اعتقاده بإمكانية تكرار التجربة فى دول أخرى بإقامة مؤسسات ديموقراطية. وقال بوش إن هذه التجربة تشكل ميراثًا يجب العمل من خلالها لتغيير ما سماه عادات العنف والخوف والإحباط، التى غرست بذور الإرهاب وأدت إلى نموه فى الشرق الأوسط على حد زعمه... وأنه من الضرورى إقامة المؤسسات الديموقراطية التى تستجيب لتطلعات الشعوب.

وأصدر بوش وشرودر بيانًا مشتركًا، أكدا فيه تنسيق التعاون مع أصدقاء وحلفاء البلدين فى أوربا وفى (الشرق الأوسط الكبير) للاستجابة للنداءات التى تطلق من أجل الإصلاحات فى المنطقة وتطوير اقتراحات محددة. وأوضح البيان أن هذه المقترحات سترفع إلى قمة مجموعة الثمانى والقمة الأمريكية الأوربية وقمة حلف الأطلسى التى ستعقد فى يونيو ٢٠٠٤، وأضاف البيان أنه يجب بناء (شراكة حقيقية تصل أوربا وأمريكا بمنطقة الشرق الأوسط بالمعنى العريض، وتهدف إلى التعاون مع دول وشعوب هذه المنطقة من أجل تحقيق هذه الأهداف

والعيش جنبًا إلى جنب بسلام)... وأما نائب الرئيس الأمريكى ديك شينى فقد تحدث أثناء حضوره المنتدى الاقتصادى العالمى فى دافوس فى ٢٤/ ١/ ٢٠٠٤، قائلاً: إن إستراتيجيتنا من أجل الحرية تلزمنا بدعم أولئك الذين يعملون ويضحون من أجل الإصلاح على امتداد الشرق الأوسط الكبير. ونحن نناشد أصدقاءنا وحلفاءنا الديمقراطيين فى أى مكان وفى أوربا بشكل خاص أن ينضموا إلينا فى جهدنا هذا. لقد شاهدنا الحركة نحو الإصلاح فى الشرق الأوسط الكبير... فى المغرب والأردن ومصر والمملكة العربية السعودية)... ومن ناحيته قال وزير الخارجية الامريكى كولن باول فى ٩/ ٢/ ٢٠٠٤ إن هذا المشروع يهدف إلى الجمع بين مختلف أشكال المساعدات، والتشجيع على تحقيق تقدم على طريق الإصلاحات الاجتماعية والسياسية والانفتاح على اقتصاد السوق. وأضاف إن الخطة تهدف إلى الجمع بين ما يتم تحقيقه حاليًا فى هذا المجال، وما يمكن أن يتم تحقيقه لنرى كيف يمكن إعطاء طابع مؤسساتى لكل ذلك... وفى حديث له مع قناة (الحرة) الفضائية الأمريكية الناطقة بالعربية فى ٢٤/ ٢/ ٢٠٠٤، حاول باول طمأنة الدول العربية والإسلامية حول المبادرة الجديدة، وادعى أنها لن تفرض عليهم بالقوة وسيتم تطبيقها من خلال التنسيق والتعاون مع الأطراف المعنية لتحقيق مصلحة الجميع.

الخطوط العريضة للمشروع

يعتبر مشروع (الشرق الأوسط الكبير) أن المنطقة تقف على مفترق طرق، وأن المطلوب هو السير فى طريق الإصلاح الذى (استجاب له عدد من الزعماء). وأن بلدان مجموعة الثمانية الصناعية أيدت هذا الخيار ، منوهًا بـ (الشراكة الأوربية المتوسطية)، و (مبادرة الشراكة بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط)، وجهود إعادة الإعمار المتعددة الأطراف فى أفغانستان والعراق.

وتسعى واشنطن للحصول على تأييد كامل من مجموعة الدول الثمانى لمبادرتها هذه، وتعدّ لإطلاقها فى قمة دول المجموعة فى سى آيلاند فى ولاية جورجيا الأمريكية، فى يونيو المقبل.

وتحدد ورقة العمل هدف المشروع بـ (الحفاظ على مصالح الولايات المتحدة الأمنية ومصالح حلفائها)، وتركز على الدفع باتجاه (إعادة تشكيل) منطقة الشرق الأوسط عبر الإصلاح الاقتصادى والاجتماعى. وإذ تتحدث الورقة عن (تشجيع الديموقراطية والحكم الصالح)، فإنها ترمى إلى تغيير سياسى على المدى الطويل، مما يعنى تغيير الأنظمة. هذا التغيير ينطلق من منظور أمريكى ووفقًا لتقويم أمريكى لمنطقة واسعة، تعتبرها واشنطن ذات نمط واحد ولا تمايز فيها، ويرى فيه محللون سياسيون أيضًا مشروعًا قائمًا على فرض نموذج وقيم أمريكية بشكل أبوى، ويحمل فى طياته خطرًا حقيقيًا نظرًا إلى تعقيد الأمور فى دول المنطقة، التى بدأت مسارًا إصلاحيًا فى ظل وضع معقد وحسَّاس. ولا تتضمن ورقة العمل أية إشارة إلى موافقة المنطقة على المشروع الذى لا يمكن أن يكون أكثر فاعلية لو حظى بتشاور أوسع.

لذا يطرح المحللون تساؤلات عن سبل إنجاح مثل هذه الشراكة دون حل للصراع العربى الإسرائيلى وفى غياب الاستقرار فى العراق.

وإذ توحى الخطوة الأمريكية بأن مجموعة الدول الثمانى تحولت حلفًا سياسيًا للحفاظ على مصالح تعتبرها الإدارة الأمريكية (مشتركة)، فإن الدول الصناعية نفسها لم تستشر مسبقًا. ويقول خبير أوربى: إن ما حاولت أوربا تجنبه من خلال رفضها الحرب على العراق، قد تجد نفسها مضطرة إليه من خلال تورطها فى هذه (الشراكة) المبهمة، التى قد تحول مجموعة الثمانى إلى أداة لهيمنة الولايات المتحدة التامة على أوربا التى تمثل أحيانًا للدول العربية بديلاً عن سياسة أمريكية غير مقبولة فى الشرق الأوسط.. وتثير المبادرة الأمريكية عدة أسئلة:

فهل تضمنت شيئًا جديدًا لم تشر إليه سلسلة المبادرات الأمريكية العديدة السابقة؟ وهل لها فرصة للتحوّل إلى خطة دولية، وبالتحديد إلى مشروع أوربى أمريكى مشترك؟ وما موقف الحكومات والشعوب العربية والإسلامية منها؟. إن القراءة السريعة لنص المشروع لا توحى بأى جديد فى الواقع، سوى محاولة إلباس سلسلة المبادرات الأمريكية السابقة رداءً عمليًا من خلال بعض الاقتراحات

التنفيذية. فقد اعتمد المشروع بشكل كثيف على تقرير التنمية البشرية التابع للأمم المتحدة الذى وضعه عدد من المثقفين والخبراء العرب، كأساس لتحليل أوضاع الشرق الأوسط، وكمنطلق لتحديد المناهج والحلول. كما كرر بشكل حرفى بنود مبدأ الرئيس الأمريكى جورج بوش حول (الإستراتيجية المتقدمة للديمقراطية فى الشرق الأوسط)، ومبدأ وزير الخارجية كولن باول حول (الشراكة الأمريكية الشرق أوسطية).

وهكذا خرجت المبادرة بالأهداف الرئيسة المكررة الآتية:

١ ـ تشجيع الديموقراطية والحكم الصالح فى المنطقة.

٢ ـ بناء مجتمع معرفى.

٣ ـ توسيع الفرص الاقتصادية.

هذه العناوين النظرية الرئيسة تفرعت إلى عناوين فرعية تنفيذية. ففى باب (تشجيع الديموقراطية) دعت إلى دعم الانتخابات الحرة فى الشرق الأوسط، من خلال المساعدات التقنية والتدريب على الصعيد البرلمانى (خاصة للنساء)، والمساعدة القانونية للناس العاديين، وتطوير وسائل الإعلام المستقلة، وتشجيع دول المنطقة على مكافحة الفساد ودعم قيام المجتمع المدنى. وعلى صعيد بناء المجتمع المعرفى، وضعت سلسلة مبادرات لدعم التعليم الأساسى، ومحو الأمية، وسد النقص فى الكتب التعليمية، وإصلاح برامج التعليم، ونشر الإنترنت.

أما بالنسبة إلى الهدف الثالث، وهو توسيع الفرص الاقتصادية، فقد اقترحت إنشاء صناديق عدة لتمويل ما سمته (تجسير الهوة الاقتصادية للشرق الأوسط الكبير)، تتضمن صندوقًا لتمويل المشاريع الصغيرة، ومؤسسة المال للشرق الأوسط الكبير (لدعم الأعمال المتوسطة والكبيرة)، وبنك تنمية الشرق الأوسط الكبير (لمساعدة الدول الساعية للإصلاح على توفير احتياجات التنمية)، والشراكة من أجل نظام مالى أفضل، إضافة إلى تسهيل انضمام دول الشرق الأوسط إلى منظمة التجارة العالمية، وإنشاء مناطق التجارة الحرة لتشجيع التبادل الإقليمى والمشاريع الإقليمية المشتركة.

ويعلّق بيتر سينجر ـ مدير مشروع السياسة الأمريكية نحو الشرق الأوسط فى مؤسسة بروكينجز على هذا المشروع ـ قائلاً: (إنه يأتى بعد سلسلة طويلة من الوعود الأمريكية غير المثمرة لتحقيق الإصلاحات فى العالم الإسلامى، لقد مل الناس خطابًا مليئًا بالوعود يطبق على خناق خطاب، ولا شىء ينفذ).

ويقول الخبير الأمريكى فى شئون الشرق الأوسط مارك وولترز: (من حيث الشكل تبدو المبادرة إيجابية للغاية. لكن من الصعب أن نصدق إلى أن يتم توفير التمويل الذى يغطى كل هذه المشاريع)، ومعروف أن الإدارة الأمريكية لا تُخصص سوى أموال قليلة لمشاريعها الديموقراطية فى الشرق الأوسط، وعلى سبيل المثال لم تحصل مبادرة الشراكة الأمريكية الشرق أوسطية، والتى أطلقت عام ٢٠٠٢ برعاية إليزابيث تشينى، ابنة نائب الرئيس الأمريكى تشينى فى عامها الأول سوى على ٢٩ مليون دولار، واضطرت إلى الانتظار سنة كاملة وسط احتجاجات صاخبة من جانب مسئولى وزارة الخارجية الأمريكية قبل أن تحصل على ١٠٠ مليون دولار إضافية... ومع ذلك، يؤكد مسئول أمريكى أن كل هذه الأموال (لا تزال فى المصارف) وأن تنفيذ البرامج (بطىء للغاية إلى درجة أننا يجب أن ننتظر جيلاً كاملاً قبل أن نرى بدايات التغيير، ربما ٥٠ عامًا أخرى)... ويرى الكثير من المحللين أن هذه المبادرة لنشر الديموقراطية فى كل أنحاء (الشرق الأوسط الكبير) تأتى لتغطية الفشل الأمريكى فى تحقيقها فى (الشرق الأوسط الصغير) المتمثل فى أفغانستان والعراق، إضافة إلى تعثّر تطبيق خارطة طريق السلام الفلسطينى الإسرائيلى... ويقول بعض هؤلاء إن إدارة بوش تريد عبر هجومها الديموقراطى الكبير، الإيحاء للأمريكيين فى السنة الانتخابية الراهنة بأن مشكلات العراق وأفغانستان وفلسطين، ليست سوى خدوش على سطح مشروع أمريكى أكثر طموحًا لنشر الحرية والديموقراطية والقيم الأمريكية السامية فى منطقة يعتبرها الناخبون مهمة فى تشكّل هويتهم المسيحية.

باتت الولايات المتحدة بكل أطيافها السياسية منذ ١١ سبتمبر ٢٠٠٠ جادة ومصممة على إحداث تغييرات فى الشرق الأوسط، وهذا ما أكدته الحملات

الانتخابية الأمريكية الأخيرة، حيث بدا واضحًا أن المرشحين الديموقراطيين للرئاسة ينتقدون سوء أداء إدارة بوش فى العراق وأفغانستان وباقى دول الشرق الأوسط. لكنهم لم يعلنوا معارضتهم لبرامج وخطط بوش لتغيير الأمر الوضع الحالى فى المنطقة، وتدور الشكوك حول الأهداف الحقيقية للتغيير الذى تريده الإدارة لا حول التغيير نفسه، وهى شكوك تتضخّم كثيرًا فى أوربا. لماذا؟ هذا التساؤل يقود إلى السؤال الأول حول فرص تحول المبادرة الأمريكية إلى مبادرة دولية أو أوربية أمريكية... لقد أعلن المسئولون الأمريكيون أنهم ينوون طرح هذه المبادرة على ثلاث قمم ستُعقد فى صيف هذا العام: قمة الثمانى الكبار فى ولاية جورجيا الأمريكية، وقمة حلف الأطلسى فى إسطنبول، وقمة الاتحاد الأوربى. لكن هل أوربا حقًا لديها رغبة فى الانضمام إلى أمريكا فى مشروعها الطموح هذا؟

لا أحد. لا فى الغرب الأوربى القديم، ولا فى الغرب الأمريكى الجديد يشك بأن لأوربا مصلحة إستراتيجية عُليا فى نجاح مشروع الشرق الأوسط الكبير. فهذه المنطقة فى نهاية المطاف هى الحديقة الخلفية للإمبراطورية الأوربية الناشئة، وهى بهذه الصفة قادرة على أن تكون، إما جنة غناء لأوربا، إما جهنم حمراء.

سيساعد الشرق الأوسط الديموقراطى المستقر والمزدهر والآمن على تحول أوربا إلى دولة عظمى مكتملة النمو، بخاصة إذا ما تم دمج هذه المنطقة الحيوية بالعولمة الرأسمالية عبر البوابة الأوربية، بينما الشرق الأوسط الديكتاتورى والفقير والمتفّجر، سيجعل المصير الأوربى نفسه يتأرجح على كف عفريت، ليس فقط بسبب الخطر الإرهابى وأسلحة الدمار الشامل والصواريخ العابرة للقارات، بل أيضًا بسبب الزحف الديموجرافى العربى والإسلامى الذى يُمكن أن يغيّر كل التركيبة السكانية الأوربية، هذه هى رؤيتهم التى تتملك قناعاتهم... ولكن الأوروبيين يشكون فى أن الولايات المتحدة ليست جادة فى مشروعها الديموقراطى، ولو أنها كانت كذلك، لسارعت قبل أى شىء آخر إلى إغلاق ملف

الصراع الفلسطيني الإسرائيلي الذى من دونه لا استقرار ولا أمن فى المنطقة. ويشكون فى أن هدف واشنطن الحقيقى هو احتلال الشرق الأوسط الكبير لا تحريره... والهدف النهائى هو السيطرة المطلقة على نفطه.

والأهم، أن الأوربيين تساورهم الشكوك فى أن مشروع الشرق الأوسط الكبير الأمريكى، هو فى حقيقته مخطط كبير لتحويل الحديقة الجغرافية الخلفية لأوربا إلى حديقة عسكرية سياسية أمريكية متقدمة تُحيط بها من كل جانب وتحاصرها من كل ناحية. وهذا بالطبع فى إطار (لعبة الشطرنج الكبرى) التى تحدث عنها مستشار الأمن القومى الأمريكى السابق زبيجنيو بريجينسكى، والتى تهدف إحكام القبضة على قارة أورآسيا برمتها عبر السيطرة على الشرق الأوسط.

وإذا كان الأمر على هذا النحو بالنسبة إلى حلفاء أمريكا الأوربيين، فكيف سيكون بالنسبة إلى الشعوب العربية؟... إن التحدى الحقيقى للمبادرة الأمريكية يكمُن فى شك إن لم يكن رفض الشعوب العربية لها، وهو رفض لا ينبع من رفض للديموقراطية والحريات، بقدر ما هو إدانة للسياسات الأمريكية فى المنطقة، بخاصة إزاء الصراع العربى الإسرائيلى. لقد أوضح استطلاع للرأى، أجرته مؤخرا مؤسسة أمريكية أن ٩٤٪ من المصريين لا يثقون بالولايات المتحدة.

ورغم شعارات الديموقراطية والاصلاح البراقة التى تحاول إخفاء أهداف الهيمنة والتطويع التى ينطوى عليها المشروع الأمريكى الجديد، فإن مشاعر الكراهية والعداء ضد السياسات الأمريكية من قبل العرب وفقدان الثقة بالإدارة الأمريكية الحالية، تبقى فى مقدمة العقبات التى ستؤدى إلى إجهاض المشروع الأمريكى الجديد قبل أن يبصر النور... كيف يصدق العرب أن المشروع الأمريكى المطروح يهدف إلى خدمة مجتمعاتهم وتطويرها وتحسين أدائها السياسى والاقتصادى والاجتماعى، فى حين أن السياسة الأمريكية على أرض الواقع تهدم كل مقومات النهوض والتطور والتقدم فى تلك المجتمعات، وتساعد على انتشار بؤر التطرف وتناميها بعد أن أسهمت السياسات الأمريكية فى زرع بذور العنف والتطرف فى الأوساط العربية والإسلامية لحضهم على محاربة السوفييت

الشيوعيين الكفرة فى أفغانستان... لقد تم تأسيس تنظيم "القاعدة" وبروز "الأفغان العرب" برعاية ودعم مباشر من الأجهزة الأمريكية، التى تعمل حاليًا على محاربة الإرهاب وتعقب جماعات القاعدة فى كل أنحاء المعمورة. كيف يمكن الوثوق فى المشروع الأمريكى الجديد وما يحمله من شعارات العدالة والتحديث والتطوير والاستقرار الاجتماعى، وكل الدلائل تدين هذا الانحياز الأمريكى الأعمى إلى جانب دولة الاحتلال الصهيونى، التى تسبب وجودها وسلوكها فى عرقلة مسيرة التطوير والاستقرار فى المنطقة العربية والإسلامية.

كيف يمكن لأى مواطن عربى أن يسلم بما ورد فى المشروع الأمريكى من كلمات معسولة عن الحرية والديموقراطية، وهو يشاهد يوميًا كيف تذبح الحرية والديموقراطية فى المنطقة العربية كلها بالسلاح الأمريكى... وسوف نأخذ مثالاً عمليًا، فجًا وفاجعًا فيما يتعلق بالواقع والمستقبل العربيين، ويوضح بجلاء العدوان الكاسح من المنظومة الإمبريالية والصهيونية وفجرها... فى جنوب السودان يحتاج ٢,٧ مليون شخص فى جنوب السودان إلى مساعدات غذائية خلال سنة ٢٠١٢ بسبب ضعف المحاصيل وعدم انتظام نزول الأمطار، والعنف، مما تسبب فى ارتفاع كبير لأسعار المواد الغذائية... ويستورد جنوب السودان (٨,٣ مليون نسمة) معظم احتياجاته الغذائية من السودان. لكن التجارة عبر الحدود تعثرت بسبب اشتباكات مسلحة، ولجأ أكثر من ٨٠ ألف شخص إلى جنوب السودان من ولايتين حدوديتين فى السودان؛ حيث يقاتل الجيش متمردين منذ أشهر، وتدفق ٣٥٠ ألفًا من الجنوبيين عائدين من السودان بعد "الاستقلال"، وسيواجه جنوب السودان عجزًا غذائيًا قدره ٤٠٠ ألف طن من الأغذية سنة ٢٠١٢، بينما بلغ معدل التضخم خلال شهر تشرين الثانى ٧٨,٨ ٪ ، وارتفعت الأسعار بالفعل إلى المثلين أو ثلاثة أمثالها فى بعض المناطق مما يجعل مئات الآلاف من الأطفال عرضة لسوء التغذية، ويعمل برنامج الغذاء العالمى للأمم المتحدة على جمع ٩٢ مليون دولار لتلبية حاجات سكان جنوب السودان "المستقل" للأشهر الأربعة الأولى من سنة ٢٠١٢ (رويترز ١٦/ ١٢/ ٢٠١١)... وقد زار رئيس جنوب السودان

(سيلفا كير) فلسطين المحتلة يوم ٢٠/ ١٢/ ٢٠١١ والتقى مع شمعون بيريز ونتانياهو وليبرمان وإيهود باراك، ومن جملة ما صرح به: " لقد قاومتم إلى جانبنا، ومكنتمونا من إنشاء جمهورية جنوب السودان، ولولاكم ما كان لنا وجود... أتمنى تدعيم وتعميق العلاقات الإستراتيجية بين دولتينا، وتوسيع نطاق التعاون العسكرى إلى البنى التحتية والفلاحة وتطهير المياه والتكنولوجيا المتطورة" ووصف شمعون بيريز الزيارة بالتاريخية (عن يو بى آى ٢٠/ ١٢/ ١١ت).

ويقول الكاتب العراقى أبو بكر الزوبعى فى مقال له بعنوان "رامسفيلد يفضح السيستانى":

أخيرًا أبصرت النور مذكرات دونالد رامسفيلد ـ وزير الدفاع الأمريكى الأسبق ـ التى فجرت فضيحة من العيار الثقيل لم تكن بعيدة عن رصد المتتبعين للمرجع الغامض المتوارى فى سراديب النجف على السيستانى... رامسفيلد أكد استلام السيستانى ٢٠٠ مليون دولار ليساعدهم على غزو العراق. وليصدر فتاوى تحرم قتال الأمريكيين فى العراق. فى أكبر صفقة دينية سياسية فى تاريخ البشرية... ويعتبر هذا الاعتراف الأكثر شراسة على مدى تاريخ الإدارة الأمريكية. دليلاً جديدًا على تورط كبير للسيستانى فى مساعدة ودعم الاحتلال الأمريكى فى غزو العراق، وتحدث رامسفيلد فى فصل من مذكراته عن ما أسماه "علاقة قوية" ربطت بينه وبين السيستانى. قبل وبعد وأثناء الحرب على العراق.

وقال رامسفيلد: إن علاقة صداقة قديمة قامت بينه وبين السيستانى ترجع إلى علم ١٩٨٧ أثناء إعداد السيستانى لتسلم مهمام المرجعية بعد الخوئى... وهذا دليل آخر أن لعبة المرجعية الدينية الشيعية تدار بأصابع المخابرات الأمريكية والموساد. وأضاف وزير الدفاع الأمريكى الأسبق: أن الاتصال بينهما كان يتم عن طريق وكيله فى الكويت جواد المهرى. جواد المهرى الذى كان ولا يزال واحدًا من الصناديق السوداء المهمة التى تعرف عن المرجع المتوارى عن الأنظار. والذى لم يقم بزيارة مرقد الإمام على منذ أكثر من ٣٠ سنة. وهو الذى يقيم على بعد أمتار من المرقد الشريف.

وأردف رامسفيلد بأن الإدارة الأمريكية قدمت هدية لأصدقائها فى العراق على رأسهم السيستانى قدرها ٢٠٠ مليون دولار. وبعد قبول السيستانى للهدية "أخذت علاقاتنا معه تتسع أكثر فأكثر، وبعد أن علم الرئيس بوش بتسلم السيستانى للهدية قرر فتح مكتب فى وكالة المخابرات المركزية، وسُمِى مكتب العلاقات مع السيستانى، وكان يرأس المكتب الجنرال المتقاعد فى البحريه سايمون يولاندى، لكى يتم الاتصال وتبادل المعلومات عن طريق هذا المكتب. وفعلاً تم افتتاح المكتب وعمل بكل جد ونشاط، وكان من ثمار هذا العمل المتبادل صدور فتوى من السيستانى بأن يلزم الشيعة وأتباعه بعدم التعرض لقوات التحالف التى وصلت للحدود مع الكويت إبان الغزو الأمريكى للعراق.

وأشار رامسفيلد إلى لقاء حدث مع السيستانى قبل الغزو فقال: "اتصل الجنرال سايمون يولاندى مع النجل الأكبر للسيستانى محمد رضا الذى كان يأخذ راتبًا شهريًا من الحاكم المدنى الأمريكى بول برايمر بصفة مستشار بعد الاحتلال، وكان الجنرال الذى انتقل مع فريق عمله من واشنطن إلى العراق فى قصر الرضوانية، أحد المبانى التى كانت من ضمن القصور الرئاسية التى تمتع بها الرئيس العراقى صدام حسين، وتم من خلال هذا الاتصال إجراء لقاء سريع وسرى مع السيستانى فى مدينة النجف. وفعلاً اتصل بى الجنرال يولاندى وأخبرنى عن لقاء السيستانى هذه الليلة ولم أكن أتوقع أن يجرى اللقاء بهذه السهولة لمعرفتى المسبقة بأن من يتسلم مهام السلطة المرجعية فى العراق تكون حركاته وتصرفاته محسوبة بما يمتلك هذا المقام من روحية لدى عموم الشيعة فى العالم والعراق بالخصوص"... وأضاف رامسفيلد فى مذكراته، "كنت فى تلك اللحظات أجرى لقاء على شبكه فوكس نيوز من بغداد مباشرة، وبعد لقاء فوكس نيوز توجهنا إلى مدينة النجف عن طريق سرب من المروحيات التابعة لقوات التحالف، وقد وصلنا إلى مدينة النجف فى وقت متأخر من الليل، وعندما رأيت السيستانى أخذنى فى أحضانه، وقبلنى أكثر من مرة رغم إننى لا أستسيغ ظاهرة التقبيل بالنسبة إلى الرجال وتحاورنا عن أمور كثيرة كان من الحكمة أن نأخذ رأى أصدقائنا بها وبالخصوص مثل السيسانى".

وقال رامسفيلد: "وفعلاً تم التوصل إلى اتفاق مضمونه أن يصدر الزعيم السيستانى فتوى تحظر استخدام هذه الأسلحة ضد قوات التحالف، وكان لهذه الفتوى الفضل الكثير لتجنب قوات التحالف خسائر جسيمة".

ولعل من بين الأسماء الأكثر ترددًا فى مذكرات بريمر بعنوان "عامى فى العراق" هو على السيستانى، الذى يصفه منذ البداية بأنه متعاون جدًا من أجل مساعدة القوات الأمريكية على تحقيق أهدافها. ويقول بريمر: "شجع القادة الشيعة، بمن فيهم آية الله السيستانى، أتباعهم على التعاون مع الائتلاف منذ التحرير (صفحة ٧٥). وأيضًا أكد بريمر أنه كان على اتصال دائم بالسيستانى للاستفادة من استخدامه فى السيطرة على الشعب العراقى، لكن ذلك لم يتحقق بالصلة المباشرة، بل كان يتم عبر وسطاء عدة منهم حسين الصدر، وموفق الربيعى، وعماد جعفر، وأحيانًا عادل عبد المهدى، وأحمد الجلبى. فالسيستانى يفضل أن لا يجتمع مع أحد من الائتلاف؛ لأنه كما فسر ذلك أحد مساعدى بريمر، لا يحتمل أن يُشاهد علنًا بأنه يتعاون مع القوى المحتلة، فثمة أطياف لسنة ١٩٢٠، وما صاحبها، وعليه أن يحمى جانبيه من المتهورين مثل مقتدى، لكن آية الله سيعمل معنا فنحن نتقاسم الأهداف نفسها (صفحة ٢١٣ ـ ٢١٤).

ولكى لا يسىء بريمر فهم السيستانى، لم يبخل السيستانى فى أن يرسل رسالة له يبلغه أنه لم يمانع الاجتماع به بسبب عدائه للائتلاف، بل إن تجنب الاتصال العام مع الائتلاف يتيح له أن يكون ذا فائدة أكبر فى مساعينا المشتركة، وأنه قد يفقد مصداقيته فى أوساط المؤمنين به إذا تعاون علنًا مع مسئولى المخابرات الأمريكية.

سوريا معركة فاصلة "نكون أو لا نكون"

الدكتور سلمان محمد سلمان أستاذ الفيزياء النووية والطاقة العالية، العربى من قليقلة بفلسطين، كتب يوم ٣٠ ديسمبر ٢٠١١ تعليقًا عامًا على المشهد السورى بكل جوانبه، كان ضمن ما جاء به:

رغم حجم سوريا الصغير نسبيًا: فإن معركتها الدائرة تمثل مفصلاً تاريخيًا بأبعاده العالمية. وتفسير هذا الادعاء يتطلب تحليلاً متأنيًا... يستسيغ طرف ما اتهام الطرف الآخر بتبنيه "نظرية المؤامرة" كمبرر لرفضه لمواقف ذلك الطرف التى لا تناسبه، وهذا أصبح نمطًا مألوفًا، ونظرية المؤامرة عادة ما يتهم بها معارضى الغرب فقط. أما عندما يتهم الغرب الآخرين بالتآمر فإن هذا يسمى "تحليلاً علميًا" واجبًا ومقبولاً... ومن ثم علينا قبول ما يحدث فى سوريا من تزمير إعلامى يتهم النظام بأغرب أنواع التآمر كتحليل علمى، مع أنه "تزمير" ملفق وكاذب، أما تقديم تحليل يثبت وجود مؤامرة متصلة منذ قرن مضى، فتلك هى نظرية المؤامرة المرفوضة من الغرب.

والحقيقة أن السياسة العالمية تشمل دائمًا مؤامرات مستمرة، ودور السياسيين الأهم يتلخص فى مواجهة مؤامرات الخصوم والتآمر عليهم... وقد قلنا سابقًا إن معركة سوريا ستحتدم فيما إذا سقطت ليبيا؛ لأن معادلة أفريقيا العربية تصبح أكثر طواعية للغرب حين تفقد مصر دورها الثورى المميز. وحين تحاصر من جهة حدودها الغربية. وحين يبدو ـ للوهلة الأولى ـ انتصار الإسلاميين فيها كأنه صفعة للغرب، رغم أنه يمثل العكس تمامًا... ثم تأتى معركة سوريا الآن لتكون المفصل فيما يأمل الغرب فى تحققه، وأهمه حسب المشروع الغربى للمنطقة: ١ ـ تفكيك تركيا (رغم تعاون أردوغان) وإيران من خلال ثورات شبيهة بما سميت بثورات "الربيع العربى". ٢ ـ أمل خيالى "بربيع روسى" لا يعتد به كثيرًا، لكنه يستحق المحاولة من وجهة النظر الغربية. ٣ ـ وحتى لو لم يتحقق الربيع الروسى ونجح التغيير فى سوريا وتركيا وإيران، فذلك ربما يكون كافيًا لتحجيم قوة مجموعة "بريكس" التى تمثل الآن نصف الكرة الأرضية سكانًا وتعادل الغرب اقتصاديًا خلال عشر سنوات. ٤ ـ عندئذ تكون المرحلة اللاحقة تفكيك السعودية وإقامة دولة على محيط الخليج تشمل عرب الأهواز غرب إيران وشيعة شرق السعودية وجنوب العراق. ومثل هذه الكتلة لن تزيد سكانيًا على ٢٠ مليون نسمه لكنها تتحكم بحوالى ٧٠٪ من نفط الشرق،

وسوف تكون معادية لإيران وللعرب، وربما تحلم قطر بزعامتها. ٥ ـ وسيتم العمل على إقامة الوطن البديل للفلسطينيين فى الأردن. وهذا الكيان، ضمن معادلة الشرق الجديدة، لن يمثل خطرًا على إسرائيل. بل سيكون مواليًا لها بكل الأبعاد... حاليًا يصطدم مشروع الوطن البديل بسوريا المقاومة: لأن هناك خوفًا حقيقيًا فيما لو أُسقط النظام فى الأردن وأقيمت دولة فلسطينية. أن تتحالف مع سوريا وتصبح قاعدة مقاومة. ٦ـ العمل بجدية على إقامة دولة كردستان على أنقاض تفكيك تركيا وإيران وسوريا، وستكون أيضًا معادية لمحيطها. ٧ ـ فوق هذا وإن أمكن يتم العمل على إقامة دولة القفقاس من مسلمى روسيا. ٨ ـ وإن تحقق ذلك فلن يبقى أمام الهند إلا الاستسلام للغرب. ولن تستطيع الصين مواجه العالم وحدها... عندها ستكون نهاية التاريخ والحضارات باستسلام الحضارة الإسلامية من خلال الإسلاميين أنفسهم...

وهذا يعنى قرنا غربيا آخر، يتحقق خلاله تحريك الحضارة الإسلامية ضد نفسها لتمثل رافعة هدم للقوى المواجهة للغرب. كما استخدم الجهاد "الإسلامى" فى أفغانستان من قبل فى تهديم السوفييت. وكل ذلك من أجل أن يفرح سذج من الأحزاب الإسلامية بتحقق نصر عظيم رغم معرفة قياداتهم بالدور المحدد لهم غربيًا .. هكذا هم يأملون، وهذا هو جوهر نظرية "نهاية التاريخ" لفوكوياما و"صراع الحضارات" لهنتنجتون... اللذين مثلا محرك السياسة الأمريكية والأوربية منذ انهيار السوفييت، وكانت باكورتها تهديم العراق. والحقيقة أن الحل المأمول هنا أفضل من سيناريو هنتنجتون الذى توقع استسلام الحضارة الإسلامية بالقوة، وليس من خلال تعاون الحركات الإسلامية لإحداث هذا الاستسلام.

وإذا أضفنا للتخطيط السياسى خلفية النبوءة التوراتية. نجد انسجامًا كافيًا لتناغم مواقف قطاعات كبيرة من ذوى الأجندات الخاصة من رأسماليين وصهاينة وأصوليين... وحسب النبوءة التوراتية فإن نهاية العالم تبدأ بتدمير العراق (معركة هرمجدون)، يتبعها سيناريو غربى يسمح بتداخل أوهام تكفى لتجنيد الأصوليين... طبعًا ليس هناك مبرر لتصديق حصول كل هذا، وليس كل

ما يخطط له الغرب يتحقق فعلاً... لكن هزيمة المشروع الغربى لن تتحقق بالتأكيد على يد الإسلاميين الحاليين؛ لأنهم اختاروا طوعًا الاندراج ضمن معادلة الغرب فى ثورات "الربيع العربى".

فى النهاية لن ينجح المشروع الغربى حتى لو سقطت سوريا، لكن عملية إفشاله إذا تأخرت، تكون أكثر تكلفة بالتأكيد... قبل ليبيا كان يمكن للمشروع التوقف هناك لو وقفت روسيا بقوة كما تقف الآن، ولما سقطت ليبيا، ولما تمكن الإسلاميون من تحقيق نجاحات انتخابية بهذه السرعة رغم انكشاف دورهم التابع للغرب، ولما فقد التيار القومى ومشروعه المقاوم الكثير من زخمه، ولما تغيرت مسيرة الثورة التونسية، وربما كان أمكن لثورة مصر أن تتطور بشكل يحفظها ويستوعب دورًا شريفًا للإسلام السياسى... إن تكاليف سقوط ليبيا الباهظة على المشروع المقاوم، أنتجت تضاعف الحملة ضد سوريا كما نرى الآن، كما أنتجت انهيار خطوط مقاومة ثوار مصر واستسلام ثورتها للغرب، وانكشاف دور الإسلاميين التابع واصطفافهم ضد القضايا المركزية العربية.

ويبقى السؤال لماذا يغامر الغرب بمشروع فاشل إستراتيجيًا؟ والإجابة هى أن الإستراتيجية الغربية لمنافسة القوى الأخرى، تقول بالمحاولة: لأن النصر غير المضمون أفضل من الاستسلام. فوق هذا فإنه لا يستبعد استعداد الغرب للحرب لتحقيق مشروعه عُنوة.

بالنسبة إلى الغرب الرأسمالى تعتبر المعركة مسألة وجود. وفى هذا تشابه مع حال ألمانيا واليابان عندما قررتا شن الحرب العالمية الثانية؛ لأن التحليل الإستراتيجى فى حينه أثبت أن أمام ألمانيا فرصة محدودة من ٥ ـ ١٠ سنوات لاحتمال النصر، وما بعد ذلك فالنصر غير ممكن، وقد غامرت ألمانيا وفشلت.

ارتفاع ثمن معركة سوريا

تتركز الحملة الآن بشكل هستيرى ضد سوريا بعد أن قطع الغرب خطوة كبيرة مكنته من التحدث عن ثورات إسلامية غير معادية لإسرائيل وحليفة للغرب...

وكما يبدو فقد تنبهت كتلة "بريكس" وروسيا بشكل خاص، للخطأ الكبير الذى ارتكبوه حين سمحوا بسقوط ليبيا، لذلك تتشبث روسيا بشكل فوق عادى ببقاء سوريا، وأعتقد أنها سوف تستمر كذلك طالما بقى خط "بوتين" سائدًا.

سياسة أردوغان تكاد أن تقضى على تركيا، فحكومة "العدالة" التركية تعمل كمن يحمل المنشار ويقص الغصن الذى يجلس عليه. وسبب مبالغة حكومة أردوغان فى القيام بالدور السلبى يتلخص فى تخويفها من تقسيم تركيا إن لم تشارك، وفى تقديم وعود غربية زائفة بدور مهم لكن غامض لها فى إدارة الشرق الإسلامى، وفى وعود أكثر زيفًا بدور أكبر ضمن جمهوريات الترك السوفيتية وقوقاز روسيا، والتلويح بدور أوربى لتركيا مشروط بنجاح إسقاط سوريا... هكذا وعود الغرب مكشوفة بدرجة كبيرة، لكنها تعمى على من لا يريد معرفة الحقيقة والجبان... وقد عميت حكومة أردوغان وجبنت حين اعتقدت أن إسقاط سوريا سينهى مسلسل التغيير، وسيحمى تركيا من التقسيم. وزاد من طمأنتها تشجيع الإسلاميين العرب، عن بكرة أبيهم تقريبًا، لهذا الدور الغر والمغفل.

ولكن لماذا يقبل الإسلاميون العرب هذا الدور السيئ مع الغرب منذ إسقاط ليبيا؟ وتكمن الإجابة فى أن الوعد الغربى كان بسيطًا: مصر وتونس كانتا أصلاً بقبضة الغرب، وأى تقدم للإسلاميين فيهما نحو السلطة والحكم، هو هبة غربية، وطبعًا مقابل ثمن.

تمثل الثمن المطلوب من الإسلاميين مقابل إعطائهم دورًا فى حكم مصر وتونس، فى تقديم العون فى إسقاط ليبيا وسوريا، وقد قاموا بدورهم بكل حماس على الجبهتين. وكان الأمل كبيرًا بسقوط سوريا خلال شهر واحد بعد سقوط ليبيا، مما دفع الجميع للاستبسال ضدها واشتراك تركيا المتربصة وتعاونها ضمن نفس الصفقة. وظهر ذلك أكثر فى الحملة التى قادتها الجامعة العربية ودول الخليج خلال الشهرين الماضيين ضد سوريا. وراهن كثيرون على تراجع أو جُبن روسيا أمام إجماع عربى وغربى ضد النظام السورى كما حصل فى ليبيا... وقد تبين أن هناك ثلاثة عوامل لم يعطها العرب والغرب التقدير الكافى مما عطل تحرك قطار إسقاط سوريا:

العامل الأول: إصرار إستراتيجى للروس وحلفائهم على منع أية محاولة تحت أى شعار لتكرار سيناريو الموقف الدولى كما حدث فى الحالة الليبية، بما يعنى عدم التخلى - بأى حال - عن النظام السورى لأسباب كثيرة، منها قناعة الروس بقوة النظام. وعدم انهياره فى حالة توقف العنف واللجوء للحوار السياسى، وتمسك روسيا بمنع حصار سوريا أمنيًا أو عسكريًا.

العامل الثانى: تماسك سوريا داخليًا، فلم تنشق قوى عسكرية ذات قيمة، ولم ينفرط عقد القيادة السياسية. ولم تنجح محاولات التخريب فى انتزاع مناطق يمكن الادعاء بسقوط الدولة فيها.

والعامل الثالث: غامض وناتج عن العاملين السابقين، وهو تردد بعض القوى وبدء تخوفها من مجمل أهداف المشروع الغربى. وقد تجلى ذلك فى تذبذب تركيا وبعض ملامح التخوف فى السعودية ومصر من توسع الصراع بنشوب حروب إقليمية مدمرة. بسبب التضامن الإيرانى دون تحفظ مع جبهة المقاومة العربية بقيادة سوريا.

لقد فشل المشروع الغربى حتى الآن فى اختراق الجبهة السورية سياسيًا أو عسكريًا رغم المحاولات العربية المساعدة، ولم يبق إلا ممارسة عمليات التخريب والإرهاب... إن فشل المشروع الغربى فى سوريا سيوقف قطار الربيع العربى ويفاقم من هزيمة الأمريكيين فى العراق، رغم الوضع العراقى المائع والتهديد بتقسيمه، وقضية الهاشمى، والتفجيرات المتصاعدة التى تمثل كلها عناوين لهذا الصراع...

لماذا لن ينتصر الغرب؟!

لن ينجح المشروع الغربى فى سوريا تكتيكيًا ومرحليًا للأسباب المتقدم ذكرها، لكن فشلة الإستراتيجى محتمل لأسباب أعمق قد تشمل تطورات عالمية فى المدى المنظور... بالنسبة إلى كتلة "بريكس" فإن توقف قطار الإغارة على سوريا، يعنى بقاء إيران وتراجع تركيا لاحقًا، وانكشاف دور الإسلاميين العرب التابع للغرب.

لكن توقف النفوذ الغربى فى المنطقة يعادل نهاية النظام الرأسمالى الغربى المتوحش، وقد تمادى النظام الى درجة حدوث ملل حقيقى لدى الشعوب الغربية نفسها منه، والى درجة قيام مطالبات لقوى كبيرة فيها تطالب بتغييره... لكننا نعتقد أن تلك القوى لن تستطيع فى المدى القريب وحدها إسقاط النظام الغربى، لكن توقف المشروع الغربى فى الشرق ونمو اقتصاديات "بريكس" هو الذى سوف يقلب المعادلات الدولية الرئيسة.

إن نفوذ كتلة بريكس وحلفائها عالميًا يبز الغرب ديمجرافيًا وجغرافيًا ويعادله عسكريًا، وخلال فترة عشرة سنوات سيعادل الغرب اقتصاديًا ويزيد بأكثر من الضعف خلال ٣٠ عامًا. وإذا ما تبنت كتلة بريكس دورًا أكثر إنسانية من الغرب ووقفت ضد تطور الرأسمالية المتوحشة، فهناك فرصة كبيرة فى بدء هجوم عكسى لإسقاط النظام الرأسمالى من خلال جماهيره نفسها خلال عشرين عامًا... وعلى الجانب الآخر، فإنه إذا نجح الغرب فى إسقاط سوريا فسوف يكسب فترة لصالحه قد تمتد إلى عشرين عامًا، ومن المحتمل أن تطول هذه المدة بحسب تطور الجبهات الأخرى؛ حيث ربما تؤدى انهيارات أكبر فى تركيا وإيران وبعض روسيا الى تراجع لجيلين أو أكثر.

إن سقوط الغرب الرأسمالى سيتم فى النهاية، لأسباب تتعلق بالتطور التاريخى الطبيعى. إن نجاح المشروع المعاكس وتوقف المشروع الغربى بسبب صمود سوريا سيسرع العملية كثيرًا، وربما يجعل تكاليفها أقل بالمقارنة مع غير ذلك... ولأن الأمر كذلك فإن الغرب يستبسل فى الهجوم، فليس هناك خيارات كثيرة أمام الرأسمالية إلا تحولها لما بعد الرأسمالية، والمحاولات المحمومة لن تغير كثيرًا من النهاية؛ لأن بشاعة الرأسمالية تزداد رسوخًا لدى الشعوب كافة أكثر من أى وقت مضى... والغرب يحاول وسوف يستمر فى المحاولة، مستغلاً أن العولمة قضت على الترابط القومى فى المجتمعات. والشرق الأوسط الجديد هو أكبر محاولة للعوم ضد التاريخ، ولأنها المحاولة الوحيدة الباقية فهذا يفسر شراسة الهجوم الغربى... فهو "صراع بقاء" بالمعنى الحقيقى والتاريخى.

مستقبل الحركات الإسلامية

لا نقصد هنا دور الإسلام عمومًا، ولكن دور الأحزاب الإسلامية الموالية تاريخيًا للغرب، والتى ظهرت مقاومة له خلال فترة وجيزة بين ١٩٩٠ و ٢٠١٠ حين نبذهم الغرب، وكان ذلك تطبيقًا لإستراتيجية تصفية الإسلام التى لم تنجح وتم التحول لإعادة استخدامهم كما كان الحال خلال الحرب الباردة.

وللوهلة الأولى تبدو الأيام مشرقة بالنسبة إلى هذه الحركات التى قبل الغرب إشراكها بنسبة كبيرة فى أدوات الحكم ضمن المشرق العربى، وكما يبدو فهم سعداء بالدور ويمنون أنفسهم بالنصر (تصريحات الأحزاب الإسلامية فى تونس ولقاء غنوشى مع معهد واشنطن، وتصريحات الناطق باسم حزب النور المصرى باستعداد الحزب للتحاور مع إسرائيل، وعلاقة المجلس الانتقالى الليبى مع فرنسا وبرنارد ليفى الصهيونى الأمريكى ودعم الناتو، وفتاوى القرضاوى فى مواجهة سوريا المطالبة بالتدخل الأجنبى، وقبول كلينتون مشاركة الإسلاميين فى الحكم، وتوحد مواقف الإخوان المسلمين فى الحالة المصرية والتونسية والليبية والسورية رغم العلاقة الخاصة بحماس، وتخلى معظم كتاب الإخوان وحماس عن سوريا، ومناصبتهم العداء لها، ومشاركة القوى الإخوانية فى العنف المسلح فى كل من ليبيا وسوريا، وعدم مشاركتهم فى الثورة فى بداياتها فى تونس ومصر، وقرارات الجامعة العربية بتجميد عضوية ليبيا، واللجوء لمجلس الأمن من الأيام الأولى للثورة فى ليبيا، وتحريض أمين عام الجامعة العربية لأمريكا والغرب يوم ١٢ مارس ٢٠١١ لفرض حظر جوى على ليبيا، الذى تحول بعد ذلك إلى غزو مسلح، والإصرار على محاولة تدويل الأزمة فى سوريا لولا رفض الروس لذلك)... ولم يفكروا فى أن اختيارهم التحالف مع الغرب الاستعمارى العدوانى، إنما هو ضد التطور الطبيعى والمنطقى للتاريخ ولقيم العدل، بل ولقيم الإسلام نفسه... ولو اختاروا بدلاً من ذلك الوقوف بالصف الملاصق للوطن لأمكن اعتبارهم أحد القوى الفاعلة فى صنع المستقبل الجديد. لكن ذلك صعب بحكم تركيبتهم وأولويات اهتمامهم ونشأتهم. لذلك ستفقد الحركات الإسلامية بنمطها الحالى

أى دور إستراتيجى إيجابى خلال عشرة أعوام مهما كانت نتائج الصراع: فإن نجح الغرب كليًا، فلن يكون هناك دورًا مقبولاً للحركات الإسلامية إلا حكم الشعوب الإسلامية ضمن منظومة الغرب كما هى حال دول الخليج الآن، وهذا طبعًا لا علاقة له بمشاريع الإسلام السياسى التى تطرحها تلك الأحزاب... بالمقابل إذا سقط المشروع الغربى فسوف تفقد هذه الأحزاب أى دور مهم لها؛ لأن الحركات القومية التى تستوعب الإسلام ستكون بديلا أكثر فعالية لمواجهة المشروع الغربى، ولأن منظومة الدول المواجهة للغرب ستشجع ذلك... ولأن الأمر الطبيعى هو أن تكون قيادة الأمم لأبنائها المعبرين عن هويتها وعن مصالحها، لذلك فإنه من غير الممكن استمرار الفصل القسرى بين الإسلام وبين القومية والوطنية. كما أنه من المستحيل تخيل وجود حزب بريطانى مثلاً يتبنى القضاء على الإنجليز لصالح المسيحية... وهذا هو برنامج معظم حركات الإسلام السياسى فى المنطقة العربية، التى تعتبر القومية العربية نوعًا من العصبية ومن الجاهلية... بينما هم الذين - بالقطع - "يجهلون" أنه كما أن للعروبة خصوصية إسلامية، فإن للإسلام خصوصية عربية!

اختراع تنظيم "القاعدة"!

فى تقديرنا أن الكذبة الأولى من الأكاذيب الثلاث الأكبر فى كل التاريخ، هى أن أمريكا واحة الديموقراطية فى العالم، ومن ثم فإنها تعطى لنفسها الحق فى أن تفرض "ديموقراطيتها" على العالم جبرًا إن لم يكن اختيارًا، بغض النظر عن عربدتها التى تتمدد بطول سطح الكرة الأرضية وعرضه؛ لتسحق فى طريقها موارد وطاقات أوطان وكرامات بشر، كما تسحق قيمًا ومبادئ ومؤسسات، وأول ما تسحقه هو "القانون الدولى" ذاته الذى هو فى النهايات العظمى قانون أمريكى، أو قانون القوة الأمريكية... والكذبة الثانية هى أن العراق كان يمتلك أسلحة للدمار الشامل، ومن ثم فإن هذا الإدعاء كان الأرضية التى انطلقت منها الإغارة الأمريكية/ الأوربية/ العربية على العراق فى مارس ٢٠٠٣، بغض النظر عن سرقة ونهب الثروات والموارد الاقتصادية الهائلة فى العراق، التى يأتى على

قمتها البترول الذى يعتبر العراق ثانى منتج له عالميًا بعد السعودية، بالإضافة إلى أنه الأول عالميًا أيضًا فيما يتعلق بـ "الاحتياطى الإستراتيجى المؤكد" منه... وبغض النظر عن استشهاد مليون ونصف مواطن عراقى منذ بدأت الإغارة حتى اليوم، إضافة إلى خمسة ملايين من اللاجئين وهو الرقم الأكبر للاجئين من وطن واحد على مستوى العالم.

وبغض النظر ـ وتلك هى قمة المأساة ـ عن الاعتراف الكامل والمباشر لكل من بوش وبلير بعد مغادرتهما للسلطة بأن العراق لم يكن يمتلك أسلحة دمار شامل... والكذبة الثالثة هى التى تعالجها هذه السطور، وهى أن أسامة بن لادن كان يقود تنظيمًا باسم "القاعدة" وأن هذا التنظيم هو الذى يقود الإرهاب فى العالم، ويعكر صفو السلم العالمى من خلال تمدده فى معظم الدول، وأن خلاياه "اليقظة" وتلك "النائمة" هى مصدر كل القلاقل التى جرت وتجرى على سطح الكرة الأرضية منذ العام ٢٠٠١ حتى الآن، وأصبح ادعاء الانتشار السرطانى لهذا التنظيم والتخويف من بطشه، ورقة ضغط أمريكية أخضعت بها نظم حكم ومؤسسات محلية ودولية لإرادتها... هذا بغض النظر عن الحقائق التالية:

أولاً: خلال أكثر من عشر سنوات بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ وحتى الآن، لم يتم الكشف فى أمريكا أوى مكان آخر فى العالم عن وثيقة مكتوبة أو مسموعة أو مرئية، أو شاهد إثبات، يثبت أو يؤكد أو حتى يقدم قرينة أو يقيم احتمالاً بأن هناك تنظيم اسمه "القاعدة" بقيادة بن لادن، وأنه التنظيم الذى شن هجمات سبتمبر على الأرض الأمريكية.

ثانيًا: إن تصريحات بن لادن وأعوانه بعد ما حدث فى سبتمبر ٢٠٠١، وبعد ما علقت الإدارة الأمريكية ذلك الذى حدث فى رقبته، تصريحاته بأن تنظيم "القاعدة" الذى يقوده هو الذى نفذ الهجوم، إنما هو أمر طبيعى لرجل جاءه مجد يسعى تحت قدميه، وقد صدق الرجل هذا الادعاء وصدقه معه كثيرون فى العالم، وهو الأمر الذى مكن الإدارة الأمريكية من "حبك" الأسطورة، ومن ثم تحويل ما حدث إلى عملية "ابتزاز تجارى" كاملة وهائلة المردود بشكل فاق كل

التوقعات... فقد صورت الميديا الأمريكية الموضوع على أنه "إرهاب إسلامى" موجه إلى أمريكا المسيحية، ثم بدأ انتشار تعبير "إسلاموفوبيا"، ومن ثم احتلت أمريكا أفغانستان المسلمة بحجة مواجهة هذا الإرهاب الإسلامى المدعى، وبذلك نهبت موارد البلاد الاقتصادية وعلى رأسها البترول والأفيون من ناحية، ثم وضعت قدمها وخنجرها فى خاصرة الاتحاد السوفيتى السابق أو روسيا الحالية من ناحية أخرى، ثم انطلقت ـ لتؤكد ذلك وتحميه ـ فاحتلت بنجاح مذهل العراق المسلم أيضًا... ومزقت لبنان والصومال والسودان واليمن وليبيا، وتحاول نفس الشىء حاليًا مع سوريا... والبقية على الطريق حتى يتحقق ما توعدت به كونداليزا رايس وزيرة الخارجية الأمريكية السابقة عام ٢٠٠٥ حين قالت "لا بد من تقسيم المنطقة إلى ٧٣ دولة، ومصر هى الجائزة الكبرى".. فوق كل ذلك فقد بدأت أمريكا منذ اليوم الأول لأحداث سبتمبر فى ابتزاز السعودية (باعتبار أن بن لادن سعودى الأصل) حتى دفعتها إلى إنفاق مليارات الدولارات إما لتحسين صورتها (السعودية) لدى الرأى العام الأمريكى عن طريق شركة دعاية وإعلان أمريكية (!)، أما لإبرام صفقات سلاح متتالية منها أكبر صفقة سلاح فى التاريخ بقيمة ٦٠ بليون دولار لتشترى بها أكوامًا من الحديد بمسمى أسلحة، لن تستخدم قطعة واحدة منها ضد إسرائيل (!).

ثالثًا: إن إمكانية توفير أربعة طيارين ـ على الأقل ـ على أعلى درجة من الكفاءة والمهارة والتدريب القتالى الطائر، بل والدراية الكاملة المتخصصة بهندسة بناء مركز التجارة العالمى بمدينة نيويورك، بحيث إن الطائرة التى هاجمت البرج قد صوبت قذائفها إلى زاوية معينة فى المبنى هى أضعف زاوية فيه، وأن البرج لم يكن ليتهاوى منهارًا لو أنه قد ضرب من أى زاوية غير تلك الزاوية... ثم طائرة ثانية تمكنت من تدمير ملحقًا لمبنى وزارة الدفاع الأمريكية "البنتاجون"، لا يبعد سوى أمتار قليلة عن مكتب وزير الدفاع الأمريكى نفسه... ثم تنطلق الطائرات الأربع من أربع مطارات أمريكية مختلفة، وفى توقيتات محسوبة ومتناغمة زمنيًا، ثم لا يتم إسقاط أيًا منها... إن هذا الذى حدث فوق الأرض الأمريكية وأمام

أعين كل آلاتها العسكرية والمخابراتية ووسائل التتبع والمراقبة وغير ذلك، ليس فوق إمكانيات وقدرات تنظيم عادى يقوده رجل بدوى، أعلى كفاءة لدى كوادره لا تتعدى القدرة على استخدام السلاح الآلى الشخصى... بل إن ذلك الذى حدث يفوق قدرات دول وجيوش، وإلا أخبرونا ـ يومها أو الآن ـ عن اسم الدولة التى كانت تستطيع، أو تستطيع اليوم القيام بذلك الذى حدث على الأرض الأمريكية بكل تفاصيله، حتى لوكانت روسيا أو الصين؟!

رابعًا: إن بن لادن وأنصاره من "المجاهدين المسلمين ضد الغزو الشيوعى" هم منذ البداية صنيعة أمريكية كاملة، حين نظمتهم ودربتهم ومولتهم أمريكا ودفعت بهم إلى أفغانستان لمحاربة الاحتلال السوفيتى لها... وبعد انسحاب القوات السوفيتية من أفغانستان اختلف شركاء الأمس لألف سبب وسبب، وتحولوا إلى أعداء يتربص كل منهم بالآخر، كنوع من "تخليص الحق".

خامسًا: لا يستطيع أحد أن يصدق بسهولة أن أمريكا كانت عاجزة ولمدة عشر سنوات عن أن تقتنص بن لادن وتقتله، بخاصة أنه كان لم يكن يتحرك إلا بين افغانستان وباكستان فقط، وكلتا الدولتين تعتبر إلى حد ما ـ ومنذ عشر سنوات ـ أرضًا مباحة لأمريكا إن بالاحتلال المباشر كما هو الحال فى أفغانستان، أو بالنفوذ المباشر كما هو الحال فى باكستان... ومن ثم ينتصب أمامنا احتمالان لا ثالث لهما الأول: إما أن يكون بن لادن كان قد تم قتله منذ عاد إلى أفغانستان من السودان عام ١٩٩٦، ولم يكن ممكنًا أمريكيًا إعلان ذلك فى حينه، حتى يبقى الرجل وتنظيم القاعدة فزاعة تخيف بها أمريكا من تريد إخضاعه أو ابتزازه، والثانى: أن الرجل كان معتقلاً لدى أمريكا أو أفغانستان أو باكستان أيضًا منذ العام ١٩٩٦، وظل كذلك تحينًا للوقت المناسب لإعلان مقتله... وجاء الإعلان فى ذروة الإغارة الأمريكية الأوربية على ليبيا، واغتيال ابن القذافى وثلاثة من أحفاده فى غارة جوية أمريكية على منزله فى طرابلس، وأيضًا قتل عديد من المدنيين والعسكريين وتدمير منشآت وأسلحة فى ليبيا بدون أى سند أو منطق أو مبرر سوى الرغبة المسعورة فى اقتناص البترول الليبى واحتلال ليبيا وتقسيمها،

والضغط على مؤسسة الحكم فى مصر من موقع التواجد على الحدود الغربية لها، حتى تنفذ ما تقتضيه المصلحة الأمريكية وفقط... أى أن توقيت الإعلان جاء كأنه رسالة ابتزاز وتهديد ووعيد بنفس المصير "لمن يعنيهم الأمر".

سادسًا: الإخراج البدائى والمكشوف إلى حد الفضيحة لعملية الاغتيال، وأن ذلك تم بالتنسيق مع السلطات الباكستانية، التى شاركت من جانبها فى هذه الفضيحة بإعلان عدم علمها بدخول طائرات حربية أجنبية إلى مجالها الجوى ثم اختراقها له إلى مسافة ستين كيلومتر من العاصمة، ثم قصفها لمكان يبعد مائة متر فقط عن قاعدة عسكرية باكستانية، ثم قتلها لرجل على الأرض والخروج بجثته دون علم أو إخطار أو اعتراض... إضافة إلى فضيحة إخراج عملية التخلص من جثة بن لادن: حيث أعلن عن إلقائها فى البحر دون توثيق عملية الاغتيال، أو حتى الإلقاء فى البحر، لا بالصوت ولا بالصورة.

إن أمريكا هى الطرف الأساسى والفاعل فى أكبر ثلاث كذبات فى التاريخ... وهى الآن تعيش حالة "العنفوان الإمبراطورى" الذى عادة ما ينتج غرور القوة وجنونها، ذلك الذى عادة ما يسبق حالة "الإنحدار الإمبراطورى"، الذى يعنى انحدار هذه الإمبراطورية من قمة القوة إلى سفح الانكسار... وهو ما يعنى خروجها من التاريخ.

لم يكن تنظيم القاعدة "المخترع" على عداء مع الغرب، ودوره العام كان فى خدمة هذا الغرب فعلاً. فوق أنه من الموثق أن تنظيم "القاعدة" لم يهاجم إسرائيليين أو يهودًا، مما يضع علامة استفهام كبيرة... طبعًا يمكن للشخص تخيل ما يشاء لكن تنظيم "القاعدة" بدأ تنظيمًا صنعه، والأصح اخترعه، الغرب أثناء الحرب ضد الاتحاد السوفيتى فى أفغانستان، ولم يحدث أن خرج عن ذلك الدور إجمالاً. وأحداث ١١ سبتمبر خدمت مشروعًا غربيًا وصهيونيًا للسيطرة على العالم، ونشهد هذا واضحًا منذ ذلك الحين. ربما حاول تغيير دوره عندما نبذه الغرب بعد سقوط السوفييت، وتحول لمنظمة عنف دون توجه، لكن بقيت قياداته الرئيسة موالية للمشروع الغربى.

لم يقم تنظيم "القاعدة" كما يعتقد البعض، بدور مقاوم للاحتلال الأمريكى للعراق، بل كان دوره بارزًا فى تصعيد وإثارة العنف والانقسام الطائفى... فلو تتبعنا مجمل العمليات العسكرية التى أعلن التنظيم مسئوليته عنها، نجد نسبة عظيمة منها ضحاياها عراقيون. نفس الأمر ينطبق واقعيًا على أفغانستان... فليس هناك دور حقيقى للقاعدة، والمقاومة الفعلية تمثلت بطالبان التى تدعمها قطاعات مهمة من المجتمع والمخابرات الباكستانية.

مستقبل الحركات القومية

المثير للانتباه أن أهم المشترك بين ثورات "الربيع العربى" تمثل فى غياب قسرى للحركات القومية من المشهد رغم مشاركتها فى الثورة المصرية والتونسية. وتم فرض واقع استقطابى للمشهد السياسى ضم الإسلاميين والليبراليين فقط. وكأن المشكلة الأولى هى هوية المجتمع وليست هوية المضمون السياسى له... كما أن المشترك الآخر بين هذه الثورات، تمثل فى غياب غير عادى لقضية فلسطين وأى قضايا سياسية مهمة للعرب بل حتى أى قضايا سيادية لدول هذه الثورات... والمشترك الثالث أن الأنظمة المستهدفة كانت - إلى حد ما - ذات خلفية قومية، فى حين لم تتعرض أى دولة ملكية أو موالية أو عميلة للغرب لأى تهديد جدى، رغم توفر الظروف الموضوعية للثورة فيها أكثر من الدول القومية.

وكل هذه المشتركات تؤكد دورًا خارجيًا بالتعاون مع القوى المستفيدة من التغيير (الإسلاميون والليبراليون) وكأن الجميع مبرمج لمثل هذا المشهد. ولأن القومية والوطنية تأتى فى مقدمة تعريف هويات الأمم والشعوب لكافة الحركات السياسية المعاصرة، فإن تغييب هذا الدور يحمل فى طياته محاولة تفكيك المجتمع العربى.

لكن هذا يتناقض مع طبيعة الأمم بشكل عام، وعاجلاً أو آجلاً سوف يضغط هذا العامل بقوة ضد رياح التغيير الموجهة. ومهما كانت نتائج المعركة الحالية فسوف يفرض هذا الوضع نفسه فى النهاية... وبالتأكيد ففشل المشروع الغربى سيقلل فترة وتكلفة عودة المشروع القومى العربى للصدارة.

يقول الدكتور إبراهيم علوش فى مقال له بعنوان "الحرب الثقافى" نشر فى صحيفة "العرب اليوم" يوم ٢٣ فبراير عام ٢٠١٠:

"فى عشرينيات القرن العشرين، قبل انتشار مقولة "صراع الحضارات" وتوظيفها من قبل المحافظين الجدد فى الإدارة الأمريكية لشن الحروب، وقبل صعود الحركات الإسلامية بأمدٍ طويل، صاغ المفكر الماركسى الإيطالى أنطونيوجرامشى (١٨٩١ ـ ١٩٣٧) فى كتابه "دفاتر السجن" مفهومًا اجتماعيًا ـ سياسيًا جديدًا وقتها هو مفهوم "الهيمنة الثقافية". وقد سعى من خلال ذلك المفهوم إلى تفسير سبب عدم وصول الثورة الاشتراكية إلى أوربا الغربية، قائلاً إن هيمنة الطبقة الرأسمالية على المجتمع لا تعتمد على القوة والمال والسلطة فحسب، بل على "الرضا"، رضا أغلبية المجتمع المسحوقة، عندما تتحول قيم الطبقة الحاكمة ومفاهيمها إلى قيم "بديهية" ـ حتمية وطبيعية ـ عند عامة الناس، فإنهم يرون الخروج عنها خروجًا عن المنطق السليم أو "الحس العادى" أو "الطبيعة الإنسانية". ومن هنا، اعتبر جرامشى أن الثقافة أو الهيمنة الثقافية بالتحديد، تشكل بُعدًا أساسيًا لهيمنة الرأسمالية على المجتمع لا يمكن تجاهله أبدًا فى خضم الإعداد للثورة السياسية أو حتى لفهم الوضع السياسى الراهن.

ومن هنا انطلق جرامشى الألبانى الأصل: ليحاجج بأن نجاح الثورة أو التغيير الاجتماعى يعتمد بشكل أساسى على إنتاج "ثقافة بديلة" عند الشرائح المسحوقة فى المجتمع، ثقافة تكرس ربط المعاناة الخاصة للمواطن بالمشكلة العامة: لأن الفرد قد يعيش أو يلمس انعكاسات البنية الاجتماعية الظالمة على جزيرته الصغيرة فى الوجود، دون أن يتمكن من رؤية الأسباب الأساسية للظلم الاجتماعى والاقتصادى والسياسى.

وفيما بعد طور جرامشى هذه الفكرة فى كتابه "الأمير الصغير": ليتحدث عن دور الطليعة الثورية فى المجتمع فى إنتاج "مثقف عضوى" من صفوف المستضعفين، يحمل ثقافة بديلة لقيم ومفاهيم ومؤسسات وتقاليد الثقافة السائدة بكل ما للكلمة من معنى، و"عضوية" بمعنى أنها بديلة لشريحة

"الإنتلجنسيا"، أو شريحة منتجى الثقافة والفكر والفن والكتابة (دون أن يكون كل هؤلاء من الكتاب طبعًا). وهى شريحة تمثل أداة الهيمنة الثقافية الرأسمالية على المجتمع، قد تظن نفسها فوقه أو منفصلة عنه، وهى فى الواقع جزء عضوى من نوع أخر للهيمنة التى تفرزها البنية الاقتصادية الاجتماعية السائدة على عقول الناس وقلوبهم... وقد تبلورت فكرة "تثقيف المسحوقين" فيما بعد بشكل مستقل نسبيًا.

إن "الحرب الثقافية" التى اعتبرها جرامشى "حرب مواقع" أى حرب بين جيوش ثابتة، لا بد لها أن تسبق "الحرب المتحركة" وهى التمهيد اللازم لمرحلة الهجوم أو الثورة السياسية... وبذلك دخل مفهوم "الحرب الثقافية" معجم العلوم السياسية والاجتماعية من أوسع أبوابه، وإن كان جرامشى، كماركسى قح، قد ربطه بالصراع الاجتماعى الداخلى فحسب عند هذه النقطة، لا الخارجى، وقد عنى به - تحديدًا - ضرورة قيام السياسيين والمفكرين المعادين للبنية السائدة وهيمنة النظام الرأسمالى، بمحاولة طرح فكرهم منهجيًا فى وسائل الإعلام والمنظمات الجماهيرية والمؤسسات التعليمية بقصد تعزيز الوعى الطبقى وغرس القناعة ببديل آخر للفكر السائد، وهو بديل شيوعى بالنسبة إلى جرامشى طبعًا.

ومع أن جرامشى هو واضع الفكرة بشكلها الأصلى، أى فكرة "الهيمنة الثقافية" و"الحرب الثقافية" اللازمة للتخلص من تلك الهيمنة، فإنه يسهل كثيرًا أن نتخيل نسخة قومية أو إسلامية، أو حتى إمبريالية، من مفهومى "الهيمنة" و"الحرب" الثقافية"... ففكرة جرامشى يمكن سحبها على كل حالة تعمل فيها جماعة بشكل منهجى منظم لنقل الثقافة السائدة جذريًا للأمام أو للخلف. ويمكن سحبها على جهود الغرب لتغيير قيم المجتمع العربى ومفاهيمه، من خلال مراكز الأبحاث ومنظمات التمويل الأجنبى مثلاً، كما يمكن سحبها على مشروع إحلال ثقافة قومية وحدوية محل الثقافة القطرية والطائفية والعشائرية والإثنية السائدة أو التفكيكية عامة، أو بالعكس. لا بل يمكن أن نتصور الحاجة الموضوعية لإيجاد ثقافة بديلة للثقافة السائدة فى المجتمع العربى كأحد أهم العوامل التى أدت إلى نشوء جيوب ثقافية سلفية أو أصولية تسعى إلى إعادة

إنتاج المجتمع على مقاسها، وتوفر فى الوقت نفسه ملجأً لها من هيمنة الثقافة السائدة، ولو بالعودة إلى الماضى الذى من المطلوب إعادة إنتاجه فى الواقع... حتى لو كان متناقضًا مع هذا الواقع.

وفى تسعينيات القرن العشرين، انطلق محافظو الحزب الجمهورى فى الولايات المتحدة ليشنوا حربًا ثقافية، كما سميت رسميًا وقتها، لإعادة تنظيم المجتمع الأمريكى نفسه من خلال الآليات نفسه التى وصفها جرامشى. مثل التعبئة والتنظيم وشن حملات فى وسائل الإعلام والمؤسسات التعليمية والثقافية والمنظمات الجماهيرية والقضاء... إن مفهوم "الإمبريالية الثقافية"، هو مفهوم تبلور فى ستينيات وسبعينيات القرن العشرين، يدرس عملية تحويل قيم المستعمِر ومفاهيمه ومؤسساته وتقاليده إلى أمرٍ بديهى وطبيعى، بل وحتمى فى عقول الشعوب المستعمَرة وأفئدتها، كما أنه مفهوم يحتاج إلى معالجة أكثر تفصيلاً، بخاصة فى سياق علاقة التبعية التى تفرضها الإمبريالية على الشعوب والأمم الفقيرة من خلال سيطرتها الكونية على تكنولوجيا المعلومات والاتصالات، وعلى وسائل إنتاج الثقافة والفن والإعلام عالميًا، عبر شركات عملاقة عابرة للحدود تصنع برنامج الحاسوب وفيلم هوليوود والتقريرالإخبارى الذى تتناقله وسائل الإعلام العربية كأنه كلامٌ منزل!

وقد أنتجت ممارسة "الإمبريالية الثقافية" فى التسعينيات، خلال فترة الهيمنة الأحادية للولايات المتحدة، مفهوم "القوة الناعمة"، وهى فكرة فرض الهيمنة من خلال استمالة وجذب العقول والقلوب عبر الأدوات الثقافية، مقارنةً بمفهوم "القوة الخشنة"، أى استخدام القوة العسكرية والسياسية والمالية لفرض الهيمنة... ومفهوم "القوة الناعمة" بلوره عالم السياسة الأمريكى جوزيف ناى فى تسعينيات القرن العشرين وبداية الألفية الثالثة، وقلنا بلوره ولم نقل وضعه، لأن ابن خلدون سبق أن تطرق لمفاهيم "الهيمنة الثقافية" وتشبه المغلوب بالغالب فى العادات والكلام واللباس... إلخ، وكذلك فعل بعض فلاسفة الصين القدماء.

المهم فى هذا السياق، سياق مقاومة "القوة الناعمة" كأداة لفرض الهيمنة، وسياق مقاومة "الإمبريالية الثقافية" فى ظل العولمة، أن العودة للأصول والتراث عند الشعوب المستهدفة تصبح شكلاً غريزيًا من أشكال "المقاومة الثقافية"، لا يجوز تقييمه إلا فى سياقه، الذى هو سياق الصراع السياسى ضد الإمبريالية بصفة عامة، وضد أدواتها الثقافية بصفة خاصة... والذى هو ليس صراعًا فى "مختبر" أو فى برج عاجى بين أنصار "ما قبل الحداثة" وأنصار "ما بعد الحداثة"، وإنما هو انعكاس ثقافى للصراع السياسى والعسكرى الدائر على الأرض، ولا يقل عنه ضراوةً... فى مثل هذا الصراع ومهما كانت المبررات، فإنه لا يجوز الاصطفاف إلا مع مشروع مقاومة الهيمنة الإمبريالية بكل صورها ومسمياتها.

أما آليات الدفاع الثقافى الغريزية، فهى فى النهاية آليات دفاع، ولن تستطيع أبدًا أن تصبح مشروعًا نهضويًا، وأن تعالج الواقع بشكل صحيح، أى أن تتحول إلى "حرب متحركة" بمعنى التصدى للأسباب الحقيقية للظلم الاجتماعى والسياسى والاقتصادى الداخلى والخارجى، دون رؤية علمية وموضوعية لتحديات العصر وتناقضاته... فذلك يحتاج إلى مشروع حداثى عربى من نوع آخر، لا يقطع مع التراث، بل ينبثق منه، ولا يغمض عينيه عن تناقضات العصر وتحدياته الآنية مع ماضٍ مجيد كانت ظروفه وتحدياته ومشكلاته مختلفة تمامًا... نحن بحاجة إذن لمشروع مقاومة ونهضة ثقافية لا يضيع الهوية، ولا يهرب من الواقع، ولا يستورد حداثة ذات مقاسات جاهزة من أزمنة أو أمكنة مغايرة.

الفوضى الخلاقة دليل إفلاس

يقول العميد المتقاعد برهان إبراهيم كريم على شبكة الإنترنت يوم ١٤/ ٤/ ٢٠١٢:

ظهر مصطلح الشرق الأوسط لأول مرة عام ١٩٠٢ على يد مؤرخ أمريكى يدعى تاير ماهان، وجسده البريطانى مارك سايكس فى اتفاقية سايكس بيكو عام ١٩١٧، فحوله بذلك من عبارة إلى أمر واقع. وبموجبه قسم الاستعمار والولايات المتحدة الأمريكية العالم إلى شرق أدنى وشرق أقصى وشرق أوسط.

ويعرف الأمريكى صموئيل هنتنجتون الفوضى الخلاقة بأنها هى "فجوة الاستقرار" التى يشعر بها المواطن بين ما هو كائن وما ينبغى أن يكون، فتنعكس بضيقها أو اتساعها على الاستقرار بشكل أو آخر. فاتساعها يولد إحباطًا ونقمة فى أوساط المجتمع، مما يعمل على زعزعة الاستقرار السياسى، لاسيما إذا ما انعدمت الحرية الاجتماعية والاقتصادية، وافتقدت مؤسسات النظام القابلية والقدرة على التكييف الإيجابى، فتتحول مشاعر الناس فى أية لحظة إلى مطالب ليست سهلة للوهلة الأولى، وأحيانًا غير متوقعة، مما يفرض على مؤسسات النظام ضرورة التكيف من خلال الإصلاح السياسى، وتوسيع المشاركة السياسية، واستيعاب تلك المطالب. أما إذا كانت تلك المؤسسات محكومة بالنظرة الأحادية، فإنه سيكون من الصعب الاستجابة لأى مطالب إلا بالمزيد من الفوضى، والتى ستقود فى نهاية الأمر إلى استبدال قواعد اللعبة واللاعبين. والأمريكى مايكل ليدين صاغ مفهوم "الفوضى الخلاقة" أو "الفوضى البنَّاءة" أو "التدمير البنَّاء" فى معناه السياسى الحالى عام ٢٠٠٣، تحت مسمى مشروع التغيير الكامل فى الشرق الأوسط. وارتكز المشروع على منظومة من الإصلاحات السياسية والاقتصادية والاجتماعية الشاملة لكل دول المنطقة، وفقًا لإستراتيجية جديدة تقوم على أساس الهدم ثم إعادة البناء. وطور المحاضر الأمريكى توماس بارنيت فى وزارة الدفاع الأمريكية نظرية الفوضى الخلاقة، فقسَّم العالم إلى: القلب أو المركز أمريكا وحلفائها، ودول العالم الأخرى هى دول "الفجوة" أو "الثقب" والتى تشبه ثقب الأوزون الذى لم يكن ظاهرًا قبل أحداث ١١ سبتمبر. ودول الثقب هذه هى الدول المصابة بالحكم الاستبدادى، والأمراض والفقر المنتشر، والقتل الجماعى والروتينى، والنزاعات المزمنة، وهذه الدول تصبح بمثابة مزارع لتفريخ الجيل القادم من الإرهابيين. وبالتالى فإن على دول القلب العمل على انكماش الثقب من داخله، فالعلاقات الدبلوماسية مع دول الشرق الأوسط لم تعد مجدية: لأن الأنظمة العربية بعد سقوط العراق لم تعد تهدد أمن أمريكا، وأن التهديدات الحقيقية تكمن وتتسع داخل الدول ذاتها، بفعل العلاقة غير السوية بين الحكام

والمحكومين. فبالفوضى البنّاءة ستصل دول الثقب إلى الدرجة التى يصبح فيها من الضرورى تدخل قوة خارجية للسيطرة على الوضع وإعادة بنائه من الداخل، على نحو يعجِّل من انكماش الثقوب وليس مجرد احتوائها من الخارج، والولايات المتحدة هى الدولة الوحيدة التى يمكنها من التدخل السيطرة على الأوضاع فى دول الثقب. والفوضى الخلاقة كأيديولوجية أمريكية لها مدرستان:

الأولى: مدرسة فرانسيس فوكوياما بكتابه نهاية التاريخ. والتى قسم فيها العالم إلى عالم تاريخى غارق فى الاضطرابات والحروب، وهو العالم الذى لم يلتحق بالنموذج الديموقراطى الأميركى. وعالم ما بعد التاريخى وهو الديموقراطى الليبرالى وفق الطريقة الأمريكية. ويرى أن عوامل القومية والدين والبنية الاجتماعية أهم معوقات الديموقراطية. والمدرسة الثانية مدرسة صمويل هنتنجتون فى مؤلفه صراع الحضارات. حيث يعتبر أن مصدر النزاعات والانقسامات فى العالم سيكون حضاريا وثقافيا، والخطوط الفاصلة بين الحضارات ستكون هى خطوط المعارك فى المستقبل. ورغم تناقض المدرستين، فإنهما تتفقان على ضرورة بناء نظام عالمى جديد تقوده الولايات المتحدة، إضافة إلى معاداة الحضارة الإسلامية باعتبارها نقيضًا ثقافيا وقِيَميا للحضارة الغربية.

وقد عبر ديك تشينى نائب الرئيس الأمريكى السابق فى مؤتمر دافوس الاقتصادى عن ذلك بالقول: "إن جميع الحضارات يجب أن تكون فى خدمة الحضارة الأمريكية وخاضعة لها، وكل حضارة لا تخضع لهذا المبدأ يجب أن تنتهى كما انتهى غيرها".

والمتتبع لهذا المصطلح يجده فى بروتكولات صهيون وفى مؤلفات بعض الكتاب. ففى بروتوكولات صهيون نجد هذا النص: كنا قديمًا أول من صاح فى الناس "الحرية والمساواة والإخاء" كلمات ما انفكت ترددها منذ ذلك الحين ببغاوات جاهلة متجمهرة من كل مكان حول هذه الشعائر، وقد حرمت بترددها العالم من نجاحه، وحرمت الفرد من حريته الشخصية الحقيقية التى كانت من قبل فى حمى يحفظها من أن يخنقها السفلة. إن أدعياء الحكمة والذكاء من

الأمميين (غير اليهود) لم يتبينوا كيف كانت عواقب الكلمات التى يلوكونها، ولم يلاحظوا كيف يقل الاتفاق بين بعضها، وقد يناقض بعضها بعضًا. ولم يروا أنه لا مساواة فى الطبيعة، وأن الطبيعة قد خلقت أنماطًا غير متساوية فى العقل والشخصية والأخلاق والطاقة. وفى البروتوكول العاشر ورد هذا النص: يصرخ الناس الذين مزقتهم الخلافات وتعذبوا تحت إفلاس حكامهم هاتفين: اخلعوهم، وأعطونا حاكمًا عالميًا واحدًا يستطيع أن يوحدنا، ويمحق كل أسباب الخلاف، وهى الحدود والقوميات والأديان والديون ونحوها. حاكمًا يستطيع أن يمنحنا السلام والراحة اللذين لا يمكن أن يوجدوا فى ظل حكومة رؤسائنا وملوكنا وممثلينا. وهذا الحاكم ما هو إلا نبى بنى إسرائيل المنتظر. والذى أخبر عنه النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - بأنه المسيح الدجال. والباحث الأمريكى دان براون نسب إلى الأب ديف فليمنج بكنيسة المجتمع المسيحى بمدينة بتسبرج ببنسلفانيا قوله: الإنجيل يؤكد لنا أن الكون خلق من فوضى، وأن الرب قد اختار الفوضى ليخلق منها الكون، وعلى الرغم من عدم معرفتنا لكيفية هذا الأمر، فإننا متيقنون أن الفوضى كانت خطوة مهمة فى عملية الخلق. ومؤسس المذهب الجديد فى علم العلاج النفسى مارتن كروزرز يقول: الفوضى هى إحدى العوامل المهمة فى التدريب والعلاج النفسى، فعند الوصول بالنفس إلى حافة الفوضى يفقد الإنسان جميع ضوابطه وقوانينه. وعندها من الممكن أن تحدث المعجزات. فيصبح قادرًا على خلق هوية جديدة، بقيم مبتكرة ومفاهيم حديثة، تساعده على تطوير البيئة المحيطة به. وآدم وايزهاوت قال: إن خلق فوضى عارمة وعنف وإراقة دماء بمستوى عالمى لخلق حالة من الرعب والخوف العالمى يوحد جميع البشر على الأرض فى نظام عالمى جديد. نظام من رحم الفوضى لا يعترف بدين ولا قومية ولا حدود نظام عالمى إلحادى دنيوى. وبنظر هؤلاء فإنه بعد هذه الفوضى التى تهدم البنى الفوقية والتحتية، يتم إعادة البناء من قبل البنائين الأحرار. وتمثل كتابات اليوت كوهين أحد المصادر المهمة لنظرية الفوضى الخلاقة وخصوصًا كتابه القيادة العليا، الجيش ورجال الدولة والزعامة فى زمن

الحرب. ويرى كوهين: أن الحملة على الإرهاب هى الحرب العالمية الرابعة باعتبار أن الحرب الباردة هى الثالثة، ويؤكد أن على الولايات المتحدة أن تنتصر فى الحرب على الإسلام الأصولى. والمنشق السوفيتى المهاجر إلى إسرائيل ناتان شارانسكى والذى شغل منصبًا وزاريًا فى حكومة شارون مؤلف كتاب قضية الديموّقراطية ،وجاء فيه هذا النص: الإسلام حركة إرهابية لا تهدد إسرائيل فقط وإنما العالم الغربى بأكمله... واستئصال الإرهاب لا يتم باستخدام القوة وتجفيف المنابع فقط وإنما بمعالجة الأسباب العميقة للإرهاب التى تنبع من سياسات الأنظمة العربية الاستبدادية والفاسدة وثقافة الكراهية التى تنشرها. ويتفق شارانسكى بهذا الطرح مع أطروحة هنتنجتون التى تنص على أن الإسلام عدو حضارى للغرب. وأطروحة التدمير الخلاق لصاحبها شامبيتر، والتى يقول فيها عن الرأسمالية: ليس القديم بالرأسمالية هو الذى يفرز الجديد، بل إن إزاحته التامة هى التى تقوم بذلك. والذى يتمترس وراء الإزاحة إياها إنما هو المقاول المبدع الذى يثوى خلف السلعة الجديدة والمزج الإنتاجى الجديد والسوق الجديدة ومصادر الطاقة الجديدة... هو نظام تقدمى بالتأكيد حتى وإن بدا ظاهريًا غير مرغوب فيه. ويتابع موضحًا: إن المنافسة الهدامة... هى أيضًا تدمير هدام يسهم فى خلق ثورة داخل البنية الاقتصادية عبر التقويض المستمر للعناصر الشائخة والخلق المستمر للعناصر الجديدة. وهذه الأطروحة طوعتها الإدارات الأمريكية لتغدو عقيدة يسترشد بها ساستها ومفكروها والمحافظون الجُدُد فى علاقة الولايات المتحدة بالوطن العربى بداية هذا القرن.

وكونداليزا رايس مستشارة الأمن القومى طلت علينا عام ٢٠٠٥ تزف لنا البشرى بأن إدارتها اعتمدت الفوضى الخلاقة لإقامة شرق أوسطى جديد تزهر فى ربوعه قيم الديموقراطية فى العالم العربى وتتحرر فيه المرأة لأنها تمثل نصف المجتمع. وأن إدارتها أوكلت مهمة تنفيذ هذا المشروع إلى أصغر مستشاريها، وهو الصهيونى واليهودى جاريد كوهين مؤسس منظمة "موفمنتس" لتدريب وجمع النشطاء حول العالم، والعضو فى برنامج "جيل جديد" التابع

لمنظمة فريدوم هاوس، ومدير الأفكار فى شركة جوجل... والولايات المتحدة الأمريكية التى هزمت فى العراق وأفغانستان، باتت تشعر بأن مصالحها وحاضر ومستقبل حليفتها الإستراتيجية إسرائيل فى أعلى درجات الخطر، ولا قدرة لهما على فعل شىء فى الوقت الحاضر سوى كسب الوقت... وأن الفوضى الخلاقة أو الفوضى البنَّاءة، أو التدمير البنَّاء كما يسميها البعض (وهو مصطلح ماسونى) هى المسكن لأوجاعها، وحتى أنها القشة التى ستنقذها من الغرق ، وتوصلها وإسرائيل إلى بر الأمان، وتحقق لهما أهدافًا عدة، أى "صيد أكثر من عصفورين بحجر واحد"... والأهداف حددها بعض رجال الفكر والسياسة بما يلى:

- إحداث حالة تغييرات محددة فى المجتمعات تسمح لها بتقسيم المقسم وتجزئة المجزأ. وتفكيك مجتمعات وأنظمة ودول، ترى فيهم مصادر خطر على مصالحها وعلى مصالح إسرائيل فى الحاضر وفى المستقبل.

- والفوضى الخلاقة - من وجهة نظرها - ستخلق فى النهاية نظامًا عالميًا جديدًا يخدم مصالحها ومصالح إسرائيل.

- والفوضى توقد نيران الحروب الأهلية والفتن، تلك التى تضرم النار داخل العائلة والأسرة والبيت الواحد.

- والفوضى ستنشر ثقافات وبدعًا دخيلة، وتتشدق بألفاظ جُوفت معانيها وباتت لا معنى لها. ولكنها ستؤدى بالمجتمعات إلى التحلل والانسلاخ عن قيمها ومبادئها السائدة نحو القيم الأمريكية.

- والفوضى ستخلق حالة من الخوف والفوضى وعدم الاستقرار وفقدان الأمن. وهذا سيؤدى - حتمًا - إلى بناء نظام سياسى جديد يضمن لها استمرار نظام قطبيتها الأوحد. وهو ما يشبه العلاج بالصدمة الكهربائية لتشغيل قلب متوقف عن الحركة.

- وبالفوضى يمكن إقصاء مصطلَحَى العالم العربى والإسلامى من القاموس الدبلوماسى. والتعامل مع العالم العربى من خلال مقاربة خاصة بكل بلد على حدة، ومحاربة التيارات الإسلامية بلا هوادة.

- والفوضى الخلاقة توفر للإدارة الأمريكية التمترس والتخفى خلف دعوات الإصلاح والديموقراطية والتغيير. بعد أن فقدت الحفاظ على الوضع الراهن. وتبنى هذه الأهداف يوفر لها أعداء جدد، يبررون لها عدوانيتها. والعدو الذى يجب تدميره هو أيديولوجى بالدرجة الأولى، وهو الشمولية الإسلامية.

- والفوضى الخلاقة توفر لأمريكا أسباب تدخلها فى شئون باقى الدول. فمفهوم السيادة والشأن الداخلى للدول بات شأنًا داخليا للولايات المتحدة الأمريكية: لأن مصالحها وسعيها للسيطرة على حقول النفط بات مرتبطًا بالأمن القومى الأمريكى. وبذلك فالأوضاع الداخلية لبلدان الثقب تحتاج إلى تحول شامل. والتحول لن يحدث إلا عبر التدمير الخلاق، الذى سينتهى بإزالة الأنقاض ورفع الأشلاء، ثم تصميم نظام سياسى جديد خانع ومستسلم ولا يهدد مصالحها ومصالح إسرائيل. ولذلك كان جواب بوش على أى سؤال وجه إليه عن سبب تدمير البنى التحية والفوقية وحجم الخراب والدمار الذى لحق بالعراق نتيجة الغزو والاحتلال الأمريكى للعراق، بأنه عملية بناء عراق حر وديموقراطى. وكذلك كان جواب دونالد رامسفيلد عن سر صمت الإدارة الأمريكية عن عمليات النهب والسلب والحرق والتخريب فى العراق. حين قال: إنها عمليات إيجابية وخلاَّقة وواعدة بعراق جديد.

- والفوضى الخلاقة فى الشرق الأوسط يجب أن تقاس على مسطرة المصالح الأمريكية، فزيادة حالة الغليان وعدم الاستقرار لزيادة حدة الخلاف بين الحكام والمعارضة فى دول المنطقة، سيحدث نوعًا من الهدوء والطمأنينة على الساحة الأمريكية، ويؤمِّن أهدافها الحيوية فى بلدان الشرق الأوسط.

- والفوضى الخلاقة أوجزتها وزيرة الخارجية الأمريكية رايس بقولها: إن الولايات المتحدة سعت على مدى ستين عامًا إلى تحقيق الاستقرار فى الشرق الأوسط على حساب الديموقراطية، ولم تحقق أيًّا منهما. وتتبنى الآن نهجًا مختلفًا. إن هناك من يقول: إن الديموقراطية تقود إلى الفوضى والصراع والإرهاب، والحقيقة أن العكس هو الصحيح، فالفوضى تمثل الأساس المنهجى

لخلق الديموقراطية الأمريكية المنشودة. وحول ما يشهده العالم العربى من ثورات صرحت كوندوليزا رايس لصحيفة "الواشنطن بوست" قائلة: إن الفوضى التى تفرزها عملية التحول الديموقراطى فى البداية، هى من نوع الفوضى الخلاَّقة التى قد تنتج فى النهاية وضعًا أفضل مما تعيشه المنطقة حاليًا.

- والفوضى الخلاقة تبرر استخدام القوة العسكرية أو التهديد بها لتغيير الأنظمة بذرائع شتى كما حدث فى العراق وغيره. وتسهم فى تفجير الأمن الداخلى للمجتمعات والدول ، وتأجيج المشاعر الطائفية.

- والفوضى الخلاقة ستزيد من أواصر عرى الصداقة بين البترو دولار النفطى ومصالحها؛ حيث التقى الطرفان على هدف يخدم مصالحهما معًا، المصالح الغربية والاستعمارية فى تقسيم وتجزئة وتفكيك الجغرافيا العربية وإعادة تركيبها خدمة للأهداف الأمريكية والغربية فى المنطقة. من خلال السيطرة الأمريكية على مواردها وثرواتها، وبالمقابل حماية الأنظمة النفطية الحليفة لها من أن تطالها عمليات التغير بفعل ثورات الربيع العربى. أو أن تطال أنظمة الإسلام السياسى كنظام رجب أردوغان.

- وبالفوضى الخلاقة تتمكن من استغلال تناقضات المجتمعات الذاتية والبينية، وتوظفها من أجل إنهاك المجتمعات وتركيع أنظمتها، فكما توظف الخلافات الحدودية، فهى ستوظف التباينات الطبقية والمذهبية، وتفاقمها إلى أن تصبح انشقاقات سياسية ذات آلية مدمرة، تتيح لها فرص التدخل المباشر، وتوجيه حركة الصراع، بما يخدم مصالحها الخاصة ومصالح إسرائيل وقوى الاستعمار.

- وبالفوضى الخلاقة تتمكن من التلاعب بملف المرأة، والإيحاء بتخلف الإسلام فى التعامل مع نصف المجتمع. وتبرير نشر الرسوم المسيئة للرموز الإسلامية على أنها شكل من حرية التعبير، ودعم الحريات الشخصية كحقوق الشواذ والمِثْليين، والتدخل بذريعة حماية حقوق الإنسان، أو مساندة ونصرة

الأقليات، أو دعم حقوق المجتمع المدنى، ولعب أدوارًا خفية لزرع الفتن الطائفية والمذهبية والعرقية لتشويه صورة الاسلام فى عيون الآخرين، وزعزعة القيم الإسلامية داخل المجتمعات.

- وبالفوضى الخلاقة يتوفر لها ولإسرائيل مناخ فكرى يخلق له بيئة آمنة للتواجد المستقر فى إطار المجتمعات، دون حاجة للنخب الحاكمة لتلك المجتمعات، وربط العالم بشبكة اتصال واحدة، من شأنها خلق عقل جمعى مبرمج وفق النمط الأمريكى الذى تسعى لفرضه فى نهاية المطاف.

- وبالفوضى الخلاقة يمكن التلاعب بعواطف الجماهير المتعطشة للحرية والديموقراطية ومحاربة الفساد وتحقيق التنمية والتغيير والإصلاح المنشود: حيث تمارس بحرية ازدواجية بشأن كل ثورة أو حراك، بما يخدم مصالحها ومصالح إسرائيل. مع تأجيج نيران الصراع فى كل ثورة وحراك حتى تحصد الكثير من الدماء والأرواح. بحيث ينمو ويثمر الحقد والثأر لعقود طويلة. وهيلارى مان ليفريت المسئولة السابقة فى البيت الأبيض قالت: واشنطن لا تهتم بالمدنيين. وربما فى غيرهما من الدول.

- والفوضى الخلاقة توفر للولايات المتحدة الأمريكية فرص البراءة عن جميع جرائمها السابقة. فتتحول من عدو إلى صديق، ويصبح الصديق هو العدو فى كل دولة يجتاحها ثورة أو حراك.

- والفوضى الخلاقة تمكن من تصنيع تيارات وأحزاب مزركشة وملونة ظاهرها نشر قيم الحرية والديموقراطية والمجتمع المدنى وحقوق الإنسان، وباطنها محاربة قوى المقاومة والقوى الوطنية.

- وبالفوضى الخلاقة يمكنها تشويه صور الثورات الوطنية وصور الزعماء الوطنيين فى بعض الدول.

ولتطبيق الفوضى الخلاَّقة، جندت الولايات المتحدة الكثير من الإمكانيات، والعديد من وسائل الجذب والضغط والإقناع الإيديولوجى، على مختلف الأصعدة

الإعلامى والاقتصادى والسياسى والاجتماعى والثقافى، ومن ذلك: اتفاقيات التجارة الحرة، والحث على تعديل الدساتير الوطنية، وإقرار قوانين محاربة الإرهاب، وتسخير الإعلام الأمريكى بكافة أشكاله والفضائيات ووسائط الإعلام المقروءة والمكتوبة العربية والأجنبية الذيلية للإعلام الأمريكى والإسرائيلى كفضائيات الجزيرة والعربية وفرنس ٢٤ والـ bbc والمحطات الإذاعية الناطقة بالعربية، وخدمات التواصل الإلكترونى المجانى كتويتر والفيس بوك والمواقع التى تعج بها شبكة الإنترنت، والتواصل المكثف مع النشطاء والحقوقيين، والتركيز على بعض المسئولين الحكوميين والأكاديميين الذين تلقوا تعليمهم فى أمريكا وأوربا. وكذلك حشد بعض الأنظمة الحليفة لها كرجب طيب أردوغان وحكومة وحاكم قطر، إضافة إلى تبنى أو دعم عدد من أطراف المعارضة فى البلدان المستهدفة بشكل فردى أو مؤسسى: كى يؤول إليهم مهمة قيادة المعارضة فى الدولة التى تشتعل فيها الثورة أو الحراك. بحيث يكون النظام الجديد فى هذه الدول حليف مضمون للولايات المتحدة الأمريكية ومدافع شرس عن مصالحها. وبذلك يتم سرقة الثورة من جماهيرها من قبل ثلة هم من أعمدة النظام السابق كما حدث فى مصر وليبيا وتونس.

نذكر الإدارة الأمريكية التى تكن العداء للإسلام بأنها وإسرائيل دولتين قامتا على أساس دينى. فالرئيس أيزنهاور قال: ليس لحكومتنا أى معنى ما لم تتأسس على الشعور بالإيمان الدينى العميق. ولا يهمنى ما يكون هذا الدين. ونقول للرئيس أوباما وإدارته: إن الفوضى هى لعب بالنار ستحرق أصابعه إن لم تحرقه مع غيره. وأن الفوضى الخلاقة التى ينشرها هو وإدارته ويطربون لانتشارها دليل على ضعف كبير فى البصر وقصور أكبر فى البصيرة لديه ولدى رموز إدارته. وبلادهم ستكون من ضحايا هذه الفوضى الخلاقة التى ينشدونها.

وفى سياق ذكر أوباما ـ فقد نشرت صحيفة "الأهرام" يوم مايو ١٥ مايو ٢٠١٢ ـ مقالاً صغيراً للأستاذ مصطفى سامى من مونتريال بكندا بعنوان "أوباما وتأييده الشاذ لزواج المثليين، ورد فيه:

"الرئيس الأمريكى باراك أوباما فاجأ المجتمع الأمريكى والعالم فى حديثه لشبكة ABC الأمريكية بهذا التصريح الشاذ، والذى أعلن فيه أن أبناء وبنات الجنس الواحد من حقهم أن يتزوجوا، وأن موقفه من زواج المثليين قد تغير مع مرور الوقت... أوباما اتخذ موقفًا صريحًا فى قضية بالغة الحساسية تحدث انقسامًا فى المجتمع الأمريكى منذ عدة سنوات، وقد تجنب كل الرؤساء الأمريكيين السابقين أن يعلنوا رأيهم فيها بالإيجاب أو بالسلب... لكن أوباما بهذا التصريح يؤكد من جديد أنه على استعداد أن يتنازل عن كل مبادئه ومواقفه من أجل الصوت الإنتخابى، ومن أجل أن يفوز بولاية ثانية... إنه أوباما نفسه الذى صرح خلال حملته الانتخابية الأولى منذ أربع سنوات بأن الزواج الطبيعى هو بين رجل وامرأة بهدف تكوين أسرة... سبعة ولايات أمريكية فقط توافق على زواج المثليين مدنيًا، بينما الغالبية ترفض هذا الزواج. وبينما يؤيد ٧٥٪ من أعضاء الحزب الديموقراطى حق زواج المثليين، فإن ٧٦٪ من الجمهوريين يرفضونه، وينقسم الشعب الأمريكى بالتساوى بين المؤيدين والمعارضين... كانت كندا من أولى الدول فى الاعتراف بحق المثليين فى الزواج، وحتى عام ٢٠٠٣ كانت هناك ثمانية أقاليم تمثل ٩٠٪ من من سكان كندا تعترف بهذا الحق و٦٠٠٠ حالة زواج بين اثنين من نفس الجنس، وفى عام ٢٠٠٥ قدم الحزب الليبرالى مشروعًا بقانون إلى مجلس العموم يعطى المثليين الحق فى الزواج، وقد وافقت عليه الأغلبية بينما رفضه ١٢٣ عضوًا يمثل أغلبهم حزب المحافظين... وأتى ترتيب كندا رقم ٤ فى الاعتراف بهذا النوع من الزواج... المؤكد أن الرئيس الأمريكى سوف تضاف الى حملته الانتخابية عدة ملايين من الدولارات من المليونيرات الشواذ والمتحررين الذين سيعطونه أيضًا أصواتهم... لكننى أعتقد أن باراك حسين أوباما فقد احترام ومساندة ملايين الأمريكيين وغيرهم حول العالم بهذا التصريح من وجهة نظرنا على الأقل".

ذلك هو المستوى القيمى والأخلاقى المتدنى والشاذ لرئيس الإمبراطورية الأمريكية (رأس الحضارة الغربية) باراك أوباما... الذى يقدم بتصريحه هذا،

بيانًا عمليًا وعينة واضحة ودامغة للحضارة الغربية الفاجرة التى لا تتحرج من أى شىء، والتى لا تحدها أى حدود لأعراف وسنن الاجتماع البشرى ولا للتقاليد ولا للأخلاق، ولا حتى لحكمة الخلق وجوهر النمو "العددى" للموجودات الحية على الأرض الذى لا يتحقق إلا بالتناسل، ذلك الذى لا يتحقق أيضًا إلا بجماع فطرى ومقصود بين الذكر والأنثى، سواء من البشر أم أى من الموجودات الحية الأخرى.

إن الاستجابة لرغبات "الشواذ" هى خروج فاجر عن الطبيعة البشرية، وكسر مجرم لمنطق الاجتماع الإنسانى، وتدمير حيوانى للجهد المُنظم والمستقر لعمارة الأرض.

أخـــيرًا..

لقد حاولنا من خلال سطور الصفحات التى سبقت أن نقدم بعضًا يسيرًا جدًا من كثير جدًا من صفحات "التاريخ الأسود" للحضارة الغربية، التى مارست كل ما هو ضد التاريخ وضد العدل وضد المنطق وضد الأخلاق، حتى صنعت التقدم ـ فى أعلى مستوياته ـ لنفسها، وفى الوقت نفسه صنعت التخلف فى أدنى مستوياته للآخرين، بعد أن سرقت جهودهم وعلومهم ومواردهم وطاقاتهم... وشوهت أنساقهم وموروثاتهم التاريخية والثقافية.

كما حاولنا ـ بقدر الإمكان ـ توضيح ما قد حاق بأمتنا العربية ـ تحديدًا ـ من جرائم وشرور وخطايا هذه الحضارة العدوانية... والفاجــرة.

مـراجـع الكتـاب

١ ـ كتاب "لعبة الأمم" مايلز كوبلاند ـ ١٩٦٩

The game of nations Miles Copeland، Weidenfeld & Nicolson London 1969.

٢ ـ "نهاية التاريخ فرنسيس فوكوياما" ـ ١٩٩٢

The End of History and the Last Man Author(s) Francis Fukuyama Language English Publisher Free Press Publication date 1992 Pages 418 ISBN 0029109752

٣ ـ "صـراع الحـضـارات" صموئيل هنتنجتون ١٩٩٦

Samuel P. Huntington، Simon & Schuster، 1996 ISBN 0-684-84441-9 OCLC Number 38269418

٤ ـ "صعـود وانهيار القوى العظمـى" بول كيندى ١٩٨٧

1 - 54674 OCLC Number 15594794 Paul Kennedy, Random House, 1987 Pages 677 ISBN 0-394-

٥ ـ "تاريـخـنا وبقـايـا صـور" الدكتور شـاكر مصـطفى.

الكاتب في سطور

ـ محمد أحمد إبراهيم يوسف.

ـ من مواليد بلقاس محافظة الدقهلية ـ مصر.

ـ بكالوريوس التجارة من جامعة الإسكندرية.

ـ دبلوم الدراسات العليا فى التسويق من جامعة القاهرة.

ـ أحد قيادات منظمة الشباب الاشتراكى العربى فى مصر.

ـ عضو مؤسس للحزب العربى الديمقراطى الناصرى.

ـ عضو "لجنة توحيد التيار الناصرى" بمصر.

ـ عضو مؤسس للمؤتمر الناصرى العام على المستوى القومى العربى الذى صدرت عنه "الوثيقة الفكرية للناصريين".

ـ عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

ـ أحد مؤسسى "وحدة الدراسات الناصرية" بالمركز العربى للصحافة والإعلام والنشر بالقاهرة.

اصدارات المؤلف

- "التراجع الضعيف أم انتقام الأرشيف".

- "الناصرية هل تجاوزها الزمن؟".

- " الشرط الحاكم - المفهوم الناصرى للديمقراطية".

- "الناصرية بين هيكل وفؤاد زكريا (طبعة ثانية لكتاب "التراجع الضعيف أم انتقام الأرشيف").

- "قناة السويس وعبد الناصر - الخروج من التاريخ والدخول إليه".

- "أوراق ناصرية - أوراق بنى مر" - الجزء الأول.

- "الحضارة الغربية... وصناعة التخلف".

الفهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب